

أعلام العرب

١٩

زكريا أحمد

بقلم
صبري أبوالمجد

مكتبة زكريا أحمد
مؤسسة المصطفى العائلي
للشأن والتربية والعلوم والاسرة

مقدمة

هذا الذى بين يديك ليس مجرد قصة أو رواية طويلة أو قصيرة ، كما أنه ليس مجرد نشر لبعض المذكرات أو الذكريات الفنية ، انه مزيج من كل هؤلاء . فيه القصة وفيه الرواية وفيه التاريخ الحى ، لفنا وقتنا ، وفيه المذكرات والذكريات والأحداث التى يزاح عنها الستار للمرة الأولى ، خلال المستن عام الأخرى .. انه الوعاء الذى يضم حياة فنان خرج من القاع ، لترجع على القصة .. فنان رأى ما لم يره غيره من صعود الى أعلى ، ومن هبوط الى أسفل . ومن غنى فاحش الى فقر مدقع : الناس تلتف حوله ، والناس تنفض عنه ، يكسب الألوف من الجنيهاً ، ثم لا يتبقى فى يده بعدئذ الملايم ، تسعد ملايين العرب كل ليلة بألحانه الخالدة ، وهو مصاب بالذبحة الصدرية يسكن فى الدور الخامس ، فى عمارة ليس بها « مصعد » ولا يعثر على الأدوية الضرورية الا بشق النفس وهو يستطيع فى هذا الوقت أن ينتقل الى أفهم المستشفيات كما يستطيع أن يسكن أجمل القبلات ، ويستطيع أن يجرى الذهب بين يديه ، لو أنه تراجع فى كلمة أو لو أنه اختار طريقاً غير الطريق الذى اختاره . يرفض الألوف من الجنيهاً وهو لا يجد الملايم ، لأنه يرى — وقد يكون ما براه خطأ — أن فى قبول الألوف اذلالاً لكرامته

أو امداء على حقه ، ويرفض أن يفنى في حفلات « البكوات »
و « الباسوات » وكبار الكبراء مهما دفعوا له من مئات الجنيهاات
والوفها في الوقت الذي يسمى فيه ومعه بطاقتة وأهل الهوى من
خامته الى منزل يقع في عطفة هي جزء من حارة تهرعت من شارع
في جهة نائية من الدرب الأحمر ، ليحيى حتى الصباح حفلة ختان
الطفل الأصغر للمعلم عزوز الحلواني ..

لقد كان أهم ما يحرص عليه كرامته ، وفنه ، وربما كان
حرصه على كرامته وكرامة فنه أكثر من حرصه على الفن ذاته ..
وكان اصدق الناس في كل ما يتعلق بحياته .. في علاقته بنفسه ،
وعلاقته بنيره : الصفاء والود والحب والاخلاص هي الدعائم
الأولى لوجوده وكيانه ..

كان انسانا وكان فنانا .. بل كان مطربا وملحنا ومؤلفا ومثلا ..
وكان في الوقت ذاته فيلسوفا .. وفي ذلك كله كان ملهما ، وكانت
شفافة فيه ، وياض قلبه تيره وتسيطر عليه وتعرض على الناس
فنه ، وخلقه وانانيته ..

كان من طراز غريب ، لا تجد له مثيلا الا في حالات نادرة
قلما يجود بها الزمن الفنين بالرجال .. حياته أشبه بأسطورة من
أساطير تاريخنا القديم .. وكان فنه ، أكثر ما يكون تعبيرا عن
أمسالة الشرق ، وسحره ، وجماله ، وكان قلبه أقرب ما يكون الى
قطن بلدنا في ياضه وطول تيلته .. وكانت أحاديثه ، أشبه ما تكون
بالعلوى اللذيذة النادرة التي لا ينبع منها الانسان .

لقد استطاع زكريا أحمد بذكائه وعبقريته ، وصفاء فيه ،

وحلاوة شخصيته ، أن يقيم مملكة واسعة دائمة كل ما فيها من حياة وحلاوة ، وصفاء ، وبياض ليست ملكا لصاحبها وحده بل للوطن الذي كان يقدسه ، وللنفس الذي كان من أخلص خدامه وللإنسانية التي كان هو نفسه من أقوى الأدلة على ما تمتلئ به من حب وصفاء ، وقاء ، وعزة وكرامة ..

ترتبط مثلاً حياته ، بحياة أم كلثوم ، أكثر من عشرين عاما يلزمها فيها منذ أن خطت خطواتها الأولى نحو الشهرة والمجد ، الى أن أصبحت فنانة الشرق الأولى ، ويختلف معها بسبب كلمة لا تقدم ولا تؤخر ، ولكنه يرى هذه الكلمة — وإن كان الأصدقاء المشتركون يرون العكس — ماسة بكرامته ، ويصل الخلاف الى القضاء ، وتتضخم المرافعات والمذكرات ، وتقارير الخبراء ، ويعاود الأصدقاء المشتركون طوال عشر سنوات انتهاء هذا الخلاف وإعادة المياه الى مجاريها النقية ، فيفشلون ، لأن الشيخ مستبد براه صارم في خلافه ، وبكلمة واحدة من القاضى ، تنهار أسس الخلاف وتنتهى تلال الدوسيات والتقارير والمرافعات وألوف الجنيحات الى لا شيء ..

ويختلف مع الإذاعة وهي قد تكون مصدر رزقه الوحيد ، ويصل الخلاف الى المحاكم ويدفع الشيخ كل ما يملك بل يستدين ، لينفق على القضية التي بدأت بكلمة من موظف مسئول ، ثم ينتهى هذا الخلاف العاد بكلمة ينطق بها محفى شاب لا يملك من أمر دنياه شيئا ، وتعرض عليه الإذاعة أن تدفع له أضعاف ما تدفع لغيره وأن تبيع له من القرص ما لا تباح لغيره ، وببلى

شروطا عادلة مرة وقاسية مرة أخرى وتستجيب الاذاعة ، لاشتراطات الموسيقار الكبير وترتاح نقوس الأهل والأصدقاء ، لانتهاء هذا الخلاف الذى أثر فى صحة الشيخ وعلى لقمة العيش التى يقتاتها — وأولاده معه — ويرى الأهل والأصدقاء فى انتهاء هذا الخلاف بادرة أمل قد تخفف عن الشيخ ذبحته الصدرية ، وقد تيسر له سبيل الانتقال من بيته القديم ذى السلالمة المائة وقد يعيد الهناء : الى سلمه الموسيقى الكبير الذى يتكون من أولاده الستة ومن زوجته الكريمة ، الوفية ، الصابرة ، ثم يعود الخلاف الى حالته الأولى بل واشد بسبب كلمة .

والشيخ فى كل مرة لا يتجنى ولا يظلم ولا يكره ولا يحقد ولا يريد الا الخير كل الخير لمن اختلف معهم أو اختلف بسببهم ، كل ما يعرّض عليه فى كل لحظة من لحظات حياته سواء أكان يملك الوف الجنيهاً أم لا يملك حتى آحاد الملايم ، فنه وكرامة فنه ، وكرامته التى هى من كرامة فنه .

والشيخ فى كل ظروفه ، وتصرفاته وحياته ، فنان بكل ما فى كلمة فنان من معانٍ حلوة جميلة ، فنان اذا لحن ، فنان اذا غنى ، فنان اذا مثل ، بل فنان اذا خاصم أو لجأ الى القضاء . هو دائما فنان من الساعة التى يتيقظ فيها كل صباح الى الساعة التى يتناور فيها بعض الأقراص ليلام ، أو ليحاول أن ينام . هو فنان مع أولاده ومع أصدقائه ومع محبيه ، فنان فى بيته وناديه والشارع الذى يقطن فيه . بل والشوارع والأزقة التى يمر بها . فنان مع البواب وسائق الاوتوبيس ، وبائع السجائر ، وتاجر اللب الذى

يشتريه ليتخلص من عادة تدخين السجائر عندما يحلو له أن يقلع عن التدخين .. فنان منذ اليوم الأول الذي توجه فيه ولم يزد عمره على الخامسة الى كتاب الشيخ نكلة بحى الأزهر ، الى اليوم الذي أودع فيه جثمانه التراب في مقابر الخفير بعد أربعة وستين عاما .

قال مرة : ان الناس يقولون دائما : على الطلاق ، لماذا لم يفكر أحدهم في أن يقول مرة « على الزواج » .

وينقل صديقه اللواء حسن خالد الى أسوان ليكون مديرا لها حيث الجو حار وحيث البعد عن العاصمة . وحيث الترقية الى منصب أعلى من ذلك الذى كان يشغله فيرسل له الشيخ برقية تهنئة بالمنصب الجديد ، لا تزيد على أربع كلمات : « تساهل أكثر من كده » ويحار اللواء الصديق هل البرقية تهنة بالمنصب الجديد ، أم هى تشف لنقله الى أسوان فى عز الصيف ..

ويعود الشيخ مرة فى ساعة متأخرة من الليل الى يته ، ليجد بائنة فجعل تجلس فى البرد ومعهما طفلها الصغير الذى يكاد يموت من البرد .. ويسألها الشيخ : البضاعة بتاعتك دى بكام ؟

وتقول المرأة فى سخرية ، وتسال له ياسيدا الأفندي ؟ وتقول بعد أن تمتد أن محدثها ليس سوى رجل مخمور ، أحب أن ينالها « بتريقته » : البضاعة دى باتنين جنيه يا حضرة .. وتهاجأ المرأة بأن الأفندي يضع يده فى جيبه ويخرج الجنيهين ويمطيهما للبائنة وهو يقول لها : ياللا ياستى قومي روجى لأولادك : ويحمل على كتفه مشنة القبل ، ويعود بها الى البيت ، حيث تستيقظ

زوجته ، لثراه وقد ابتلت بدلته بالماء الذى تساقط من الثجل
والجرجير والكرات ولا تغاباً زوجته بما حدث فهم أعرف الناس
بطباع زوجها القنان ، وتقول له بمد أن تعرف القصة : « أما انك
تدفع اثنين جنيه لواحدة غلبانة فدى حاجة كويسة ما حدش يقدر
يقول فيها حاجة .. بس أقدر أعرف ، ليه جيت المشنة معاك ،
وبولت البدلة بالشكل ده 27 » .

ويقول الشيخ باسا : « أصل أنا لو سبت المشنة للست ، مش
حتروح بيتها .. دى حتمد علشان تباع لها حزمتين ثلاثة فوق
البيعة .. وأكون أنا ما عملتش حاجة بالنسبة للأولاد الصغار » .
ويغاباً جيران الشيخ فى الصباح بهدايا من الفجل والجرجير
والكرات . وعندما يسأل أحدهم : « جيت منين الهدية دى يا سيدنا
الشيخ يقول باسا : من العزبة اللى فوق السطوح .. » وروى
لهم القصة .

وما أزال حتى هذه اللحظة أذكر قصة لقائى الأول بالشيخ
زكريا فى أواخر عام ١٩٥٣ .. كان الشيخ قد أصيب بذبحته
الصدرية للمرة الأولى ، وكانت قضيه مع الاذاعة ومع أم كلثوم
قد وصلت الى مرحلة خطيرة من العنف والشدة وكان من أوجب
الواجبات على عارف فضل الشيخ على الموسيقى العربية بذل
محاولة جديدة لاقتاد الشيخ من ذبحته ومن قضاياه .. وفى مجلس
تحرير المصور اقترحت أن أكتب عن الشيخ .. وأيد الجميع
الفكرة ، ما عدا ثلاثة .. وكان الثلاثة المعارضون هم الحق الناس
بالشيخ ، وأكثرهم عرفانا بفضله ، وكانت حجبتهم أن الشيخ لن

بنكلم لآله مريض .. ولآله لا يريد أن يجعل من مشكلته ، ومن ذبحته مجالا لمطف الرأى العام عليه .. واتفقا جميعا ، من أيد الاقتراح ومن عارضه ، على أن أحاول « قلل وعسى .. وبعد جلسة التحرير جلست مع الزملاء الثلاثة ، لنضع خطة لمطاد بها الشيخ ، لنقنعه بالكلام .. وأرسل أحد الأصداقاء الثلاثة إليه في الاسكندرية ليهدد الجوهر .. وسافر ثانيهم الى الاسكندرية ، ليتغل الجوهر المهد وأخذ الثالث يلاحقنى بالوصايا العشر .. أبدا الموضوع من هنا .. وادخل فى الموضوع من زاوية كذا .. حذار أن تحول له كيت وكيت .. و .. و ..

وفى الاسكندرية طرقت باب منزله وقد طارت من ذهنى الوصايا العشر ، ولم يكن الشيخ هناك ، ولا أستطيع أن أفكر اننى قد ارتحت لذلك فلم أكن رغب ما بذلت من جهد مهينا للقاء .. وتركت مع كريته بطاقة كنت قد أعدتها من قبل فيها سؤال عن الصحة ، وفيها دعاء من الأعماق أن يحفظه الله وبيته .. وفيها الأمل فى تحديد موعد آخر بالقاهرة ..

وفى القاهرة تحدثت بالتليفون وكانت مفاجأة .. لقد التقي على دشا عنيفا : « يا راجل يا طيب انت فاكر نفسك حاتقابل مين يعنى .. ترومان ولا ايزنهاور .. تعال حالا .. » .

وبعد دقائق كنت معه ، فلقد كنت وقتئذ أسكن بجوار منزله .. وأصبحت لأول مرة وجها لوجه أمام زكريا أحمد الفنان ، المريض .. وكان معه صفوة أصدقائه الذين كان يطلق عليهم « أهل الهوى » ..

وقال الشيخ ببساطة : « اسمعوا يا جماعة .. أنا بقالى شهرين
ما اتكلتش : الدكازة نصحونى بدم الكلام .. لكن الليلة دى
أنا عاوز أتكلّم .. » .

وبدا الحديث فى الثامنة مساء ، ولم يته منه إلا فى الساعة
السادسة صباحا .. وأساها الشيخ بعديته المتع أن وراءها أعمالا ،
يجب أن نذهب إليها .. ونسى الشيخ نفسه ، ولم يتذكر أنه بحاجة
إلى النوم . وعدت إلى بيتى أحاول أن أستفيد من هذا الكلام
الذى انطلق به الشيخ زكريا أثناء مقابلتى له فى على الصحنى .
ولم أنجح فى محاولتى هذه لقد كان الحديث شيئا آخر لا علاقة له
بمرضه أو بقضيته ، وطويت أوراق العمل الصحنى وبدأت أتابع
علا آخر لم يكن يخطر لى يوما على البال ..
وتكرر اللقاء كل يوم ..

وبدأنا نخرج معا عصر كل يوم .. وفى أحيان كثيرة كنا
قطع المسافة من منزله فى التجالة إلى قهوة ببيدان المحطة وهى
مسافة لا تزيد على بضع مئات من الأمتار ، فى أكثر من ثلاث
ساعات ، وأذكر يوما التقى فيه الشيخ وهو فى الشارع بفنان من
زملائه ، وطال الحديث أكثر من أربع ساعات ، والشيخ لا يمل
الحديث وأنا والزميل الفنان لا نمل الاستماع .. بل لا تفكر حتى
فى مجرد الجلوس على المقهى الذى يقع قبالتنا ، لتريح أرجلنا
المكدودة المتعبة .

وذلت مرة دخلنا محلا لمسح الأحذية فى أول شارع
عماد الدين .. وجلنا نتحدث فى كل شئ ، إلا فى الفن ، وتوقفنا

عن الحديث عندما تراسى انى سمعنا حديث خافت بين عاملين من
مجال المحل ..

انت سمعت الست امبارح ؟

١- لا والله اسلى نمت بعد الوصلة الاولى .

— هو فيه حد بينام والست بتغنى ؟

٢- انت عاوز الجد ، يا ابراهيم انا باموت فى الست لما تغنى حاجة
للشيخ ..

وكان الحديث خافتا ، وكان العاملان لا يعرفان من يجلس
لنامهما .. واحس بالمادة وقد غمرت الرجل المنقل بالهموم
والامراض .. وبعد ان جاوزا المحل بخطوات قال الشيخ .. تعرف
الكلمة دى عندى تساوى ايه ؟ قلت .. لا ؟ قال : اكثر من مليون
جنبه ؟

ولم اجد الشيخ فى يوم ما سعيدا ، مثل سعادته فى ذلك اليوم .
واكتشف ذلك يوم ان الشيخ يدون مذكراته ، وحاولت ان
انشر جزءا منها فرفض قائلا : لن اسمح لاحد بنشرها فى حياتى ،
اما بعد مائتى فمى — اذا كان فى عرك بقية — فى تناول يدك .
وحاولت ان اعرف السبب الذى جعل الشيخ زكريا يصر على
ان يكتب يومياته مهما اشد به المرض من عام ١٩١٦ الى يوم
وفاته . وسالت زوجته وأولاده وأصدقائه وعارفى فضله فلم اجد
ردا شافيا الى ان ابتدأت فى نشر القصة بالمصور فكتب الى القارىء
محمود حسين من الاسكندرية يقول : « لقد تساءلت كما تساءل
الكثيرون عن سر تدوين الملحن الكبير المرحوم زكريا أحمد

لذكراته في وقت لم يكن فيه شيئا مذكورا ، ولم يكن في الغالب يتبنا بأنه سيكون شيئا مذكورا ، وفي جلسة جمعت بعض رجال الفن والأدب بالاسكندرية ، وجهت هذا السؤال الى ليف من الذين جمعتهم بالتقيد الكريم أوتق صلات الصداقة والمحبة والتقدير فأجمعوا على أن زكريا كان فعلا ومن عهد طويل يدون يوميا مذكراته في مفكرات صغيرة أما السبب في ذلك فقد ذكره الأديب الفنان الأستاذ أحمد عوض فقال : « ان زكريا ذكر له انه في مستهل حياته حدث أن انهم أحد رجال الوجه القبلى بتهمة قتل فلما استجوبته النيابة — بعد أن كادت التهمة تثبت عليه — أكد المتهم انه في اليوم الذى تمت فيه الجريمة لم يكن أصلا في البلد الذى تمت فيه الجريمة .. وقال ليدلل على صحة أقواله ان في منزله لونة صغيرة يدون فيها يومياته وقد أمر المحقق بتفتيش المنزل حيث وجد النونة ومنها ثبت أن المتهم كان بالقاهرة في هذا اليوم وأنه تناول غذاءه عند صديق له ووجد المحقق في « النونة » اسم الصديق والوان الطعام التى تناولها عنده . وقد استدعى المحقق هذا الصديق فاتفح صدق رواية المتهم الذى أخلى سبيله في الحال ، وكان لهذا الحادث تأثيره على زكريا فبدأ هو الآخر يدون مذكراته أو على الأصح يومياته » ، وعندما وصلنى خطاب الأخ محمود حين حدثت الله على أن زكريا أحمد لم يشتغل بالسياسة والا لكان قد سبب المآسى لمئات من الناس بسبب يومياته ، وتذكرت في الحال قصة صديق كان يشتغل بالسياسة وتمود أن يدون يومياته كل يوم بمنتهى الدقة .. وفي قضية سياسية ، كنت

متهما فيها عام ١٩٤٥ وكنت أقيم في « الجبغانة الكائنة بسجن قسم روض الفرج » وفوجئنا نحن المتهمين في هذه القضية ، بقسم روض الفرج ينقلب رأسا على عقب ، ونغلى حجرات السجن وبعض حجرات الموظفين لتسع لعشرات من المتهمين الذين قبض عليهم في الزقازيق ، وقد بلغ عددهم أكثر من خمسين متهما ، ونشرت الصحف في اليوم التالي العثور على وثيقة هامة سوف تؤدي الى معرفة أسرار القضية ولم تكن الوثيقة سوى « نوتة » يوميات أحد المتهمين في القضية ، الذي كان يحرس على أن يسجل كل دقائق يومياته وحدث أن دعى الى حفلة زفاف في الزقازيق وكتب في يومياته ، أساء المدعويين الى حفلة الزفاف . فلما وقعت « النوتة » في يد المسؤولين عن الأمن ، أسروا على اعتقال الجميع بوصفهم متهمين في هذه القضية ووضموهم في عربة خاصة ، ألحق بقطار الصباح ، وشحنوا الى النائب العام في عدد كبير من عربات اللوري ، واكتشف النائب العام الحقيقة وقال لضابط القلم السياسي الذي رافقهم الى المحافظة : « كان لازم تجيوا « العروسة » و « العريس .. » .

ثم مات الشيخ .. وأصبحت المذكرات أو اليوميات بين يدي ، وسهرت معها ليلالي طويلة ، وكانت بعض أيام هذه المذكرات واضحة ، كقلب الشيخ وموسيقاه ، وكان بعضها الآخر أشبه ما يكون بالأحاجي والألغاز وفي حاجة الى مفاتيح ووجدت المفاتيح في خاصة الشيخ وأخلص أصدقائه ممن كان يطلق عليهم « أهل الهوى » ولم أكف بقراءة المذكرات بل ذهبت الى كثير من المدن

والقرى التى شهدت الشيخ مقرنا ، ومغنيا ، وملحنا ومستما ..
كما ذهبت الى الأصدقاء والأحباء والأهل والمعارف لأسمع ،
وأحرق وأدرس ثم أقرأ كل ما كتبه المصحف — أو بعض المصحف —
طوال السنوات الثلاثين الأخيرة باحثا عما كتب عن زكريا وعن
زكريا وأجد الكثير من المشقة والاجهاد فى هذه العملية ، فلأصدقاء
القدامى قد جفت ذاكرتهم .. وبعض الأهل قد اندثرت لديهم
أحداث الماضى ويكفى للتدليل على صعوبة العملية اتى قضيت
ثلاثة أيام متفلا بين الأصدقاء لأتحقق من مكان ولادة الشيخ
ومن تاريخ ميلاده ومن الحى الذى عاش فيه أيام طفولته الأولى ..
وانتى قرات كل أعداد الأهرام وكوكب الشرق ، والمرح ،
وروز اليوسف ، وألف صف فى الفترة ما بين سنة ١٩٢٦ / ١٩٢٩
بحنا وراء الاهتمام الذى ألقاه خصوم الشيخ فى وجهه مدعين انه
سرق العاز سید درویش ..

ومع كل ذلك فقد أصرت على أن أكمل العمل وبالرغم من
أننى لم يسبق لى يوما ما أن كتبت عن الفن ، وبالرغم من أننى
حتى هذه اللحظة لا أستطيع التفرقة بين العود والقانون والناى ،
وبالرغم من أننى لا أستطيع أن أميز بين العاز سید درویش ومحمد
عبد الوهاب وأخوان رجائى ، وبالرغم من أننى — وقبل لقائى
الأول بالشيخ زكريا أحمد — لم أكن أطيق الاستماع ولو لبضع
دقائق الى قطعة موسيقية مهما كان ملحنا ومهما كان جمال أدائها.
بالرغم من ذلك كله أصرت على أن أنقّل على ديا الفنون وأن
أكتب عن الشيخ « شيخ الملحنين » وعذرى أن هناك ارتباطا وثيقا

كان بين وبين الانسان زكريا احمد ، وان هناك كان شبه اتفاق
بين وبين الشيخ زكريا على ان اكتب حياته ، اذا ما امتد بي الاجل
سده هذا الى جانب وجود معان جميلة ورائعة في حياة الشيخ طالما
سيت من صميم قلبي ان يقتدى بها فنانونا في الحاضر والمستقبل
ولابد من ابراز هذه المعاني بصورة او بأخرى .

وما زلت بالرغم من اننى انتهيت من اعداد هذا البحث اشعر
اننى قد تسرعت في كتابته واننى اخطأت في دخول ميدان لست
من فرسانه ، غير ان ما يشجئنى على ان ادفع بما كتبت للنشر ، اننى
أردت تنفيذ عهد قطعت بينى وبين نفسى ، واننى حاولت الوفاء
لانسان أزلته من نفسى مكانة نفسى ، واننى أردت مخلصا جهد
استطاعنى تصوير حياة فنان من الشعب لم يكن له من سلطان
سوى سلطان النعم ، ولم يكن له من نفوذ سوى نفوذ الحب الذى
فرضه على من عرفه ومن لم يعرفه ، وقد استطاع هذا الفنان
الشمعى رغم ظروفه القاسية المريرة بصفاء ذهنه وياض قلبه ،
وسمو السانبة وعبقريته ان يجمع الملايين حول فنه وشخصه ،
وان يجعل من حب الناس له وفنه ، ثروة انسانية ضخمة ، لا تقدر
بمال .. والله ولى التوفيق .

صبرى ابو المجد

كلمة سريعة في الموسيقى العربية

لو أنني تصورت يوما ما أنني سأكتب عن الموسيقى ولو مرة واحدة ، لضحككت — على قلة ما أضحك من قس على نفسي كثيرا . فلقد كانت علاقتي بالموسيقى منذ الصغر ، لا تمتد ليغفات الناي التي كان يرسلها بين حين وآخر شباب قرنتنا ، من قطع الفاب التي كانوا يتقبونها في كثير من أجزائها ، ونغمات أخرى أو شبه نغمات نعلو في بعض الحالات وفي كثير من أنحاء القرية من أغنية الحلل وطشوت الفيل وطبلة الست زهرة أيام جنى القطن وحصاد القمح ، وتوديع رمضان في لياليه الأخيرة وقبل حلول العيد بساعات .. وحتى ذلك كله كنت أهرب منه . وعندما وفد جهاز الراديو لأول مرة الى قرنتنا ، كان لا يهني من الاثرة الأخبار . وعندما كنت أسمع المذيع ينبيء بحلول مقدمة موسيقية كنت أجرى هاربا الى الجرن القريب من مركز الجمعية التعاونية حيث يوجد راديو القرية . وظللت على هذه الحال حتى بعد أن تركت القرية وجئت الى المدينة ، ولعلها المرة الأولى التي جلست فيها ليلة كاملة أستمع الى الموسيقى والغناء هي ليلة الحاضرة — كما كان يسميها الشيخ زكريا أحمد — وهي ليلة الجمعة من كل أسبوع ، حيث يجتمع في منزل الشيخ أو منزل أحد الأصدقاء من « أهل

الهوى « من خاصة الشيخ وفيهم الكاتب والشاعر ومدير المديرية،
 والعامل ، والتاجر الكبير والصغير وفي يد كل منهم آلة الموسيقى،
 حيث ينفون ويمزفون وساعتها لم أنهم كما دنى عند سماعى
 الموسيقى ، ولم أتفجر ، ولست أخجل اليوم من أن أروى هذه
 القصة وحسبى أن أثير إليها للتدليل على مدى التطور الذى
 لحقنى خلال السنوات الثماني الماضية بفضل زكريا أحمد ..
 وكثيرا ما كان الشيخ يضحك عندما أروى له بعض هذه القصص
 وأدلل على عدم تعلقى بالموسيقى بأنتى منذ الصغر ، وطنت نفسى
 على أن أكون رجل سياسة لا رجل فن ، واتى كنت أعتقد أن
 الاستماع الى الموسيقى والغناء ترف لا يليق بمن يشغل بالية
 أن يضيع فيه وقته ، وقد ذكرلى الشيخ ذات مرة بما كان يفعله
 بعض الثبان الوطنيين ، عندما كانوا يفرون من دراسة اللغة
 الانجليزية لألهم يكرهون الانجليز الذين يحتلون بلادهم ، ومرة
 ثانية أراد الشيخ مداعبتى ، فروى قصة شيخ كان يعظ الناس في
 المسجد وقد تأثر الجمهور بموعظته وانهمرت الدموع من أعينهم
 عندما ذكرهم بما في الجنة من نعيم ، وما في النار من عذاب ،
 وحدث أن خرج أحدهم ليبحث عن حماره الذى ربطه أمام باب
 المسجد ، فلما لم يجده عاد الى الواعظ غاضبا وهو يقول له :
 « ان أولئك الذين يكون لموعظتك الحنة قد سرقوا حمارى »
 فأمره الشيخ بالسكوت الى أن تنتهى الموعظة . وفي أثناء الحديث
 سأل الواعظ الناس : هل فيكم من لا يستيغ الموسيقى ؟ ..
 فوقف شيخ طويل اللحية ، أبيض الشعر ، ليقول للواعظ انه

لا يستيفها ولم يحدث رغم عمره الطويل أن استمع الى الموسيقى ، وكانت المفاجأة لقد قال الواعظ لصاحب الحمار : « يا سيدى هذا حمارك فخذ » .

واقصة . كما هو معروف ، لم تكن عن الموسيقى ولكنها كانت عن الحب ، وقد غير الشيخ وبدل فيها ، لكى يعرضنى على أن أهتم بالموسيقى ، وفى أكثر من مرة كان الشيخ يتحدث ملى عن الموسيقى العربية وتاريخها ، فقد كان حجة فى هذا المضار وكانت مطلوماته عن الموسيقى : نظريا ، وتاريخا وعملا من أدق المطلومات وأصلقها وقد أضادت المطلومات الطريق أمامى عندما أخذت فى كتابة هذا الفصل .



قدىما كان الأغريق يقدسون الفنون العقلية فينبونها الى معبودات ويسمون كل ما له اتصال بفن بل كل تأديب نفسى ونهذيب روحى ، بموسيقى وكانت هذه المعبودات تسما ، دعا اليونان كل واحدة منهم بموسا *moia* بعد أن اشتقوها من كلمة *moisibē* التى معناها الاستيحاه أو الاستلهام ومن ثم ترى أن الأصل فى الكلمة *mois* فأخذوه وزادوا عليه ألفا فصارت موسا ومعناها الملهمة وقد ألحق بهذه الكلمة « يقى » *ikē* للدلالة على انبئة الى الاسم الملحق به كقولهم « منجانيقى » من منجان وما الى ذلك ، فصارت موسيقى . وقد أخذ الشرق الكلمة بلا تحريف وعربها دون أن يمسها فكان أمينا . ولكن لم اترد فى الغناء والمزف بكلمة موسيقى بأخذ اسم المعبود موسا . ذاتها *mu* ذلك لأنه أقدم

الفنون وجودا فتنسب الى تلك الروح معنى ولعظا ، ولأه لسان النفس ولغة الوجدان . فهو أقرب الى الالهام .. ومن ناحية أخرى فالأغريق ما كانوا يفهمون ، ويتصورون الموسيقى فنا مستقلا عن الشعر والشعر مصدره الشعور وكان الشعراء يتصرخونها اذا استمعى الشعر على أحدهم « ياموسى الهينى » فتلقنهم فتحى ما فى قلوبهم ، وأما قدمه فلأنه فطرى فحيث وجد الإنسان فالفناء . وآياته ذلك الرلى وبراعته وحلى العيس وحدائره ، ولقد كان عند العرب مثل المعبود موسا موسى الشعر سموها شيطانا تحرزا وهي مرة أتى وأخرى ذكرها (١) .

وهناك رأى يردده كثير من الناس وهو أن الموسيقى لا تزال متأخرة عن حضارة الفنون الأخرى بقرنين من الزمان ويبدو لبرناردشاميتبول فى كتابه « تاريخ الموسيقى العربية » : « أنه ليس أخلا من هذا الرأى ولا أبعد منه عن حدود التصديق فالموسيقى باعتبارها إحدى وسائل التعبير الطبيعى فى المجتمع لا يعقل أن تكون متأخرة بنحو مائتى عام عن سائر وسائل التعبير الأخرى فهى مرآة واضحة للتقاليد والأخلاق السائدة فى حياة المصور ومن ثم تكون على اتصال وثيق بغيرها من سائر الفنون ومتشعبة معها ، ويمكننا أن قطع بأن الموسيقى على غرار سائر الفنون التى لها صلة وثيقة بها كالرقص والتثيل الإيمائى والشعر والمرح تنحدر من أصل دينى » .

(١) مجلة الموسيقى العدد الثالث ١٦ يولية سنة ١٩٣٥ .

• ومنذ نصف قرن درست موسيقى الشعوب الذين لم يكن لهم اتصال بالمدينة الأوروبية ، وهم يسوغها تسمية تصفية الى حد ما بالبدائيين كنزوح افرقية والهنود الحمر بأمريكا والبولنديين وغيرهم ، ويبدو أن نظرتنا الموسيقية تدين بأصولها الى بعض قواعد فطرية عامة يترك فيها كافة البشر فنجد الموسيقى عند الأقدمين كما هي الحال عند البدائيين بسيطة في أصولها تتميز ببروز قوى في إيقاعها كما أن طابعها يتسم بالمسيحية وتتصل بطقوس معتقداتهم ، ومن جهة أخرى فالإنسان عندما يقوم عادة بجهود جسدية ويأتي بحركات مرادفة بجسمه فإن هذه الجهود والحركات كثيرا ما تكون مصحوبة بإخراج أصوات وهذا ما يعد أساس الأغاني المهيبة التي يقصد منها تنظيم حركات الجسم وتوجيهها ليهل بذلك تأدية العمل .

أما الأستاذ عبد المنعم عرفة فيقول في كتابه « تاريخ أعلام الموسيقى الشرقية » : « لقد نشأت الموسيقى في الإنسان الفطري جنبا الى جنب مع ما نشأ فيه من الماديات وما أحاط به من جمال الطبيعة في نواحيها المتمددة . التي أثرت في نفسه فأخذ يستعمل فيه في الصغير ، ويده في التصفيق ورجله — قدمه — في النقر ، ولعلها آلات باقية حتى عصرنا هذا لو دققنا النظر فموسيقاهم تدل أبلغ دلالة على ما كان عليه الإنسان الأول في فطرته من اصطناع الموسيقى في المناسبات المختلفة التي تستثير الشعور كالفرح والحزن والصلوات .. الخ وقد ظلت تلك الناحية الفنية مبهولة الى ما قبل التاريخ بحوالى ٨٠٠٠ سنة عرف بعدها من النقوش

ما كانت عليه تلك الموسيقى القبطية فكانت لا تتعدى الصونين أو الثلاثة انعدم فيها أى أثر للمدية والصنعة لا تكلف فيها لصدورها عن عوامل الاتصالات المختلفة وهى ظواهر مرت بجميع الشعوب على اختلاف أنواعها فكانت موسيقاهم تقريبا ، متشابهة فى كل الأمم عند نشأتها وذلك راجع لنشأة الانسان القبطى الذى كانت حياته لا أثر فيها للفكر أو العقل . محدودة تسير على وتيرة واحدة ويرجع ذلك الى أن الفرد لم يكن له أثر فى حياة الجماعة بل كان متقادا لتفكير العقل الجمعى الذى سيطر فى تلك الآونة على جميع نواحي الحياة فى العشائر أو القبائل ولذا كان تفكير الجماعة متشابها لا أثر فيه للتجديد أو الابتكار .



وقد عنت المدية المصرية القديمة بالموسيقى وأغراضها ومنزلة الموسيقيين وتطور الآلات الموسيقية وفى المصور التى تقدمت تاريخ الأسر صورة الناي الطويل ذى الثقوب المديدة وفى تاريخ الأسر التى بدأت حوالى ٣٤٠٠ قبل الميلاد ظهرت آلات موسيقية تنم عن الرقى كالألات الوترية ، وآلات النفخ والآلات الإيقاعية والفرق الموسيقية المنظمة الكاملة التأليف الثابتة العناصر . وقد كانت مصر ، بحق مصدر الثقافة الموسيقية فى العالم والقبس الماضى الذى استنارت به الممالك القديمة ، من فرس وآشوريين ويونان ورومان وإذا كانت النهضة الموسيقية بأوروبا أثرا من آثار المديات القديمة ، فإن مصر أول من نشر هذا النور وأذاع هذا الرقى العلمى والفنى وإذا كانت العلوم اليونانية تعد من أقوى

، مصادر العرفان للامة العربية ، وسائر مالک المصور الوسطى بل
والمصور الحديثة فان ثقافة اليونان الموسيقية بوجه خاص ،
منسفاة من الثقافة المصرية القديمة ، فقد كان فلاسفة اليونان من
امثال ارفيوس وفيثاغورس وأفلاطون ممن وضعوا أساس الموسيقى
الرومانية ورياضياتها تلاميذ المصريين . وكان أفلاطون يؤثر
الموسيقى المصرية على موسيقى بلاده حتى انه في جمهوريته التي
اختار لشعبها خير القوانين والنظم لم يشأ ان يسمع أهلها غير
الموسيقى المصرية القديمة التي وصفها بأنها أرقى موسيقات العالم.
وانها خير نموذج للموسيقى الكاملة يجتمع فيها النشاط والتعبير
من الحقيقة والفضيلة والجمال وحلاوة النغم ، لذلك كله دعا اليونان
الى الأخذ بها . ويقول هيرودوت المؤرخ اليوناني انه سمع
مصر أغاني وان هذه الأغاني انتقلت بعد حين الى اليونان وصارت
الى أفواه الناس حيث تنتشر في كل مكان ولا عجب ان كان العالم
القديم يتغنى كله بأغاني مصر القرعونية القوية ، فهي أغاني شعب
كملت حضارته ولضجعت ثقافته يؤدي أبنائه واجههم مخلصين
أمناء ثم لا يفتلون في الوقت قصه نصيبهم من مرات الحياة
والنمتع بنواحي الترفيه فيها .. وكما ان المدينة الموسيقية قديمة
منأصلة في مصر القرعونية كذلك امتدت جذور المدينة الموسيقية
في غرب آسيا الى آماذ بعيدة وكانت المدينة الموسيقية للأشوريين
والكنعانيين والفينيقيين مدينة عالية فياضة امتدت طلالها على
شعوب غرب آسيا قاطبة كما كانت ينبوعا صافيا ، وقبسا مضيئا
أفادت منه موسيقى اليونان والرومان وغيرها من المالک القديمة

في أوروبا ، وليست موسيقى الآشوريين ولا آلاهم بالغريبة علينا ، فهي كبيرة الشبه بموسيقى مصر الفرعونية وبآلاتها في الدولة الحديثة ، كانت المدينتان المصرية والآسيوية على اتصال وثيق ببعضهما بحكم الجوار والاختلاط وتبادل مرافق الحياة بين شعوب تلك المواطن ، لهذا كان من المنتظر أن نجد هذا التماثل والتشابه بين موسيقاهما جميعا في قواعدها ونظرياتها وآلاتها وهو ما يقرره التاريخ وتبته الصور والنقوش ، فلقد رأينا في نقوش قدماء المصريين التي يرجع تاريخها الى ٣٠٠٠ ق م متجولا آشوريا يعزف بآلة الكنارة وكانت هذه أول صورة ظهرت لتلك الآلة في مصر كذلك نرى آلات الآشوريين تكاد تكون بعينها الآلات التي أشرنا إليها في الموسيقى المصرية القديمة « (١) » .

« وبالرغم من قدم الشعر العربي الذي يرتبط دوما بالغناء العربي ، وبالرغم من أن العربي موسيقى بطبعه وسليقته ، حيث وحشة الصحراء ، وسكونها ، وحيث يعتمد الجمل — سفينة الصحراء منذ القدم — على الحذاء وبالرغم من أن بعض المدينيات العربية تمتد الى ما قبل الألف الثالثة قبل الميلاد فقد ظل تاريخ الموسيقى العربية غامضا وكان بعض الدارسين يؤكد تأثر الموسيقى الى حد كبير بموسيقى الفرس واليونان الى أن جاءت الاكتشافات العلمية الحديثة فأكدت أن أحد قهوش آشور بانيال (القرن السابع ق.م) يدلنا على اعجابهم بموسيقى العرب اذ يذكر أن الأسرى العرب

(١) تراننا الموسيقى اصدرته اللجنة الموسيقية العليا للدكتور محمود الحفنى والأستاذ ابراهيم شفيق .

كانوا يفضون وقتهم في الغناء والموسيقى وهم يشتغلون
لسانهم الأشوريين مما أطرب الأنوريين بدرجة جعلتهم يسألونهم
المزيد^(١) .

ويؤكد هـ . ج فارمر في كتابة تاريخ الموسيقى العربية :
« ان العرب قد وصلوا في الموسيقى الى الدرجة التي وصل اليها
الساميون ، ويمكن أن نقول أن أصل كلمة الشاعر عند العرب
يرجع الى شارو Sharu أى رئيس المغنين في الأشورية ونسبى
انتريلة الأشورية شيرو Shiru وتلح فيها كلمة شمر » وفي
الحق قد نجد كلمة شدرو الأشورية . ومعناها الاثناد قرابتها
مع كلمة انشاد العربية » .

« ولعبت بعض المراكز العربية الهامة كملوك الحيرة وسبأ
والانباط ، دورا كبيرا في ترقية الموسيقى ، وتطور الآلات
الموسيقية وتعددتها ، وكثر الاتصال بين هذه المراكز وبين الجيران
كالاغريق والفرس ، وحصل تاريخ الجاهلية بأخبار القيان
من بلاد المجمع والروم ومصر الذين كانوا يقدون الى المراكز
العربية بالآلات الموسيقية حيث كان الغناء مقصورا عليهن وكان
اما باللغة العربية واما بلغة بلادهن ، ولم يكن بيت من بيوت
الأشراف العرب يخلو من القيان الأجنيات ، اللواتي دخل في
زمرتهن فيما بعد عربيات كثيرات ، وقد ذكر أبو الترج الأصفهاني
في كتابه الأغاني عن حسان بن ثابت عندما يصف ليالى الجاهلية
قال : « لقد رأيت عسرقبان : خسروميات يغنين بالرومية بالبرباط

(١) شرادر Stander المكتبة المسماة .

— جمع بربط ، وهو العود — وخمس يغنين غناء أهل الحيرة .
ويؤكد مؤلف العقد الفريد : « أن أصل الغناء ومعدنه كان في
هبيد أمهات القرى من بلاد العرب ظاهرا فاشيا ، وهي المدينة
والطائف وخيبر ووادي القرى ودومة الجندل واليمامة ، وهذه
القرى مجامع أسواق العرب » . ويقول السيوطي في المزهرة :
« كانت القبيلة من العرب اذا نبغ فيها شاعر أنت القبائل فهناتها
بذلك وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يستمن
في الاعراس لأنه حماية لاعراضهم وذب عن أحسابهم وتخليد
لمآثرهم وإشارة لذكورهم » ، وفي العقد الفريد والأغانى : « أن
الموسيقى والغناء كانا مع العرب من التريفة في المهد الى المراثة في
اللحد » وقيل ان عدى بن ربيعة شاعر بني تغلب لقب بمهلل من
أجل صوته^(١) ولذ علقمة بن عبدة من شعراء المعلقات كان مغنيا^(٢).
ولما جاء الاسلام بتعاليمه السخية ، اتجه أول ما اتجه الى
البناء السياسى الضخم فارتدت الموسيقى في صدر الاسلام ثوبا
دينيا فاصفا كما في قراءة القرآن الكريم وآذان الصلاة وصلاة
العيدين ، ومما قيل في صدر الاسلام عن الموسيقى ان بلالا الحبشى
كان أول المؤذنين وقيل ان النبى قال له « يا بلال غن الغزل » وقيل
أيضا ان حمزة بن عتبة غنى مع بلال في حضرة النبى وانه اتصل
بعلى أبى سلمان الفارسى اتصالا وثيقا ، ويقال عنه انه غنى في
زواج على وفاطمة وهو شيخ جميع المغنين ، وقيل أيضا ان النبى

(١) الفارابى .

(٢) المصدر السابق .

صلى الله عليه وسلم قد ورد عنه أنه قال لعائشة حين أخنت لأحد الأنصار عروسه فلما عادت قال لها محمد صلى الله عليه وسلم « أهديتم الفتاة الى بعلها ؟ » قالت عائشة : نعم ، فقال : فبعتهم معها من بنى ؟ فقالت عائشة ، لا : قال عليه الصلاة والسلام : أو علمتم أن الأنصار قوم يعجبهم الغزل » (١١) .

وقبل انه صلى الله عليه وسلم مر بجارية وهى تثنى ، وتقول : « هل على ويحكم أن لهوت من حرج ؟ » فأجابها محمد : « لا حرج ان شاء الله .. » (١٢) .

وكان عليه السلام - كما قيل - يمدح صوت أبى موسى الأشعرى حين يسمعه يقرأ القرآن ويقول : « لقد أعطى زممارا من زمائر داود » .

وفى صدر الاسلام ظهر من الفتيات كثير من القيان من بينهن سيرين مولاة حسان بن ثابت وهى احدى الجاريتين اللتين أهداهما القوقس فى عام ٦٣٠ م الى النبى صلى الله عليه وسلم . وقد روى صاحب الأغانى أن عزة الميلاء تلميذة سيرين كانت تثنى من أغانى سيرين وبهذا تكون الموسيقى المصرية القديمة قد وجدت طريقا الى الجزيرة العربية منذ فجر الاسلام فى حجرة سيرين تلميذتها فوضعت بذلك نواة الصلة الفنية بين مصر والموسيقى العربية (١٣) .

وكان للفنانه عند العرب فى صدر الاسلام مكانة تعادل مكانة

(٣) نرائنا الموسيقى .

(١) المقد الفريد .

(٢) نفس المصدر .

النشر ، فهو صورة واضحة لحياتهم الاجتماعية والسياسية والعقلية ، لذلك سمع الغناء كثير من الصحابة ، والتابعين والأئمة والعباد والزهاد والعلماء ، وبالرغم من مكانة الغناء عندهم فإنه لم يتشرب آنذاك وذلك لاشتغاله على أمور كان قد حرمها الشرع الاسلامي كاللهاة والاسراف ولأنهم كانوا يعيرون نفس حياتهم التي كانوا يحيونها في الجاهلية ، ولأن الدين الاسلامي كان في أول عمره قد شغلهم عن كل شيء سوى تفهمه ونشره ، فعلى الرغم من تخالطهم وناسهم بالكبر الحضارتين في عصرهم (الرومانية والفارسية) لم يكن يتبعها لهم الأخذ والاقتراس خفية انصرافهم وابتعادهم عن رسالتهم الجديدة ، فبقى غناؤهم وموسيقاهم بالتبعية كما كانت في الجاهلية غناء بسيطاً وموسيقى بسيطة أيضاً . وبتوالي السنين ونتيجة استقرارهم في البلدين المريقين في المدينة (بلاد فارس والروم) وبتوفر أسباب الغنى والعيش الرغد لم يكن بوسعهم أن يستروا في التزامهم بالدين كما كانوا في عهدهم الأول ، ولم يكن بوسعهم أيضاً أن يستروا على بداوتهم مخالفين سنن الاجتماع فكان لابد لهم بعد تخالطهم من أن يأخذوا ويقتبسوا ، فلما حل العصر الأموي ظهر عليهم الاختلاف عما كانوا عليه وصعدوا في متولهم الموسيقى والغنائى الى حد كبير ، فوجد أن غنائهم تأثر ، وتطور وتوسع كثيراً حتى بلغ بهم الاعتناء والحرص على هذا الفن الى حد أن دخل الغناء الفارسي المدينة المنورة بواسطة المغنى المشهور (سعيد بن مسجع) وكان البلاط الأموي محط هذا الفن وموضع عنايته وكان المال يندق على المغنين والموسيقين اعجاباً وتقديراً

وتشجيعا لهم بعد ان كان الغناء يعتبر خروجاً على الدين . ولما حل
 العصر العباسى نرى ان حضارتهم قد توسعت الى أفق أرقى ،
 فنجد غناءهم وموسيقاهم قد بلغا الذروة فى الرفعة والدقة والمنوبة
 وذلك لانهم لم ينشغلوا بفتوحات أو حروب تذكر وانما ورثوا
 الأقطار عن سلفهم الأمويين ، مع الثروات الطائلة ، فوققوا جهدهم
 وحصرروا أوقانهم للاستغال فى شتى العلوم والفنون ومنها الغناء
 والموسيقى فوصلوا الى ما وصلوا اليه كما نخبرنا بذلك مؤلفاتهم
 الكثيرة ، هذا مع العلم بأن أغلب خلفاء بنى العباس كانوا يشجعون
 الفنانين والموسيقين .. ويفتقون عليهم الأموال الكثيرة .

ولقد تأثر الفقهاء من هذه الظاهرة وتدارسوها وقام بينهم
 الجدل فمنهم من حرم هذا الفن الجميل ومنهم من أباحه وحرم
 سماعه والعمل فيه وكل يستند الى بعض الآيات القرآنية والأحاديث
 النبوية وآثار السالف الصالح ..

وبعد سقوط الدولة العباسية تدهورت الحضارة ومعها العلوم
 والفنون وقتل أكثر العلماء والفنانين من قبل الغاصبين ولجعت
 الفوضى وأصبح الاستقرار مفقوداً فى هذه البلاد من جراء تعدد
 الغاصبين لها ، ولهذا نجد الغناء والموسيقى فى هذه الفترة قد
 تدهورا تدهورا واضحا وأصبحت مهملة كسائر الفنون الأخرى^(١) .

(١) المقام العراقي للفنان الحاج هاشم محمد الرحب .

مطبعة المعارف ببغداد .

ويؤكد فارمر في كتابه « تاريخ الموسيقى العربية » ان ثلاث
 سمات للموسيقى في العصر الأموي هي (١) بحث الحب العربي
 انثنى للموسيقى بسبب عدم اكتراث الأمويين بالاسلام
 (٢) تأثير سورية الذي أتى من انتقال العاصمة الى دمشق حين
 ساعدت الثقافة السامية الاغريقية الشمالية على تشكيل علم
 موسيقى جديد . (٣) تأثير فارس الملموس في الآلات ، ومع ذلك
 لا نبالغ في هذه الدوافع الخارجية فمثلا ابن خلدون يقول :
 « وافترق المخذون من الفرس والروم فوقعوا الى الحجاز وغنوا
 جميعا بالبيدان والفتاير ، والمعارف والمزامير وسمع العرب
 نلعبهم للاصوات فلهنوا عليها اشعارهم » ولكن هذا القول
 لا يحتوى الا على بعض المصدق فعامة الباحثين يتفقون باستعارة
 العرب الألحان الفارسية والرومية ولكن كان لديهم في جاهليتهم
 المود والطبور والمزوف والمزمار أضف الى ذلك : ان أصحاب
 العوليات لم يذكروا موسيقيا روميا واحدا في القرن الهجري
 الأول وقد ولد جميع الموسيقيين الذين يزعمون أنهم فرس
 (أى من أصل فارسي) في بلاد العرب أو ثقفوا فيها اللهم
 الا نشيطا الفارسي . ولم يأت من وراء حدود الحجاز غير أربعة من
 الموسيقيين الكبار . نسيط الفارسي وأبو كامل القزيلي الدمشقي
 وابن طنبورح اليمني وحسين الحيري من العراق ، وكان الحجاز مهد
 الموسيقى ما أثار حسد الأقاليم الأخرى وتغلف العراق . وهو
 المركز الأميل للثقافة الموسيقية السامية بوقوعه في تبتدي منزمتي

المسلمين الذين حرموا الموسيقى. - حتى قال الحسن البصري المتوفى
في عام ٧٣٨ وهو من أعظم فقهاء العراق « نعم العون الناء على
طاعة الله . يصل الرجل به رحمه ، ويواسى به صديقه » .

وبوضح فارمر الأدوار التي مرت بها الموسيقى أيام العباسيين
فيقول : « ان العصر الذهبي يبدأ في ٧٥٠ م وينتهي ٨٤٧ وعصر
الانحطاط من عام ٨٤٧ الى ٩٤٥ وعصر السقوط من ٩٤٥ الى ١٢٥٨ »
وعندما يتحدث عن العصر الذهبي يقول : « لقد تقدم فن الموسيقى
فازدهر البلاط بالموسيقين المحترفين والقيان الذي لقوا معاملة
حسنة كريمة لم يسمع بمثلا ولا يزال يضرب بذكرها المثل عند
العرب اليوم ، ويرجع قدر كبير من هذه الحالة الى التأثير الفارسي
فقد رغب العباسيون في التفوق على مجد الساسانيين القدماء وقد
أخذ ابراهيم الموصلي ١٥٠.٠٠٠ دينار ذات مرة من الخليفة
الهادي وأخذ مغارق جائزة من هارون قدرها ١٠٠.٠٠٠ دينار
ومنح حكم الوادي ما يقرب من ٦٠٠.٠٠٠ درهم من هارون
وابراهيم بن المهدي .. حقا كان هؤلاء الناس من كبار الفنانين
ولكن الموسيقى المحترف العادي أيضا استطاع أن يجمع ثروة
صغيرة من فنه في هذه الأيام ولكن على الرغم من أن هؤلاء
الموسيقين كانوا يتمتعون بالثروة والرعاية وكان بعضهم من أمثال
ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق الموصلي ومغارق وغيرهم نداء
للخليفة فقد جعلتهم حرفتهم في مركز شاذ ، فالتقانون حرفيا لا يقبل
نهادتهم لأنهم يشتغلون بفن مكروه ان لم يكن محرما .

والموسيقيون لا يحضرون المحاكم ولا تقبل شهادتهم على أية حال بل ان حياتهم المهنية لم تكن بالهدوء الذى تخيله فقد كانت واجباتهم فى الغالب باهظة وثقيلة ، وذائق كثير منهم السوط والسجن المطبق على أيدي الخلفاء والأشراف ، ولكنهم كانوا أحسن من حال هابدين وموتسارت فى قصور أوروبا بعد ذلك بتسعة قرون .

« وقد تقدمت الموسيقى العربية فى العصر الذهبى أكثر مما تقدمت فى أية حقبة أخرى ، كان هذا التقدم محليا اذ تقدم اسحاق الموصلى بصفته الموسيقى الأول فى عصره لوضع وتحديد العلم المهمل منذ عهد يونس الكاتب أيام الأمويين ، وعلى الرغم من المكانة السامية التى وصلت اليها الموسيقى والفنون الأخرى فى العصر الذهبى فقد هجر الفنانون المثل القديسة الكلاسيكية العظيمة وصارت القصيدة القديسة التى توحى بالصحراء ، أثرا من الماضى وأصبح أغلب الأدباء من القرس ، ومن ثم ظهرت مدرسة جديدة نجد فيها الجسوح والمجون واللهو المخجل وامتزجت محاولات التفكير السامى بالتشاؤم ، فوجدت العاطفة الرقيقة والرثاء الطليق والبلاغة اللامعة . ولكن لم يوجد الاعتماد العظيم على النفس ، وجدة أغنية البدوى التى لا يمكن تقليدها .. وعلى الرغم من الاضطرابات والفتن التى سادت عصر الانعطاط (٨٤٧—٩٤٥) فقد كانت الموسيقى مزدهرة فى البلاط وقد تظاهر الخليفة القاهر بالسنية وحرم الخمر وقبض على الموسيقين والغنيات والمغنين ،

وأرسلهم الى البصرة والكوفة ولكنه كان في الوقت نفسه منهمكا في الموسيقى وكان لديه من يحب من الغنيات . كذلك كانت حال الموسيقى في بلاط بغداد ، مركز العالم الشرقي ولكننا لا نستطيع أن نتجاهل تأثير الامارات الكثيرة المستقلة التي أصبح بلاط كل منها في غالب الأحيان مركزا للمعلم والأدب والموسيقى وكانوا أقدر على اكتشاف اللواهب المحلية فقد رعى بنو سامان في ما وراء النهر محمد بن زكريا الرازي العالم الموسيقي ثم دعوا بعد ذلك ابن سينا وشجع العمدايون في سورية الفارابي الفيلسوف والعالم الموسيقي وكان الطولونيون في مصر أول من جعل ذلك القطر مشهورا بفنه والبلاط بثروته وفخامته في عصر السيادة العربية وقد زوج خماروية ابنته للخليفة وصرف في هذا الزواج مليون دينار وبلغ تقديره للموسيقى والمغنين درجة جعلته يزين قصوره بصور مغنياته .. » .

« وكان عصر الانحطاط . عصر مجد موسيقى مثل العصر الذهبي تقريبا على الرغم من التدهور السياسي والنزاع المغرب وضحف بلاط بغداد ، فيقال عن المتوكل الذي افتتح هذا العصر ان الموسيقى والرقص وصلا في عصره درجة من الروعة لم يصل اليها من قبل .. » .

أما الفترة الثالثة والأخيرة من حكم العباسيين فهي فترة السقوط ٩٤٥-١٢٥٨ فقد ظلت خلافة بغداد تسرع الخطى نحو الانهيار والى جانبها شطر كبير من الثقافة التي أكتسبتها الشمة ولكن لم يتجلى التدهور الفكري والفني الا في العراق وفي

العاصمة أما في الأمصار الأخرى فحاولت الإمارات المتقلة أن
 تموض ما بضمه خمول بغداد .. ولم تنجح الموسيقى والآداب
 والعلوم عامة في قصور الخلفاء وحدها بل في قصور ،
 « بنى بويه » أيضا حتى لقد لاموا عز الدولة ٩٦٧-٩٧٧ ، بأنه
 يقضى وقتا طويلا مع الموسيقين والسفهاء ١١ وكان عهد الدولة من
 رعاة الموسيقى .. ورعى شمس الدولة الهمداني (٩٩٧-١٠٣١)
 العلامة ابن سينا العالم الموسيقي . ولم يكن المتصم (١٢٤٢
 -١٢٥٨) آخر خلفاء بغداد مجرد راع للثقافة بل عاش حياة
 الأدباء وعشاق الكتب ويقول مؤلف « الفخرى » انه كان يقضى
 كثيرا من ساعات فراغه في الاستماع للموسيقى وكان موسيقه
 الأول من أشهر الموسيقين في التاريخ وهو صفى الدين عبد المؤمن .
 وفي أوائل عام ١٢٥٨ حوصرت مدينة السلام وهاجمها المغول
 وقتل ذلك أسامع من القتل والسلب والحرق . ويقول ابن
 خلدون ان مليوناً وسبعمائة من السكان الذين كانوا يزيدون على
 المليونين قتلوا أو أفتوا ومن بينهم الغليفة وجميع أفراد عائلته
 الذين وضع المغول أيديهم عليهم وأحرقت القصور والمساجد
 والمدارس ، وذبح العلماء والأساتذة والأدباء والأئمة وأحرقت
 أو ألقيت في دجلة مكبات كاملة هي ذخائر القرون .

ولا يمكننا أن نفعل — ونحن نحاول جهد الاستطاعة تاريخ
 الموسيقى العربية بإيجاز في هذه المراحل الخطيرة من مراحل تطورها
 الموسيقى — أثر الأندلس على الموسيقى العربية فقد انعكس ضوء
 ازدهار الموسيقى العربية في الأندلس على كثير من أنحاء الدنيا وخاصة

أوروبا الغربية ولا يمكننا أن نفعل أبدا أن المستكفي (١٠٢٤-١٠٣٧) كان يفخر بأن ابتشه ولادة كانت شاعرة وموسيقية مشهورة وأن المتد آخر حكام بنى عباد (١٠٦٨ - ١٠٩١) كان مغنيا وعوادا حتى لقد أثار مبله العظيم للموسيقى سخط رعاياه . وأن ابنه عبد الله الرشيد كان ، موسيقيا يضرب على العود والمزهر . وقد كانت أشيلية أعظم مركز للموسيقى والشعر وصناعة الآلات الموسيقية ، كما كانت الثقافة الموسيقية - وقتئذ - ثقافة عامة يتمتع بها عامة الشعب .. وقد كانت رعاية الحكام للموسيقى والموسيقين واهتمامهم بكافة الفنون سببا في ازدهار التأليف الموسيقي وابتداع أنواع جديدة من فنون الموسيقى واستحداث الزجل والموشحات نلبية لمطالب اننهضة الموسيقى وقد كانت أوروبا طوال الخمسة القرون التي ازدهر فيها الحكم العربي في الأندلس ترسل البعثات الى الأندلس لدراسة فنون الموسيقى التي ازدهرت وترعرعت وللإستفادة من ترجمة الآثار العربية الى اللغات الأجنبية وفي مقدمتها آثار الفارابي وابن رشد ، وابن سينا ، وغيرهم وغيرهم ..

وقد استمر الغزو العربي الأدبي والفني لأوروبا وقتا طويلا . واستمر حكام الأندلس المسيحيون يحتفظون بالموسيقين العرب والموسيقى العربية بالرغم من أن الأندلس قد سقطت في أيديهم . وقد انتشرت في جميع الممالك الأوربية الآلات الموسيقية كالعود ، والقنار ، والبيان والدف والرباب . ولم يكن انتشار هذه الآلات

العربية — وقد احتفظت بأسانها العربية — مجرد انتشار آلات فقط بل انتشار آلات وموسيقى في الوقت نفسه .
وفارس الموسيقى في دولة الأندلس هو الحسن علي بن نافع المعروف باسم زرياب وهو صاحب أول مدرسة أستاذ لتعليم الموسيقى والغناء وأساليها وقواعدها .. وقد كان أول من اخترع المونش وأدخل مقامات كثيرة على الموسيقى لم تكن معروفة من قبل .



ولم يبق لنا وقد أوشك هذا الفصل التاريخي على النهاية سوى أن نشير ولو في إيجاز إلى بعض مشاهير الموسيقيين العرب وأن نتحدث عن الموسيقى العربية في مصر .. والحديث عن الموسيقيين العرب ، طويل ، ويحتاج إلى مجلدات وهو يبدأ بطويس — الطاووس الصغير -- أبو عبد المنعم عيسى بن عبد الله الذائب ، وقد سمي بالذائب لكثرة زردية البيت الآتي : --
قد براني السوق حتى صرت من وجدى آذوب
وهو أول من أدخل الموسيقى في الإسلام وقد وصف بأنه أحسن من في عصره ولم يكن — كما يقول صاحب كتاب الأغاني — يهتج غير الدف .. وقد طارده مروان بن الحكم عامل معاوية الأول على المدينة ففر إلى سوريا ولم تنفعه شهرته الواسعة فمات ، كذا وحسرة ..

ومن تلاميذه (سائب خاثر) وهو من أهم دارسي الألحان الفارسية ، وقد راح ضحية ثورة أهل المدينة ضد يزيد الأول بعد

موقعة الحيرة ، ومن تلاميذ سائب خاثر عزة الميلاء ، وقد سميت بهذا الاسم بسبب مشيتها وجمالها ، وقد ملأت شهرتها الآفاق حتى لقد طلب منها سعيد بن العاص والى المدينة ، أن تترك الفناء لأنه خشي الفتنة على شباب المدينة فتدخل عبد الله بن جعفر وكان من أعمدة حماة الفن ، وقيل أن مجلسها كان من أهم المجالس ، وكان يطلب السكوت من في مجلسها « فمن بدر منه عمل مغل جوزى بالعصا » . وقد قال عنها طويس « انها سيدة من غنى من النساء ... »



ومن مشاهير الموسيقيين ابن معرر وقد تعلم على يد عزة وكان كثير التجول في البلاد العربية وقد أدخل على الموسيقي العربية الإيقاع المسمى بالرميل . وغناء الزوج . وكان يسي صناعة العرب أى عازف الصنج وعيل أن غناؤه « خلق من كل قلب فيفنى لكل انسان ما يشئى » .

أما ابن سريج فقد وصفه بن المرتبة بقوله : ما خلق الله تعالى بعد داود النبي عليه السلام أحسن صوتا من ابن سريج ولا صاغ الله عز وجل أحدا أحقق منه بالفناء » .

وكان معبد — كما يقول اسحاق الموصلى — « من أحسن الناس غناء وأجودهم صنعة : وحسنهم خلقا وهو فعل المنين .. » . وقد قال فيه أحد الشعراء :

أجاد طويس والريحى بمسده

وما قصبات السبق الا لمعبد

و دار من أغانيه :

بانت سعاد وأسى جبلها انصرما
واحتلت الغور والأجراع من أضما
أحدى بلى وما هام القواد بها
الا المسقااة والا ذكرة حلما

والغور « الأرض المطشنة » والأجراع « الرملة الطيبة المنبت »
وأضم « واد بجبل نهامة وهو الذى توجد فيه المدينة » وبلى
اسم قبيلة والسقاء الطيش والذكرة ضد النسيان .
ومن أغانيه :

خليلى عوجا منكما ساعة معى
على الربيع تفضى حاجة ونودع
وقولا لقلب قد ملا ، راجع الهوى
وللعين أذوى من دموعك أودعى

وقد عاشى معبد حتى كبر واتقطع صوته وأدركته الوفاة فى دار
الوليد بن يزيد بدمشق وعندما أخرج نعشه كانت سلامة القس
— جارية يزيد بن عبد الملك — آخذة بعمود السرير وهى تبكى
وتقول :

قد بعمرى بت ليلى	كأخى الداء الوجيم
ونجى الهمم منى	بات أدنى من ضجيجى
كلما أبصرت ربحا	خاليا قاضت دموعى

قد خلا من سيد كا ذ لنا غير مضيع
لا قلنا ان خضعنا او همننا بخضوع

وسلامة القى من خيرة المنيات وسيت كذلك لان عبد الله
ابن ابي عامر المعروف بالقى وكان من أشهر زهاد مكة المكرمة قد
سمع غناه ما فافتتن بها وظل يحارب هواه ويكظم حب قلبه ثم
تغلب هذا الحب وافتضح أمره في شعره وصار حديث الناس .

ومن أهم المنيات العرييات أيضا حباة وقيل ان سبب موتها
« حبة رمان شرفت بها عندما كانت في مجلس شراب فحزن عليها
يزيد بن عبد الله وتعلق مدة طويلة بالجد الميت ولم يرفع رأسه
ثانية حتى مات في نفس الأسبوع الذي ماتت فيه ودفن الى
جوارها » .

ولعل تاريخ الموسيقى العربية لم يعرف شخصيتين موسيقيتين
دانت لهما الدنيا مثل اسحاق الموصلى وابراهيم الموصلى ، وكان
ابراهيم الموصلى صاحب مدرسة موسيقية تدر عليه ٢٤ مليوناً من
الدرهم كل عام وكان يتقاضى منحة شهرية من البلاط وكانت داره
في بغداد اشرف الدور واوسعها ، وقد نسب اليه أكثر من
٩٠٠ لحن . وقد أعطاه الخليفة مائة وخمسين ألف دينار في يوم
واحد . وقد قل عنه أنه قال : لو عاش لنا الهادى لبننا حيطان
دورنا من الذهب والفضة » .

وقد طلب الخليفة هارون الرشيد — ذات مرة — الى ابراهيم
الموصلى واسماعيل بن جامع ، وابن ابي العوراء أن يختاروا له

من العاذ العرب كلها مائة لحن ثم أمرهم أن يختاروا عشرة منها
ثم أمرهم أن يختاروا ثلاثة من العشرة .. وقد فعلوا فكانت الثلاثة
لحنا لمبعد وآخر لابن سريج والثالث لابن محرز أما اسحق الموصلي
فقد قال عنه الخليفة الواثق : « ما غناني اسحاق قط الا ظننت انه
قد زيد في ملكي وإن اسحاق لنعمة من نعم الله التي لم يحظ بشئها
ولو أن العمر والشباب والنشاط ما يشتري لاشرتهن له بشر
ملكتي » .

وكان الخليفة المأمون قد قال عنه أيضا : « لولا ما سبق على
السنة الناس وشهر به عندهم من الغناء لوليت القضاء بحضرتي
فانه أولى به وأعف وأصدق وأكثر دينا وأمانة من هؤلاء القضاء » .
وقد سمح له الخليفة بإرتدائه الملابس السوداء التي لا يرتديها
الا الفقهاء ، وكان ذلك من أقوى الأدلة على المبالغة في التكريم
وعندما مات رثاه الخليفة المتوكل بقوله :

« ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينه » وقد
ألف اسحاق أكثر من أربعين كتابا عن « غزاة الميلاء » وأغاني مبد
وأخبار طويس والنعم والايقاع والقيشان ، والأغاني الكبيرة
وغيرها وغيرها ..



ولا يمكننا ونحن نشير اشارات غابرة ، وقصيرة الى اعلام
الموسيقى أن ننسى يونس الكاتب — الكاتب الرائع والشاعر المجيد
وأول من دون الغناء العربي — حيث قام بالمحاولة الأولى — كما جاء

في الأغاني — لجمع أغاني العرب مع بعض الأخبار عن أنغامها
والعانها ومؤلفيها وملحنها ..

وكذلك الخليل بن أحمد (٧١٨ — ٧٩١) العالم الموسيقي
العظيم وصاحب كتابي النغم والإيقاع .

أما أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي (٧٩٠ — ٨٧٤)
فقد لقبه مواضعه بـ « فيلسوف العرب » ، وقد كتب رسالته الكبرى
« في التأليف » كما كتب رسالة في « ترتيب النغم » ورسالة في
« الإيقاع » ورسالة في « المدخل إلى صناعة الموسيقى »
و « مختصر الموسيقى » وفي « تأليف النغم » ومنهجرة العود .
وكان لهذه الكتب أثرها الكبير لقرنين من الزمان — على الأقل
بعد وفاته .

وأول من اتقن علوم الفلسفة واتقن الموسيقى هو الفارابي
« ٨٧٠ - ٩٥٠ » : صاحب الآثار الهائلة في ثقافة أوروبا في العصور
الوسطى والمعلم الثاني بعد أرسطو ، وأكبر فلاسفة المسلمين ومن
كتبه الموسيقية كتاب « الموسيقى الكبير » « وكلام في الموسيقى » ،
وكتاب في « احصاء الإيقاع » ، وهو في الواقع سيد مؤلفي العرب
في الموسيقى النظرية ، ومن أمهر العازفين بالآلات الموسيقية وأعظم
مصنف في الموسيقى العربية : في العصور الوسطى .

وقد أضاف ابن سينا (٩٨٠ — ١٠٣٧) بعض فصول هامة
جدا في علم الموسيقى بوصفه أوسع معاصريه علما به حيث كان
امام عصره في الطب والموسيقى في الشرق والغرب وكانت كتبه
وكتب الفارابي أساس العلوم الموسيقية العربية وقد عالج في كتاب

الشفاء ، وكتاب النجاة ، كل ما يتعلق بالموسيقى العربية ، بعلم
ووعى وسعة اطلاع .. وموهبة ..

أما مصر فقد تأثرت الى حد كبير — منذ أيام الخلفاء الراشدين
— بالموسيقى العربية التي وجدت أرضا خصبة ، للنمو والازدهار
وكانت في منتصف القرن الثالث عشر ملقى المدينتين الشرقية
والغربية (الأندلس) .

وكان ولاية مصر وحكامها ، يهتمون اهتماما كبيرا بالشفاء
والموسيقى والموسيقين الى أن جاءت الدولة الفاطمية (٩٧٠ —
١١٧١ م) حيث كان للموسيقى في عهد المزمّل لدين الله أول الخلفاء
الفاطميين — النصب الأوفر من الرعاية ، والعناية ، حتى الحاكم
بأمر الله الذي أغلق الملاهي ، وعاقب الموسيقين بأقصى العقوبات
شجع علماء الموسيقى على التأليف ورعى ابن الهيثم — من أكبر
علماء الرياضة الذين عرفتهم مصر والذي كتب رسالة هامة في
« تأثيرات اللحن الموسيقية في النفوس الحيوانية » . وقد
اختار الحاكم بأمر الله من لقب بالمسيحي — أكبر المؤرخين في
عهده — صاحب « مختار الأغاني ومعانيها » واليا من أهم ولاته
وكان الظاهر بيل للملاهي ميلا مفرطا . وكان موسيقيا هاويا
وناضجا وقد غرق في حياة الرفاهية التي ارتبط فيها حبه للموسيقى
والراقصات بالقسوة المتوحشة ، وقد رعى الأمر (١١٠١ — ١١٣١)
العلامة الملحن والعالم الموسيقي أبا الصلت أمة ووهب نفسه للمو
الموسيقى ، وقد وجه اللوم للظافر (١١٤٩ — ١١٥٤) لأنه أعطى
الموسيقى من العناية ما لم يعط للحكومة والسياسة . —

وتأخرت الموسيقى في عهد الأيوبيين والمماليك وظلت البلاد مصابة بمقم فنى — كما كانت مصابة في الوقت ذاته بمقم علمى دام أكثر من خمسة قرون وعندما دخلت القوات الفرنسية أرض مصر في نهاية القرن الثامن عشر بدأ صراع بين الموسيقى الشرقية والموسيقى الغربية وبدأ — مع بداية القرن ١٩ — اهتمام بالموسيقى حيث تم في عشر سنوات من ١٨٢٤ — ١٨٣٤ — إنشاء خمس مدارس موسيقية وهى مدرسة الطبول والأصوات ومدرسة الطبول بمصر ومدرسة الموسيقى في الخانكا ومدرسة أخرى بالنخيلة ومدرسة الآلاتية بمصر الجديدة وكان أساتذة هذه المدارس من الألمان والفرنسيين منهم بوبابك وجبرا ، وقد أغلق بعضها فيما بعد ومن القواهر الفنية الهامة في ذلك العهد ظهور بعض الكتب منها ما كتبه السيد محمد بن اسماعيل بن عمر شهاب الدين وهو « سفينة الملك وتقيّة الطلک » وكذلك « نخضة الوعود بتعلم العود » و « حياة الانسان في ترويد الألحان » و « الروضة البهية في أوزان الألحان الموسيقية » والكتب الثلاثة الأخيرة للفنان محمد ذاكر بك (١٨٣٦ — ١٩٠٦) .

وقد ذكر كلوت بك في كتابه « وصف مصر » الكثير من أحوال الموسيقى في مصر في القرن التاسع عشر فقال : « يميل المصريون ميلا شديدا الى الموسيقى ولكنهم يرون أنه مما لا يليق برجل الجدد والصل أن يخصص بعض وقته لدرسها والتدرب عليها ولكنهم ليلهم الفريزى لها نراهم جميعا من رجال ونساء وأطفال يتلهون بها في أوقات فراغهم ، أو أثناء ممارستهم لأعمالهم

وبلغ من شدة ميلهم اليها أنهم يطمون في المدارس ترتيل الآيات
 القرآنية بأنغام محدودة وأوزان معينة .. والموسيقى المصرية الحالية
 لم تكن الا فنا من الموسيقى العربية طرأ عليه القصاد .. وبميل
 المصريون الى سماع الموسيقى منذ قديم الزمان وما برح هذا
 الاستعداد الفطري باقيا فيهم حتى الآن .. ولبعض الصناعات
 عندهم أغان خاصة بقصد من التفتى بها التعاون على انجازها
 بالسرعة والدقة التي اذا تغنوا بها وأشدوها مهدت لهم القيام
 بهمة جسر المراكب في الأوقات التي لا تكون فيها الرياح ..
 وللسقائين من هذه الأغاني والأناشيد ما يساعدهم على ملء قلوبهم
 بالماء وحملها وتحميلها وهكذا بالنسبة لكل صنعة وحرفة .. واذا
 تذكرنا ان بعض شعراء الأعصر القديمة مثل ايشيل ونارسبائه
 وافيلس قد استرسلوا في وصف محاسن الأغاني النيلية استغنا
 ان نسلم على سيل الترجيح بان الأغاني التي ما برح نوتية نهر
 النيل بتغنون بها أثناء سيرهم الفن فيه هي عين الأغاني التي
 كانت ضفتاه ترجعان صداها قبل بضعة ألوف من السنين . ولكن
 منبقة من الأمة أغانيها الخاصة بها أما أغاني طبقة العلماء ، فتسروح
 منها راحة الجدد والنوفاة والشدة لأن أغاني الغرام وأناشيد الحب
 والهميام لا توافق بالطبع أمزجتهم ولا تتفق مع هيتهم وكرامة
 مركزهم ولدى المصريين آلات موسيقية كثيرة خاصة بهم هي من
 أبسط ما عرف من الآلات كالطبل البلدى والعاجات والطار
 والدربكة والناي والصفارة والزماردة والربابة والقانون والمود .
 والمغنون المصريون الذين صناعتهم الغناء يسمون بالآلاتية —

مفرد آلاتى — وتتألف منهم فى مصر طبقة محترقة فاسدة الأخلاق،
إذا جرى بهم الى أحد منازل الخاصة قاضوا أجرا لا يتجاوز
ما يعادل ثلاثة فرنكات الى أربعة فرنكات فى الليلة الواحدة .
والمدعوون لساعهم يفتقون عليهم عادة من محض كرمهم نينا
من المال يضاف الى تلك الأجرة الزهيدة وتقدم اليهم أثناء الغناء
المشروبات الخمرية كالمرقى وغيره وهم يغرطون فى شربها اذ يحدث
أحيانا وقد لعبت الخمر بعقولهم أن يفقدوا رشدهم ويسقطوا على
الأرض .. وفى مصر منغيات يسمون بالمعالم — مفردة عامة —
وهى كلمة أطلقها الأوروبيون على جميع الرقصات -- كذا فى
الأصل !! -- من غير تمييز ولا استثناء مع أنه ليس فى هذا الإطلاق
شئ من العيوب ويقدر المصريون كثيرا مهارة المعالم وحذقهن
فى صناعتهن واعتاد نساء الأغنياء أن يأتين بهن الى داخل حرمهن
ليسموهن أغانيهن المقترنة بلذات الطار والدربكة بينما يكون
رب المنزل ومدقائه من المدعوين مجتمعين بصحن الدار ليستنقوا
أسماعهم بتلك الأنغام والمعالم الشهيرات بالحذق والبراعة فى
صناعتهن وتدفع لهن الأجور المالية وتقدم اليهن الهدايا النفيسة.
وغنى المعالم شديدة التشابه والتجالس لا تلبث أن يمل
لهذا السبب ساعها ومن هذا الوجه لا محل للمقارنة بينهما وبين
منغياتنا اللاتى يترن برخامة الصوت ونعومته ورئنه ومن المنغين
من لا خلاف فى جمال أصواتهم وحسنها وهم يتوخون من مقامات
الصوت الجدير الكروانى وبالجملة الأصوات الحادة حتى نراهم
وقد اتفخت أوداجهم لهذا الغرض وتكلموا ما فوق طاقتهم

للمحافظة على المقامات العالية من الصوت أطول ما استطاعوا
من الزمن .. » .

ولكلوت بك العذر فيما كبه عن الموسيقى والموسيقين
المصريين فقد كتب ما كبه في أعقاب عهد الظلم والاضلال والتأخر
والانحطاط الذى استمر أكثر من خمسة قرون من منتصف القرن
الثالث عشر الى نهاية القرن الثامن عشر .. وكتب ما كبه فى وقت
كان الحاكم — وهو لا يمت بأذى صلة الى الشعب — يعطى
الأهمية البالغة لكل ما هو أجنبى عن الشعب ويذل كل ما فى
وسعه لقطع كل علاقات سياسية واجتماعية واقتصادية وفنية بين
أجزاء الوطن العربى ..



لقد كانت موسيقانا العربية ، عبر القرون الماضية ، تابعة من
صميم حياتنا العربية وصورة حية للوطن العربى ، تؤثر فى غيرها ،
ولا تتأثر بهذا الغير الا فى الحدود الضيقة التى لا تخرجها عن
طبيعتها ، ولا تباعد بينها وبين الاحتفاظ بروحها وطابعها وميزاتها
وكانت حتى فى العصور المظلمة الوعاء الذى حفظ للفن العربى
طابعه وروحه .

وبرغم المحاولات العديدة التى بذلت للقضاء على هذا الفن
العربى الأصيل أو على الأقل لاختلاطه بالعنصر الأجنبى ، فقد ظلت
الموسيقى العربية محتفظة بروبتها ، لأنها فى كل العصور ، حتى فى
العصور المظلمة ، وجدت من أبناء العروبة ، المخلصين لها حماة
يدافعون عنها ويحملون راية هئمتها ، وتطورها .. وازدهارها ..

انطلاقة جديدة

استيقظت الأسرة — كمادتها كل يوم — مبكرة سعيدة ،
كاملة العدد وأدى رجالها وأطفالها جميعا صلاة الصبح في المسجد
القريب من منزلهم المتواضع ، ثم انغذوا أماكنهم من مائدة الطعام ،
حيث كان كل شيء معدا ، الجبن الطازج ، واللبن الساخن ، والخبز
الذي يخرج من الفرن الى أفواه الأكلين ثم البيض الذي أنت به
ربة البيت مباشرة من « حفيضة القراخ » .

ثم انتقل الرجال والأطفال بعد أن تناولوا الطعام الى مكان
آخر ليتيحوا للسيدات والفتيات فرصة تناول الافطار ، فما يليق
بهؤلاء أبدا أن يتناولن طعامهن في حضرة الرجال .

وحول « البكرج » الكبير جلس الجميع يحضون الكواب
النساي الأسود ، الذي لا يفرق عن المداد في كثير أو قليل والذي
أصبح تناوله كالصلاة فرضا على كل فرد من أفراد الأسرة ولم
يكن أحمد — والد زكريا — فتى الأسرة المدلل ، وشيخها
« المطمطم » الذي تفاخر به قبيلة مرزبان ، القبائل المجاورة .
لذكائه الحاد ، ولقدرته على الافتاء في بعض مسائل الدين ،
والدبا ، والذي استطاع بذاكرته القوية ، أن يحفظ القرآن الكريم
بقراءته السبع في أقل من عامين .. ولم يكن أحمد أو الشيخ

أحمد ، كما تعودت الأسرة أن تناديه بما فيها أبوه وأمه وزوجته كعادته ، كان ساهم الفكر ، نارد اللب متونر الأعصاب ، يبدو لأول وهلة ، وكأنه قد عاد لتوه من رحلة شاقة متعبة يتناول طعامه وكأنه غارق في سبات عميق ، يأخذ لقمته بعد جهد جهيد ، ثم يقبها في يده لفترة طويلة ، ثم يرفعها الى فمه ببطء شديد ، وكأنه يرفع حملا ثقيلًا لم يعود من قبل حملة .. ولم يشترك في الأحاديث المكررة المعادة التي نجى، على السنة أفراد الأسرة كل صباح ، ولم يحاول أن يتفكه في حديثه ، كما كان يفعل دائما ولم يشاكس اخوته الصغار كما تعود أن يفعل كل مرة ، والتفت اليه جميع أفراد الأسرة ، الأب والأم والأخوة ، يسألونه عما ألم به فكان يجيب في كل مرة « مفين حاجة » وسألوه أكثر من مرة عن ربه في موضوعات متعددة فكان يجيب بحركة آلية ، « مفين مانع .. » ومرة سأل والده : « ايه هو يا شيخ أحمد اللي ما فيش فيه مانع ?? .. ولم يستطع أن يجيب لأنه لم يكن قد وعى ما قيل شيئا على الاخلاق » .

وقال عمر الأخ الكبير : « لازم الشيخ زرعها قطن طلعت حطب » وقال سعد الأخ الأكبر « دا لازم ما طلعتش حاجة خالص » وكان هذا أبلغ وصف لما يعانيه الشيخ أحمد من قلق ووجوم . وانتظرت الزوجة انصراف أفراد الأسرة ، واستبقت زوجها فلعلها تستطيع أن تعرف منه سبب ما ألم به .. ولما كانت لا تجرؤ -- كغيرها من بنات قبيلتها -- على أن تعبر عما يخامرها من مخاوف

فقد اكتفت بأن قالت له كما تقول دائما كل فتاة في مثل منها عندما تجرى الأمور على ما لا تهوى . « ربنا معاك يا شيخ أحمد » .

وقضى أحمد يوما شاقا مريرا . لا مثيل له في حياته فهو لا يستطيع أن يحكم بآله سعيد ، وهو لا يستطيع أن يحكم بآله نص وهو لا يستطيع أن يصف العارض المفاجيء الذي شل أحاسيه كلها .. بآله شر كما أنه لا يستطيع وصفه بآله خير ..

وعندما يتضاءل — أو يكاد يمحى — العاجز بين الخير والشر ، والهدوء والقلق يكون الأمر شاقا عسيرا أو متعبا للغاية ، ربما أكثر مما لو كان الأمر خيرا كله ، أو شرا كله .. وقد حاول الشيخ أحمد أن يبعد الغواطر التي استولت على كل جوارحه وأحاسيه ، فذهب إلى المسجد ، بعد صلاة العصر ، وألقى درسا كان أقصر درس ألقاه في حياته ، لأن الممانى والكلمات كانت تهرب منه ، كما يهرب المفلس الضجول من دائن ملحاح .. وحاول أيضا أن يجلس على شاطئ الترعة . ليرفه عن نفسه بمواكب الغاديات والرائحات فكانت الأفكار السوداء ، والأفكار البيضاء تضارب في ذهنه ..

ولم ينقذه من ذلك كله ، إلا أخوه الأصغر ، وقد جاء يستدعيه على عجل لأن الأعمام الكبار من شيوخ اقبائل المجاورة قد اجتمعوا في المنزل ، لبحث أمر خطير .. وخلع أحمد حذاه وجلس في ركن قصي من أركان المندرة وكأنما ينتظر حكما صادرا بالاعدام . لقد أسر إلى والده بالرؤيا التي رآها فأزعته ، وأجزعته فما بال آية ، يجمع حولها هذا المجلس الخطير ، ولم يتردد إبراهيم

خاك الشيخ أحمد في أن يقول له بنفس وعلى مسمع من الجميع ..
« يا أحمد يا بنى أوعى تكذب في الحطم ، أحسن اللى يكذب
بيروح جهنم » ، وقال أحمد بعد أن أقسم بكل أولياء الله الصالحين .
انه « رأى في المنام السيدة زينب وكانت ترتدى ملابس بيضاء
قد لادته من بين رفاقه ، وأعطته دونهم جميعا قنديلا منيرا » ..
وأجمع مفسرو الأحلام على ضرورة سفر الشيخ الى القاهرة ،
لزيرة السيدة زينب ، ولتلقى العلم هناك في الأزهر ، اذا
أمكن ..

ولم يجد والد الشيخ أحمد بدا من الموافقة فما يجوز له أن
يخرج على اجماع المجلس ، ولا يجوز له أن يخالف رغبة للسيدة
زينب حتى ولو كانت من أجل سفر أحب أبنائه اليه الى مكان بعيد .
واضرجت أسارير الشيخ أحمد وابتم لأول مرة بعد أن
أقنعه قرار مجلس الأسرة من حالة القلق والضيق التى كادت
تفقدته أعصابه وعندما انفرد بزوجته فاطمة قالت له في صوت
حالم رقيق ، خائف خجل : « أأنا مش خايفة عليك يا أحمد
الا من حاجة واحدة !! » .

ولأول مرة ومنذ اليوم الأول لزواجها من الشيخ أحمد ، اى
منذ عشر سنوات تنطق الزوجة باسم زوجها مجردا من كلمة
شيخ .. وابتم أحمد وربت على كنفها برفق وحنان وهو يقول :
« ما تغافيش على كلها يومين يا أرجع الفيوم فانى يا بُنت لك
ونعيش سرا فى مصر » .

ولم تهدأ نفس فاطمة التعلقة بالرغم من هذه الترضية وبالرغم

من هذا الوعد فقد تمردت هي وبنات القبيلة أن تطول فترة « اليومين » الى عامين ، وربما الى عشرة أعوام والزوجة ، كما هي على ذمة زوجها ، لا يحق لها أن تنضب ولا يحق لها أن تطلب الذهاب الى زوجها .. ولا يحق لها أيضا أن تطلب من زوجها العودة .. ألم يذهب لاكتساب لقمة العيش ؟! أو لزيادة موارده ؟! انه وحده الذى يملك حق السفر وهو وحده الذى يستطيع أن يقرر موعد العودة ؟!

وانهى أحمد المعادنة بكلمة هادئة همس بها فى أذن الزوجة ، « مانخافيش هو أنا لى حد خيرك يا فاطمة » .
وأخفت الزوجة الارتباك عند سماعها تلك الكلمة التى لم تسمعها من قبل حتى فى ليلة زفافها ، واستجمعت قولها وألقت بالقذيفة الكبرى فى وجه الزوج : « انت عاوز الحق يا أحمد .. أنا خايفة عليك من بنات مصر » .

وضحك أحمد ، وهو يحاول أن ينزع الخوف من قلبها ثم قال لها فى رفق « يا شيخه خليكى على الله ، بنات مصر حبيصوا لنا على ايه ؟ .. دول عندهم أفنديات كثير جوى » .



وفى القاهرة ارتدى عصامة أنيقة ، و « كاكولة » ذات ياقة عالية ، بل وذات أكمام ضيقة طبقا لأحدث المودات ، ونزل أول ما نزل فى لوكاندة بحى الحسين ، ثم استقل بحجرة صغيرة فى قصر الحى ، فما يجوز له أبدا أن يسكن فى مكان غير الذى يسكن فيه ببلدياته ..

وقضى الشيخ شهرا كاملا ، يزور كل أضرحة أولياء الله
 الصالحين ويقرأ في كل ضريح سورة الفاتحة عشرات المرات ، لقد
 حمله أهله وأقاربه وجيرانه ، ومعارفه واستحلفوه بكل ما هو
 عزيز لديه أن يقرأ لهم سورة الفاتحة في كل من الحسين والسيدة
 زينب والسيدة فتيمة والامام الشافعي والامام الليثي وكل من
 دفن في القاهرة وضواحيها من أولياء الله الصالحين ، واتممت زيارة
 الأضرحة ، وهي زيارات واجبة ، وبدأت زيارات أخرى أكثر
 وجوبا من زيارات الأضرحة .. ان معه مئات من « السلامات »
 حملها اياه أهله وقاربه ومعارفه وجيرانه في اليوم الى أهلهم
 وذويهم ، وأصدقائهم في القاهرة واكمل الشيخ دورة كاملة على
 هؤلاء جميعا وبدأ يفكر في نفسه ، وبدأ يطاول أن يعرف كل شيء
 عن القاهرة : غير مساجدها وأضرحتها ، ومنازل بلدياتها فيها ..
 وكان من حسن حظه أن بعض أقاربه كانوا يعملون في « قصر
 الخديوى » وأن أحدهم — زيدان أفندى — كانت له مكانة
 ممتازة هناك وكان هذا الأخير من عشاق عبده الحمولى وكانت
 لا تموته -- مهما كانت الظروف — فرصة حضور إحدى حفلاته.
 وقد وافق الشيخ قريبا أكثر من مرة الى حفلات محمد عثمان
 وساكنة والمظ والشلسمونى وغيرهم من نجوم الفناء ، وأنيحت
 له أكثر من مرة أن يشاهد الراقصة الأولى في عهد اسماعيل وهي
 كوشوك هانم التى كانت قد اعتزلت الرقص فترة معينة ، فلما
 طلبها الخديو اسماعيل لترقص في حفلات افتتاح قناة السويس
 عام ١٨٦٩ رفضت ، وألح الخديو في احضارها وألحت هي في

الرفض ، فأرسل قوة عسكرية لاحتضارها مكتوفة اليدين وأمر
بالأ تغادر القصر طوان حفلات الافتتاح .. وقد أتبع للشيخ أحدا .
أن يرى كوشوك هذه في حفلة خاصة فلم يعجبه رقصها واذ
أعجبته شخصيتها القوية .. ومرة ذهب الى مولد السيدة زينب ،
حيث تعودت « أم الشعور » — وهى سيدة بهلوانية — أن تمشى
كل ليلة هى وشاة صغيرة على الجبل وعلى ارتفاع كبير ثم تقوم
بذبح الشاة وهى فوق الجبل باتزان عجيب ، وكتب الى أبيه مرة
يروى له أغرب ما مر به فى القاهرة ..

« تصور لقد رأيت رجلا أجنبيا فى إحدى الحفلات العامة يقف
على منصة مرتفعة وفوقه وعلى بعد بضعة أمتار ينبعث ضوء ساطع
أنسبه بالتميز . لقد كان ذلك الضوء حديث القاهرة بأسرها ؟! وقد
كان فعلا من الغريب انبعاث نور غير نور المصباح فى حفلة من
الحفلات » لأن الكهربائي لم تكن قد عرفت بعد فى العاصمة .

وتعود الشيخ أحد أن يقضى ليلة الجمعة من كل أسبوع فى
الطواف بأحياء العاصمة لمشاهدة المهرجين وكان يطلق عليهم وقتئذ
« الجميدية » وكذلك الحواة ، وعازفى الربابة والأرغول والفجر
الذين كانوا يرقصون على الجبال المشدودة ومعهم القروود والماعز .
وكان مكانه المفضل كل ليلة حديقة للأزبكية تلك التى كانت
-- كما قال قريبه زيدان أفندى -- الى عهد قريب جدا ملوثة
بالمياه الراكدة ، والبعضى القائل التى تحولت بسرعة الى حديقة
جميلة تشرح الصدر وتبهج العين وتضاه بمصاييح الغاز وكم من
ليلة وقف مشدوها أمام نخوت الحمولى والمسلوب والميلاوى

ومحمد عثمان وهم يتزعمون بأصواتهم الجميلة القوية اعجاب
الألوف من أبناء الشعب . لقد كان الواحد منهم - بلا ميكروفون
بالطبع - قادرا على اسماع اكثر من عشرة آلاف شخص يجلسون
في حفلة واحدة .. وكان الشيخ احمد يذهب الى الأربكية حتى
عندما لا يكون بها مطربون ليشف أذنيه بالموسيقى التي نغزفها
الفرق الموسيقية العربية والأوربية التي كانت تبعث من كافة أنحاء
الحديقة وفي بعض الأحيان كان ير بالأوبرا عندما توجد بها بعض
الفرق الأجنبية على أمل أن يرى فنانة أجنبية تدخل المسرح
أو تخرج منه .

وكم مرة ذهب الى شارع شبرا حيث كان خاليا الا من بضعة
قصور فخمة تناثرت على هذا الجانب أو ذاك وحيث تعود انقوم
أن يذهبوا كل مساء للترفة بمراباتهم التي تجرها الخيول وتبقيها
وتسير ورائها ومن جانبيها مواكب الخدم والحشم يرتدون الملابس
المزركشة وهم حفاة .

وبالرغم من أن هذا الشارع كان - وخاصة في ساعات الليل
المتأخرة - مقرا لقطاع الطرق . الا أن الشيخ لم يكن يهتم بذلك
لأن له من قوته البدنية ومن نبوه الطويل الحماية كل الحماية .



ومضت الأيام ، وعرف الشيخ القاهرة شارعا شارعا ، وحارة
حارة ، وأصبح قادرا على أن يستقل بنفسه في زهاته وفي جولاته .
ثم نعرف الى كثير من المطربين والمطربات وهرب اليهم وعرف
الكثير عنهم ووجد منهم حرصا على الكرامة ، وحرصا على

الكبرياء ، لا وجود له عند وزراء ذلك الزمان ولا عند كبرائه .. عرف مثلاً أن عبده الحمولى فى أعقاب أزمة من أزماته مع الخديوى .. قرر أن يترك الغناء ، وفرض على نفسه ألا يفنى مرة واحدة باى مبلغ من النقود واشتغل الحمولى — المطرب الأول — فى تجارة الأقمشة ولكنه خسر ما كان يملكه وهو ٢٠ ألف جنيه فى عشرين شهراً . ولم يعد الى الغناء الا بعد أن زالت الأسباب التى دعت الى اعتزاله .. وذكر له الحمولى ذات مرة حقيقة الخلاف الذى نشأ بينه وبين الخديو اسماعيل والذى خلف له انهياراً فى الأعصاب لم يشاركه طول حياته حتى لقد كان اذا اعترته لوعة المرض يسقط على الأرض يتخبط من شدة الألم ؛ الى أن نزول النبوة .. كان الحمولى ، قد تزوج المظ وكان قد حرم عليها الغناء واستدعاها الخديو لتغنى ذات ليلة ورفضت المظ كما رفض الحمولى . وأمر الخديو على احضارها بالقوة ؛ وأمرت المظ والحمولى على عدم الذهاب وأرسل الخديو قوة لاحتضار المظ ومع ذلك رفضت المظ كما رفض عبده الحمولى ثم تدخل أحد خاصة الخديو فى الأمر فنصحه بالآلا يتشدد لأن عبده الحمولى مصمم على ألا تغنى المظ لحنًا واحداً طالما هى فى عصته .. وتراجع الخديو ، واتصر الحمولى والمظ ..

وبدا الشيخ أحمد يتصل بصغار الفنانين ، كما بدأ يتصل بكبارهم ، لأن الكبار سيذهبون والصغار — كما تعود أن يقول — سيكبرون . وهاله وأذهله ما يمايه صغار المغنين والآلانية ، من فقر مدقع — فهم نتيجة لقلّة الأفراح وضالّة الأجر وكثرة

العدد لا يزيد أجر الواحد منهم عن خمسة عشر جنيها تعطى له
ولفرقة .. وأحيانا كثيرة ، لم يكن الفنان يتناول أجرا بل كان
يكتمى في الغناء بالنقود ، والنقود في الأفراح لما أن ينزل كالمنظر
وأما الا ينزل على الإطلاق .. والغريب أن الفنانين كانوا يشكون
الجوع .. فيما عدا قلة ضئيلة منهم — بينما الطائفة التي تعامل
واباهم تكسب كل شيء .. ذلك أن الفنان لم يكن ينزل الى الاتفاق
مع زبائنه ، ولم يفكر في المسائل المادية على الإطلاق .. حتى
الاتفاق مع الآلاتية وقل الفرقة من مكان الى مكان لم يكن من
عمل الفنان . وأنا ذلك كله من عمل طائفة « المعطيات » التي
ترتدى أفخم الملابس وتضع في أصابعها العديد من الخواتم ..
وتقوم بالاتفاق مع الزبائن .. وتسلم الأجور ودفع النفقات ..
الى جانب أنها هي المسؤولة سنوية مباشرة ، عن آهات الاعجاب
التي تنتشر في كل جزء من مكان الاحتفال أثناء قيام المغرب
بعمله ..

وكان هؤلاء المغنون والآلاتية يحيون الحفلات والأفراح ،
التي تعود الناس : فقراؤهم ، وغنياؤهم ، على اقامتها في بعض
المناسبات — والتي كانت تختلف اختلافا كبيرا عن الحفلات
والأفراح التي كان يراها قبل أن يجرى الى القاهرة .

فأفراح القاهرة — عند عامة الشعب — كانت تبدأ قبل ليلة
الزفاف بفترة طويلة وفي هذه الفترة يقوم « المبهجة » وهم
طوائف من هواة الموسيقى أجادوا الفن وحفظوا التواشيح
والبنشائر بأحياء ليالى موسيقية عرفت « بالضم » وقد يجتمع في

الليلة أكثر من فرقة تبارى في الانشاد . وقد اشتهرت هذه الفرق بأسماء رؤسائها مثل فرق الخضرى والقهوجى وحسين الكوجى وشحانة الحلوانى ، وكان أحد اليونانيين المتعمرين ، واسمه كوستاتى قد تعلق بالموسيقى وأجاد غناء التواشيح والشارف كواحد من خيرة المطربين المصريين تماما . وكانت له قهوة فى حى باب الشعرية ، انتقلت فيما بعد الى شبرا ، ولكنه كان على استعداد للاشتراك فى احياء الليالى الموسيقية التى تنبى الزفاف . وكثيرا ما أعجب الشيخ ، بحفلات يوم الحمام حيث تنفى العروس الى الحمام فى موكب نسوى من قربانها وصديقاتها فى أحسن ثياب وأجمل زينة يتقدمها جيش من الفتيات والراقصات وبعد أن تتحم العروس وتتطر تمود الى منزلها فى زفة أخرى . وبعدئذ ينهب العريس هو الآخر فى زفة مائلة محاطا بأصدقائه وأحبابه سبقهم فرق المنشدين والمغنين والموسيقين ونحضر العالمة الكبيرة فى المساء ومعها أفراد فرقتهما ، وتوضع الحناء فى طاسات خاصة ويصبغ المدحون أيديهم وأرجلهم فى الحناء وكذلك يضل العريس والعروس وسط الزغاريد وأناشيد العالمة وطقايطها .

وتكون الليلة التالية هى ليلة الزفاف ، وتبدأ بطل الجبال والطبل البلدى والنقرزان وعربات الكارو التى تحصل ممثلين لمختلف الحرف والصناعات تمثيلا صحيحا وبأسلوب مضحك فى نفس الوقت ، ويتبع ذلك كله ، عربة زينب هانم وهى عربة جميلة من مخلفات القصور الملكية ، قد حليت بزخارف ذهبية يجسرها أربعة جواد .. وعربة زينب هانم مخصصة للعروس ، وتسبقها عربات

المسحرات .. وتسير الزفة من منزل العروس تغرق نسوارع القاهرة الى منزل العريس ، حيث يحيى الحفلة ، كبار المطربين والمطربات .. ويكون السباح فيها للجمهور ، حتى مطلع الفجر وأحيانا الى مشرق الشمس ..

أما حفلة الطهارة أو الصرافة فتتازر بجمالها حيث يذهب أهل القتل « المظاهر » به الى المسجد الحسيني وقد زينوه ، وجملوه ، وحملوا لوحة الاردوازي وسط شال من الكنير .. ويتقدم عدد من جاويشة ، قيب الأشراف ، وبعض القراء يتلون التواشيح والأذكار .. وبعد أن تتم زيارة القتل وموكبه للمسجد الحسيني يعود الركب والإطقال يصيحون من وراءه « أف شمس .. أنت قمر .. أنت نور .. فوق نور » وفي الوقت نفسه ترتفع من جميع الأنحاء أصوات المقرئين والمطربين قائلة : « يا عنته يا خالته ، حضري صرافته » ، ثم يعود الجميع الى منازلهم بعد أن نال كل واحد نصيبه من الهدايا .. والنقود ..

ولم يكن الشيخ أحمد يتدخل في السياسة ، فقد اشترك من قبل في الثورة المرابية جنديا ، فلما انهزمت الثورة ، كان واحدا من الشباب الذين انطوا على أنفسهم بسبب الانهيار السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي ألم بالشعب وقد هال هؤلاء الشباب أن يروا قادة الثورة وزعماءها قد تنكروا لهذه الثورة التي صنعوها كما هالهم أيضا أن موجة من اليأس قد رانت على قلوب المولتين والتجار والزراع وكل طبقات الشعب .

ولم يحاول الشيخ أحمد أن يتدخل في السياسة منذ اليوم

الأول الذى جاء فيه من القيوم الى القاهرة وربما كان السبب في انضمامه في الملاهى والحفلات يعود الى الهزة العنيفة التى صدمته في أعقاب هزيمة الثورة المراحية .

ومرة تدخل في السياسة ، بسبب أمر متعلق بالرقص وبطريقة تدل على خفة الدم . ففى سنة ١٨٩٤ أصدرت الحكومة قرارا بمنع الرقص وهذا القرار فى اليوم الذى صدر فيه ثم تدخل قناصل الدول وأحدثوا أزمة سياسية لأن الحكومة اتخذت قرارا فى مسألة خطيرة كهذه دون أن تأخذ رأيهم ..

وقطع الشيخ أحمد نبذة كتبها الأهرام عن هذا الموضوع فى ٣١/٧/١٨٩٤ ، ووضعها ليلا على باب الأزهر .. الأزهر ذاته . وقد جاء فى هذه الكلمة ما يلى :

« منع الرقص يوما وفى الغد أعيد ويذكر حضرات القراء أننا كنا قد تنبأنا بتلك الاعادة السريعة وما ذلك الا لاستدلالنا عليها بأمرين أحدهما : أن الداخلية أصدرت أمرا بمنع الرقص دون استشارة أحد القناصل فيه ومعلومة حالة الامتيازات فى القطر ، والثانى أن عادة الأوامر عندنا لا تعيش الا صباح صدورها .. » . ولكن كيف أتبع للشيخ أحمد أن يبقى فى القاهرة طوال هذه المدة الطويلة بنصر فى لياليها ويعرف الكثير من أسرارها ، وأتى له بالمال الذى يمكنه من ذلك كله ؟

قال الشيخ أحمد : ان سبب ذلك كله يرجع الى الحظ .. الحظ الذى أتاح له فرصة التوظيف فى الأزهر والحظ الذى مكنته من أن يتزوج فتاة من إحدى الأسر التركية التى تقيم فى

القاهرة ، والحظ الذى جعل له قريبا يعمل فى السراى ، والحظ
الذى جعل له أقارب من هواة القنود ..

لقد تعود الشيخ أحمد أن يذهب لصلاة التجر فى مسجد
الحسين كل ليلة حيث كان عبده الحولى يؤذن لصلاة الفجر ويبلى
فى الأذان كما كان الشيخ أحمد ندا يؤذن لصلاة الفجر فى مسجد
السيدة زينب وببلى فى الأذان ، وكانا كان النجمان اللامعان
يتأبقان وكان أنصار كل من القطبين يتعصبون لصاحبهم وبالفرد
فى هذا التعصب .

وكان الشيخ أحمد بطبيعة الحال من أنصار الحولى . فكان
يذهب الى المسجد ، مبكرا ويحتل مكانا قريبا من القبلة يقرأ
القرآن .. وأحيانا كان يعود من سهرة طويلة يسبح فيها بديعة
المصرية أو هانم الاسكندرانية أو نظيرة المهندسة حيث يذهب
مباشرة الى المسجد ، فسماع الأغاني ومشاهدة الرقص والسهر فى
الأفراح والحفلات — فى رأيه لا يمنعه من أن يكون متدينا يأتي
الى المسجد ، قبل أى انسان آخر فى كل صلاة من الصلوات
الخمس .. وذات صباح فاده القدر الى ميدان فوجد رجلين
بقتلان أحدهما يرتدى ملابس مشايخ الأزهر ، والآخر يبدو عليه
أنه من قطاع الطرق ، وتدخل الشيخ أحمد فى المعركة واستخدم
نبوته الطويل واتصر على قاضع الطريق انتصارا ساحقا .. وتمكن
من أن يعيد للمجنى عليه ساعته ومحفظته ، وبعد أن أفاق الشيخ
الجندى وهذا اسمه — شكر من أنقذه وطلب اليه أن يزوره فى
مكبه بالأزهر .. وفى الصباح كان الشيخ أحمد فى مكتب الشيخ

الجندي مسلما ومهنا ، ولكنه عاد الى بيته وقد عين موظفا بالأزهر . ولم يكتب الشيخ الجندي بتوظيفه بل زوجه من فتاة تنسب الى احدي الأسر التركية التي يعرفها . وكتب أحمد الى أبيه يخبره بالقصة من أولها الى آخرها « قصة الوظيفة والزواج » ووافقت الأسرة كلها على الوظيفة .. ووافقت أيضا — فيما عدا زوجته فاطمة بالطبع — على الزواج ، فما دامت فاطمة لا تنجب الا بناتا ، وما دامت الأسرة كلها تريد ذكورا يحفظون تراث الأسرة ويحملون اسمها ، فقد وجب الزواج مشى وثلاث ورباع ..

وشهد شارع الشيخ حدوده بحى الحسين نموذجا طيبا لزوجين طيبين . تخيم السعادة عليهما ولم تكن هذه السعادة الكاملة تخيم على الزوجين الا عندما توشك الزوجة أن تضع مولودا جديدا .. لأن الأسرة من جدود وأعمام وأخوال وعمات وخالات كانت تريد ولدا .. ولدا لا بنتا .

وتحقق أمل الأسرة ذات مرة تحقق اسما ولم يتحقق فعلا . أنجبت له الذكور ولكن لم تكتب لهم الحياة فكانوا يموتون في الأسبوع الأول من حياتهم القصيرة ..

وأيقن الرجل أنه أخطأ يوم هجر زوجته الأولى .. ويوم ثن — بعد أن تزوج غيرها — أنه يستطيع معاندة القدر .. انه في عنوان شبابه .. وفي تمام صحته ، ولديه المال .. انه يستطيع أن يتزوج متى يريد ، ويطلق متى يريد .. ولكن الزواج شيء وانجاب الأولاد شيء آخر ..

والتقى أحمد السلاح ؟

واستسلم للقدر وعندما خرجت القابلة من غرفة الزوجة لم يكن يريد ولدا على الاطلاق ، كان يريد بنتا ، كان يريد أى شيء بخفضه الله اياه .. بل كان يريد أن تجتاز زوجته محنة الوضع في سلامة وعافية وكانت المفاجأة لقد كان القادم الجديد ولدا .. ومضى الأسبوع الأول وصحة الطفل بخير ، وجاءت القابلة نريد منه أن يختار له اسما مناسباً فقال لها « من ننتى نسوية يا حاجة زينب بسكن ربنا يختاره بدل ما تمب قهنا ونجبل اسمه في دفتر المواليد » .

وقالت الحاجة : « كل حاجة ياسيدنا الشيخ بأمر ربنا » . وحاول الشيخ أحمد أن يتذكر اسما لم يطلقه على واحد من أبنائه الذين اختارهم الله الى جواره فلم يجد اسما واحدا .. لقد سمى من قبل : محمدا وأبا بكر ، وعثمان وعليها ، وإبراهيم و خليل و .. و .. واستخار الله في الاسم الجديد وأخرج المصحف وفتحها فاذا بالآية الكريمة التي جاءت على لسان سيدنا زكريا عليه السلام وهي قوله تعالى : « قال ربى انى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامراتى عاقر قال كذلك يفعل الله ما يشاء .. » واستقر رأيه على أن يطلق على المولود الجديد اسم « زكريا » ..

من مدرسة الشعب

ومضى الشهر الأول ولم يمت الطفل ، بل لم يمت في شهره الثاني ، أو شهره الثالث ، كما حدث بالنسبة لآخوته من قبل ، بل ومضى العام الأول والعام الثاني والعام الثالث والطفل في صحة جيدة وأخذت الطمأنينة تدخل قلب الرجل المجوز في استحياء ، وبدا - ولم يكن قد فعل ذلك من قبل - يفكر في مستقبل الطفل الجديد .

أرسله الى كتاب الشيخ « نكلة » القريب ، من منزله ، وطلب من الشيخ أن يسمح لابنه بالتردد على المنزل القريب من الكتاب بضع مرات ، واستنرب الشيخ نكلة هذا الطلب فان الآباء عندما يلحظون أولادهم بالكتاب ، يحذرون الشيخ أن يسمح لأولادهم بالزوغان والتردد على بيوتهم طوال اليوم ، وزادت الغرابة عندما قال الشيخ أحمد للشيخ نكلة « ان ابنى بحاجة الى أن يرضع بضع مرات في اليوم » وقال الشيخ نكلة ان الرضاعة اذا زادت عن عامين ، سبب النباء للطفل وانه لم يسمح من قبل عن طفل لئلا يرضع حتى الرابعة من عمره .. وأمر الشيخ على تحقيق طلبه .. لأنه لا يرغب في أن يحرم الولد من شيء يريده مهما يكن هذا الشيء .. لقد سبق هذا الطفل واحد وعشرون طفلا ، ماتوا

من قبل ، فهو يريد لهذا الطفل الحياة ولا يريد أن يموت وفي نفسه شيء .

واهتم الشيخ نكلة بالقادم الجديد ، الذي كان يحل كل يوم كميات غير قليلة من العلوى التركية اللذيذة ، التي تكون عادة من نصيب الشيخ نفسه ، أو من نصيب الشيخ منصور عريف الكتاب .. وأهم من ذلك كله ، فقد كان زكريا يحضر صباح كل سبت ومعه ثلاثة قروش صاغ ، يعطيها للشيخ نكلة في الوقت الذي لم يكن فيه أجر العصى يزيد عن تعريضة أو قرش واحد كل أسبوع .. أو كل شهر في كثير من الحالات .

وأعجب الشيخ نكلة بالطفل ، زكريا لأنه كان سريع الفهم ، كان يقرأ بسرعة ، ويكتب بسرعة ، ويحفظ ما يرواه له أن يحفظه بسرعة .. ولم يكن يضايق الشيخ نكلة منه إلا أنه كان كثير الهرب كثير السقاوة ، كثير الرغبة في معاكسة زملائه ، ومبغ وجوهم بالعبر الأحمر الذي كان يوجد بكثرة في الكتاب .. واكتشف زكريا أن بعض أولياء التلاميذ ، كانوا في بعض الأحيان يمسون في أذن الشيخ نكلة بكلمة لم يكن يفهم لها معنى ، ثم عرف معناها فيما بعد . كانت الكلمة « تفض لنا قروة الواد فلان يا سبدا » الشيخ « وكان معناها علقه ساخنة على « الفلقة » . ولم يكن زكريا يتصور يوما ما أنه هو نفسه سيكون ضحية تفض القروة .. فلقد اشترك في تهريب طليذ ، كان الشيخ « نكلة » قد قرر إعطائه علقه ، وكانت الفلقة من نصيب زكريا نفسه ..

وكان الشيخ منصور نظرا لأنه كيف يتحس رجله زكريا

في البداية ثم يضربه ، ضرباً مبرحاً « بالقرعة » التي هي من سقف
النخيل .. وصاح زكريا من شدة الضرب ، وصرخ وبكى غير أن
الشيخ منصور لم يتأثر لصراخه وبكائه ، فلم يتمالك زكريا قصه
من أن يميل على ذراع العريف ويعضها بقوة ..
وتم طرد زكريا من الكتاب .

وتم ادخاله الأزهر بعد أن أدى الامتحان ..

وكان الامتحان في الأزهر مسألة تقليدية لا يتجاوز بضع
دقائق .. يعطى بعدها الطالب شهادة النجاح وهي عبارة عن خيط
مختوم بالرماس يشده أحد خدام الأزهر حول ذراع الطالب
ولا ينزعه الا الطبيب الذي يتولى فحص جسمه ، وحقنه ضد
الجدري .. وبعد هذه الحقنة يقيد طالبا في الأزهر . وقضى الشيخ
زكريا ست سنوات من السادسة الى الثانية عشرة من عمره وتعلم
القراءة والكتابة وأخذ نصيبه من العلم .. كما أكمل حفظ القرآن
وكانت دروس الفقه والنحو والصرف تدرس اذ ذاك في أروقة
الأزهر ..

وقد جرت عادة الأزهرين وقتئذ أن يحتفل الطلاب والمنابر
بانجاز قراءة كل كتاب من كتب التدريس وكان الاحتفال يجري
على الصورة التالية : يجلس التلاميذ في حلقة مستديرة ، ثم ينتخب
من بينهم تلميذ مشهود له باتقان تلاوة القرآن ومعروف بمذوبة
صوته ، فيقرأ لهم بعض ما تيسر من القرآن ونختتم بذلك العظيمة .
وكان الشيخ زكريا هو المبرز دائما في هذه الحفلات فكم من
مرات عديدة قرأ العشر وترنم في تلاوته فكان يتزعم اعجاب

التلاميذ والمشايع ، وكان هو يبط نفسه على ذلك الفخر فانتصت
الناس الى تلاوته واطراؤهم لصوته ، كان يسرى في كيانه كالسحر
وكان بعض أساتذته ، وزملائه الكبار يشجونه بكلمات رقيقة
تحفزه على المضي في هوايته وكانوا يقولون له دائما على سبيل
التشجيع « عال ياشيخ زكريا ، بكره ، تبقى من الفقهاء المشهورين
ونجيبك في ليلة مولد الحسين » فكان يفرح حين ينعثونه بالشيخ
وحين يتباؤن له بالشهرة ..

وفي الأزهر ، كان يفتال بقطانه الشاهي وجبته الخضراء
الزاهية وعبامته الأنيقة .. تماما كما كان يفعل والده .. وفي الأزهر
عرف الكثير من أبناء الذوات الذين كانوا يدرسون في الأزهر
وقتئذ لا حبا في طلب العلم ولكن رغبة في التبرك ، ولذلك كان
الكثيرون من هؤلاء يدخلون الأزهر ولا يخرجون منه على
الاطلاق ..

وحفظ في الأزهر ، القراءات السبع ، وضايقه كثيرا وكثيرا
جدا رموز هذه القراءات . وحاول أكثر من مرة أن يملن الحرب
على هذه الرموز فلم يستطع .. وكان زكريا متفوقا في دراسته
وموضع ثناء أساتذته وكان في الوقت ذاته متفوقا في « شقاوته »
وموضع غضب أساتذته .

وتمود أحد المشايخ أن يضربه فوق عمامته ، اذا ما ارتكب
خطا ، والمعروف أن دبائيس الشال الذي يوضع فوق طربوش
العمامة ، تكون رءوسها الى أعلى ، وتكون أسنانها — أو أبرها
الى أسفل — فقلب الشيخ الوضع وجعل أبر الدبائيس الى أعلى

وردها الى أسفل فلما جاء الشيخ ليضربه بكفه على عمامته
سالت الدماء من يده بسبب ابر الدبابيس .

واكثر من مرة كان زكريا أحد يرتدى ملابسه الرسمية
ويجلس على قهوة التجارة ، حيث كان يلتقى هناك بكبار الموسيقيين
والمطربين ولم يعجب زملاءه طلبة الأزهر خروج زميلهم على
التقاليد فأرسلوا شكوى الى شيخ الأزهر الذى ثار وبعث لجنة
من الطلبة تطوف بالمقاهى تكتب أسماء طلبة الأزهر الذين يجلسون
هناك . وطافت اللجنة بالمقاهى حتى أتت الى مقهى التجارة .

وكان الشيخ يجلس وهو بجبته وعمامته هناك يتناول عشاءه
على المائدة ، ونظر أعضاء اللجنة الموقرة الى الطالب واستأذوا
بأنه من الشيطان الرجيم ، وخرجوا ليكتبوا تقريراً يتهمون به أنه
يجلس فى المقهى وأنه يأكل « البسطة » والعياذ بالله وأحيل
الشيخ الى مجلس تأديب متهماً بهاتين التهمتين الخطيرتين .. وفى
اليوم اتالى قرأ الطلبة القرار الذى قضى بأن يحرم الشيخ زكريا
من دخول الأزهر شهراً كاملاً وأن يحرم أيضاً من « الجراية »
عاماً كاملاً .. جزاءً وفاقاً على الاثم الذى ارتكبه .

والمرّة الأخيرة التى خرج فيها زكريا من الأزهر الى غير رجعة
كانت فى بداية عامه الثالث عشر بالأزهر .

كان أحد المشايخ فى حجرة الدرس يفسر لطلابه حديثاً جاء
فيه ، من أكل منكم لعم جزور فليتوضأ .. ووجد زكريا كل حرف
فى هذا الحديث مفهوماً ما عدا كلمة جزور فسأل زكريا شيخه عن

معناها فقال له وهو يستنكر جهله « جزور يا ولد معناها الجبل الصغير » .

وهنا قفز الى ذهنه سؤال آخر القاء على شيخه :
لماذا يتوضأ الانسان يا سيدنا الشيخ بعد اكل لحم الجزور
ولا يتوضأ بعد اكل لحم الجبل الكبير .. ??
وكانت ثورة اثم فيها زكريا احمد بأنه يمترض على الأحاديث
أو هكذا قيل وانهال الشيخ على زكريا سبا وشتا وضربا ..
ولم يحتل زكريا كل هذا فحب مقلدة من النحاس كانت أمام
الشيخ وسددها الى وجهه فسأل دمه ..
ودخل زكريا في ذلك اليوم القسم مقبوضا عليه بتهمة الاعتداء
على شيخ في الأزهر ..

وقرر زكريا ألا يدخل الأزهر وكان الأزهر قد قرر من قبل
ذلك ألا يدخله زكريا ..

وبدأ زكريا يفكر في مستقبله من زاوية جديدة .. لماذا لا يصبح
مقرئا للقرآن الكريم ?? لماذا لا يصبح مطربا .. ؟ ان موته جميل ،
كما سبق أن اعترف بذلك مشايخ الأزهر ، ثم ان الجو الذي
عاش فيه بالمنزل قد ساعده على ذلك .

الم يتعود سماع أبيه وهو يغنى دائما أغانيه القبلية العنيفة
التي تجعله هو شخصيا يهتز لقوة هذه المعالي : لقد كان والده
دائما يغنى ..

سهل الجبال دوم ونهش الجاف بنيابه
أهون عليك يا عين ، من اللي مفارج أحبابه

جمل النابة عض كفى واشتبك نابه
والعب بلده بميدة ، واشتبكنا به
جالوا غدا العيد ، انا جلت العيد لأصحابه
وايش يعمل العيد للى له حيب وبميد
يا طير خد منى الجواب فى الجبر واعلا به
لحد بلد الحباب ، حط به وارتاح ...
وان حد سالك وقالك الجواب ده منين
قله من اللى انفضى بالعب ولا نابه

وسأل والده ذات مرة عن معنى الجاف فقال له انه حيوان
صحراوى ، أما جمل النابة فهو جمل الفراق ..

ولم يكن والده هو الذى أثره فيه فقط بل ان والدته هى
الأخرى قد أثرت فيه من زوايا كثيرة فهم انسالة رقيقة تحب
الطرب ولكنها لا تقدر على الفناء أمام زوجها . انها تغنى بين حين
 وآخر اغانيها التركية الجميلة المشجية ، وان صوتها ليتسلل الى
قلب زكريا وهى تغنى حتى ليتفطر قلبه بسبب هذا الحزن الذى
تحتوى عليه أغاني والدته — انه لا يعرف من اللغة التركية حرفا
واحدا ولكنه يتأثر كل التأثر بصوت أمه العزين وأدائها المشجى .
وتسأل أكثر من مرة هل هناك من عيب اذا ما اشتغل مقرنا
أو مطربا ؟ ان والده يذهب كل يوم الى أصدقائه المقرئين ، والى
أصدقائه المطربين فيستمع اليهم .. ويسهر واباهم وانه ليذهب مع
أبيه الى حفلات الطرب والقراءة أكثر من مرة ، ووالده لا يجد
غضاة فى بقائه فى هذه الحفلات .. لماذا ينتظر أن يذهب مع أبيه

الى المقرئين .. ٢٢ والمطربين .. ٢٢ لماذا لا يذهب وحده الى حفلات
الطرب ..

وبدا يدخل كل مرادق فيه غناء ، صحيح انه ليس بيده تذاكر
دعوة وحفلات الأفراح دائما بتذاكر ؟ لكنه صغير فليتلل من
تحت قماش المرادق .. وليجلس تحت « الدكة » التي يجلس
فوقها المطرب والموسيقيون .. ولكن هذه الطريقة تؤلمه كثيرا انهم
يمسقون كثيرا ، ويحى البصاق على وجهه ويديه وجسمه ..
وانهم ليقذفون بأعقاب السجائر فتلتقها ملابسه .. ٢٢ وانهم
وخاصة صفار المطربين والآلاتية ليذهبون الى الحفلات ومعهم
زجاجات الشراب يخفونها داخل ملابهم القففاضة . ويشربونها
خلسة ويرمون الفوارغ تحت التخت .. هذه الفوارغ كثيرا ما آلمته
لأنها كانت تنزل على رأسه .. ولكنه يحب الفن .

ومن أجل الورد يجب أن يتحمل الشوك . وتحمل زكريا
الاشواك بعسر وجلد . بل تآهب ، ليتحمل أكثر من الاشواك ..
ووقع في يده كتاب اسمه « مفرح الجنس اللطيف وصور
مشاهير الراقصين » وكان قد جمعه محمود حسدى البولاقى
الآلاتى ، وأتم طبعه عام ١٩٠٤ ، ووجد زكريا نفسه لا ينام دون
أن يقرأ هذا الكتاب كله ، ويحفظ بعض ما فيه .. وبدأ يستحسن
ذاكرته التي ظهر أنها من نوع خاص .. انه يسمع الأغنية للمرة
الأولى ، فتعلق بذهنه فوراً ولا تطير أبدا .. ويسمع الدرس فى
الجغرافيا أو التاريخ أو الفقه ، فلا يعلق بذهنه منه شيء .. ويقرأ

الأغنية أو الموال مرة واحدة .. نعم مرة واحدة فإذا بذاكرته تكون كالأسطوانة ، تنقلها كما هي ، بدون زيادة أو نقص ، وكثيرا ما كان يجلس الساعات تلو الساعات يحفظ صفحة واحدة . فلا يستطيع ، لأن السطر الثاني ينسبه السطر الأول والثالث ينسبه السطر الثاني وهكذا ، وكان غريبا من زكريا وهو الذي لم يتجاوز بعد الثالثة عشرة من عمره ، طريقة اخفائه للكتب الجديدة التي يشتريها فقد كان يضع لها أغلفة دينية أو لغوية . وقد وضع غلاف القية ابن مالك على كتاب مفرح الجنس اللطيف . وعندما سأله والده ذات ليلة عما يستذكر قال له « في القية ابن مالك .. حتى شوف يا بابا ؟! ولم يكلف الوالد نفسه عناء البحث عن القية ابن مالك ، والا لاكتشف أن ابنه لم يكن يستذكر الألفية وإنما كان يحفظ أغاني الحب والغرام ، وهي التي لا مجال لمقارنتها بأغاني اليوم ..

كانت افتتاحية الكتاب الذي كان له الأثر الأول في نفس زكريا « الحمد لله ، الكريم الحليم ، غافر الزلات الرهوف الرحيم والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد فهذا مفرح الجنس اللطيف ، في أغاني الستات خاصة مصرى وشامى » ومن نماذج هذه الأغاني :

الحنة يا الحنة يا قطر الندى

شباك حبيبي جلاب الهوى

يا خوفي من أمك لا تدور عليك

لا حطك في شمري واضرر عليك

وان جاتنى امك وتسال عليك
 لا حطك فى حاجبى واتغطط عليك
 يا خوفي من امك لا تسال عليك
 لا حطك فى عيني واتكحل عليك
 وان جاتنى امك وتسال عليك
 لا حطك فى بقى واطبق عليك
 وان .. الخ اجزاء الجسم ما ظهر منه وما خفى .. 27



وكان الكتاب يحتوى على سور للسنة شقيقة القبطية ،
 والسنة نظيرة المهندسة الاسكندرانية والسنة بديمة المعرية
 والسنة تحية الاسكندرانية وغيرهن وغيرهن من شهرات
 الرافصات فى البلاد وقتئذ ..

وقد استطاع زكريا ان يحفظ الكتاب كله فى ثلاث ليال فقط ..
 وبدأ يبحث عن كتب اخرى لولا ان والده قد اكتشف الخديعة ،
 وعرف ما وراء هذه الكتب الكريمة وكانت علقه .. علقه جعلته ،
 لا يستطيع ان يخرج من البيت ثلاثة ايام ..

وكان اصرارا عجيبا من والد زكريا على اجباره على ادخاله
 مدرسة .. اى مدرسة لانه لا يريد ان يكون ابنه « شوارعيا » .
 فالحق بمدرسة ماهر باشا فى جهة القلعة وكان الطلبة يرتدون
 فى هذه المدرسة العصامة .. ونهب الى المدرسة حيث قضى بها يوما
 واحدا ثم عاد الى منزله فى نهاية هذا اليوم مطرودا .
 وكان سبب خروجه منها افراطه فى الفناء سواء فى الفصل أو

في وقت التسعة أو في وقت الغداء وكان تلاميذها يتجمعون حوله ويستجمعون إلى ما ينبغي .. واستشاط الناظر غضبا لأنه عطل الدراسة ولم يسه إلا أن استدعى والده وكتبه باستصحاب ابنه إلى خارج المدرسة لأن ابنه — كما قال الناظر — ولد مجنون بالفناء ولا يصلح للتعليم مطلقا وأفضل له أن يلحقه بتخت من أن يلحقه بمدرسة .

وكان ذلك صدمة عنيفة لوالده زادت من حنقه على ابنه فضربه علة لا يمكن نسيانها .. وكانت كل عصا نهبط على جسده يشفعها بطلب اقرار منه ألا يعود إلى الفناء مرة أخرى واضطر الابن إلى الاعتراف فكف والده عن الضرب ثم شفع له عند الناظر، راجيا منه أن يقبله في المدرسة مرة ثانية .

وعاد زكريا إلى مدرسته ولكنه عاد إلى الفناء مرة أخرى وتكررت عملية الطرد .. كما تكررت عملية الضرب .. وكان زكريا يقول لأبيه دائما : « أعل ايه .. المدرسين بتوعى هم اللي عاوزينى أغنى » .. فإذا ما سأل والده المدرسين أنكروا ذلك .. وعندما سأل والد زكريا ابنه عن تعليه لهذا الانكار قال : « أصلهم خايفين من الناظر » .

واقتل زكريا إلى مدرسة أخرى في شارع العزواوى اسمها مدرسة الحياى يوسف وحدث له فيها ما حدث في المدرسة الأولى من طرد ، وضرب بسبب الفناء .. ولحار الوالد ماذا يفعل في ابنه هذا الذى لا يكف عن الفناء .

وطلق زكريا — للمرة الأولى — الصامة والجبة والتفطان .

ولبس الطربوش والبدلة والتحق بمدرسة خليل أغا .. غير أن مادة الغناء كانت قد تاصلت في نفسه فأبى إلا الاستمرار في الغناء وكان أن فصل من مدرسة خليل أغا نهائيا بسبب إصراره على الغناء .. وكان التوفونوغراف قد اخترع في ذلك الحين فأصبح شغله الشاغل ونسيت المفضلة فلذا توفر له بعض المال سعى إلى رجل يتجول في الشوارع فنفعه بضعة مليات ليسمح المرحوم سليمان أبو داود المطرب بشحبه بدور « أنا الغرام أنت » ، « أو في البعد ياما كنت أنوح » ، « وجددي ياتقى حظك » ، وغيرها من الأدوار التي يحفظها الشيخ عند سماعها للمرة الأولى والتي كانت تبث في نفسه البهجة في كل مرة يدور فيها التوفونوغراف وفي أحيان كثيرة كان يدور في الشوارع مع صاحب التوفونوغراف ، ليسمع أكبر قدر من الأغاني حتى لقد عرفه صاحب التوفونوغراف وأعجب به وصار يسمعه بعض الأغاني مجانا عندما لا يزحم حوله وحول فونوغرافه الزبائن ..



وازدادت قسوة الشيخ أحمد على ابنه زكريا بسبب فشله الذريع في الدراسة وكانت هذه القسوة تستهدف المصلحة غير أن زكريا أساء تأويلها بسبب قلة ادراكه وكرهه الحياة .. وتبرم زكريا وخرج من المنزل لا يلوى على شيء وهام على وجهه في الشوارع والطرق ذات ليلة .. ولما كان لا يملك شيئا يمكن أن يدفعه لكراء مبيت ليلة في فندق متواضع ، أو يمكن أن يشتري رغيفا يقتات به فقد مضى من الليل أكثره وهو مجهد الأعصاب

من أثر تجواله الطويل في شوارع العاصمة وأزقتها .. وما زال
يشي دون هدف باحثا عن مأوى .. الى أن وجد منزلا قديما
قد أخرج بابه قليلا فدفعه .. ودخل حيث قضى بقية ليلته على هذه
الصورة وتكرر ميته هكذا ثلاث ليال أخر ، شعر بملها بالتعب
والآلم فمن له خاطر رأى تنفيذه على القور وهو أن يذهب الى
أقاربه .. ويقضى عند كل واحد منهم ليلة ، ثم يرحل البيت في
الصباح الباكر حتى لا يدهمه أجره في إحدى جولاته باحثا عنه ،
وبالرغم من تشرده هذا فقد كان يتسم أخبار الأفراح واللبالي
الملاح وكانت كثيرة في ذلك الوقت فكان ينشأها حيث يقضى
سهرته ويستمتع بالسمع الى الأغاني والمكاهات .

وكانت تلك الأيام أقسى ما مر بـ زكريا أحمد فضيقت ذات يده ،
وابتاعه عن أبيه وأمه .. سببا له أزمة تسمية قاسية وبالرغم من
تلك الأزمة فقد متع نفسه بما يحب أن تتمتع به من حفلات
وسهرات ..

وكانت الفكرة التي تهض مضجعه قلق والدته ووالدته علب
وجعنها عنه في كل مكان ...

وفي ذات يوم بينما كان زكريا في طريقه يتسكع في أحد
الشوارع قابل والده وجها لوجه ..

وكانت مفاجأة لزكريا لم يكن يتوقعها وابتهج الشيخ أحمد
وصاح صيحة الفرح وراح يقبل ابنه قبلات حارة ثم اتجه به الى
المنزل ...

وخشى زكريا أن يضربه والده اذا ما عاد به الى المنزل وظن أن

كل ما فعله في الطريق من ترحيب وقلبات كان بشابة اغراء له واستدراج للذهاب الى البيت ليستطيع الانتقام منه وانهز فرصة ازدحام الطريق واقلت من يد والده ، وزاغ بين المارة .. وتوجه اول ما اتجه الى ذلك المنزل المهجور ليتوارى فيه .. ولما كان متعبا فقد قرر ألا يبارح مكانه على الاطلاق حتى لا يقع في قبضة أيه مرة أخرى وجلس في ركن من اركان المنزل المهجور حزينا مهموما يفكر فيما آلت اليه حاله التهمة وكيف أصبح مشردا في الشوارع والطرقاات ...

ورأى أن حاله تزداد كل يوم سوءا على سوء .. ففكر مرة أخرى في والده ووالدته والحزن الذي سيطر عليهما بعد غيابه وهربه ، وبينما هو يفكر في ذلك كله اذ به يرى شبحا يظهر فجأة أمامه .

وصرخ زكريا بكل ما يملك من قوة ووضع يديه على عينيه حتى يتجنب رؤية الشبح .

وفوجيء الشبح القادم بصراخ زكريا أحمد ، وخشى أن تتجمع المارة حوله فتقدم من زكريا وخاطبه بلهجة ودية للنفاية .. وقال له : « انه انسان غريب لا مأوى له ، يريد أن ينام في هذا المكان » .. ولم يطمئن زكريا أحمد لهذا الكلام وأحس بأن في الأمر مؤامرة ، لخطفه والذهاب به الى بيت والده ، وحاول الهرب ولكنه لم يستطع لأن الشبح اعترض طريقه .. وراح زكريا يقسم بأغلظ الايمان أنه لا يملك شيئا ، والشبح يؤكد له ، انه لا يريد مالا وانما يريد أن يستأنس بوجوده في هذا المكان الموحش ، فقال

له زكريا : « انت غور تفحكك على هو معقول واحد كبير زيك ،
بخاف من مكان زي ده .. دانا يالمى له صغير : نمت فيه كذا
ايه » وفجأة سكت زكريا عن الكلام واستجمع شجاعته انخائرة .
واندفع الى الشارع يمدو بستمى السرعة وكان كلما خلا خطوه
الى الامام خيل اليه ان الشبح يسبقه بغطونين . فجمع اطراف
جلبابه ووضعها في فمه ثم خلع حذاءه ، وتركه في الشارع وانطلق
يمدو كالريح .

وفجأة دهنته سيارة مسرعة كانت تسير في الشارع واقتنه
على الارض ولم يمد زكريا يمين شينا ما حونه ..
واقاق في صبيحة اليوم التالي ، ايجد نفسه في يته ، وى
لرائشه وضادات كثيرة تغطي راسه ، ومن حوله والده ووالدته
وبعض اهله ينظرون اليه نظراب كما عطف وحب وحنان ..
واتهمز زكريا أحد فرسة اصابته في حادثة السيارة ، واشفاق
اهله عليه ، فصارح والده بكل ما تطرى عليه نفسه من أحاسيس ..
قال لوالده اننى لا اريد ان ادخل اية مدرسة .. اريد ان اكون
مفرنا للقرآن .. اريد ان اكون منسدا للسيرة النبوية .. ورفض
الوالد الطلب .. بل رفض مناقشة هذا الطلب وأعلن الأحكام
العرفية في البيت ثم اغضب زوجته — أم زكريا — وأخرجها من
البيت لمعقلها على زكريا : وتزوج بأخرى ..

واستطاعت الزوجة الجديدة أن تجعل البيت جحيما لا يطلق
ونجعت في أن تزيد حد الوالد على ولده فعال بينه وبين دخول
مليم واحد الى جيه .. وأصدر تعليماته الى اقاربه ومعارفه

بضرورة مخاصمة زكريا وعدم مد يد المعونة اليه حتى ولو كانت المعونة ثمنا لدواء ضرورى أو ثمنا لرغيف هو فى أئند الحاجة اليه .. ثم رجا أصدقاءه من هواة الفن ومحترفيه أن يوسدوا أبوابهم فى وجه زكريا وأن يحولوا بينهم وبينه ، فلا يسحون له بحضور حفلات أو ندوات أو اجتماعات وقال للجميع بصريح العبارة « اللى عاوز يخدمنى يقفل بابه فى وش ابنى .. ابنى اللى هو من ابنى .. » .

ولكن زكريا لم يتراجع ولم يرفع الراية البيضاء ، ولم يفكر مجرد تمكيد فى أن يهرب من الميدان الذى اختاره ، وإذا كانت الأبواب قد أغلقت دونه فقد بقيت التوافذ ، وإذا كانت التوافذ قد أغلقت فإن الأمل ما زال قائما فى عقب الباب .

وإذا كان هناك من يستجيب للمعوة الشيخ أحمد . فإن هناك من سيرفض الاستجابة لها ، خوفا على الطفل من الجوع ، والتشرد — كما أن هناك من سيأخذ بيد الابن الصغير ، الذى لا حول له ولا قوة والذى لم يقترف اثما أو ذبا .. 77

وعاد زكريا يفكر فى زاوية جديدة . لماذا لا يمقد صلحا مع والده وذهب اليه ، وتحادث معه ، كما يتحدث الصديق الى صديقه .. قال لوالده : لقد بذلت المستحيل من أجل أن تخلق منى عالما فى الأزهر ، سلطت على أسانذتى .. حاصرتنى فى البيت .. وفى الشارع .. حاولت أن تحول بينى وبين الاماكن التى تموت ان أغشاها كل ليلة ، بذلت لى الوعود المغرية ، قدمت لى المال الوفير ولم ينفع ذلك كله .. أهتنتى واحتقرتنى وضربتنى عشرات المرات

ضربا مبرحا في البيت وفي الشارع .. أمام زملائي من طلبة الأزهر
ومن طلبة مدرسة خليل أنطا .. وأمام جيراني ، ورفاقي في الحارة
وأقاربي .. ولم ينفع ذلك كله ، وأجبرتني على أن أجوع وأنعري ،
واقضى أياما وليالي في المراء ، بلا غذاء ولا كساء ولا غطاء ..
ومع ذلك كله لم أضعف ، ولن أضعف . ولم أتراجع ، ولن
أتراجع .. ولن أتخلى أبدا — مهما بذلت — عن تلبية نداء أحس به
يهتف دواما في قلبي .. في كل وقت ، وفي كل حين .. اتى لا أحب
أن أعصى لك أمرا .. ولكنني أريد أن أكون فنانا ..

وقال الأب ، وقلبه يتقطع أسى وحسرة على ابنه الذي ينحرف
في طريق وعرة لا أمان فيه : « يا ابني ان التز لا يوكل عينا ..
وعبدك الحامولي سلطان الطرب مات ولم يترك لولده ما يتعلم به ،
فكفله أحد أصدقائه .. ومحمد عثمان سيد من غنى وسيد من لحن ،
وسيد من أحيا حفلات الطرب . لم يجد أهله في بيته ساعة موته
لكاليف الجنائزة التي ستقله الى دنيا الخلود .. ومحمد سالم
المعجوز عاش أكثر من مائة عام ، الدنيا تصفق له ، والذهب
يجرى بين يديه ، ولم يتمكن في بعض الاحيان من أن يمتلك ثمن
الدواء وقد لا يتجاوز هذا الثمن بضعة قروش .. »

وقال الشيخ أحمد صقر مرزيبان : « ان الحاج أحمد
عبد الموجود تاجر اللب في الحمزاوي قد خلف من وراءه
قراطين اللب مالم يخلفه عبده الحامولي ، والمظ ، ومحمد عثمان
ومحمد سالم المعجوز ، والششموني ومحمد السبع مجتمعين ..
والمعلم حسونة المريجى ، الذي لا يملك الا عربة حنطور واحدة

بملك ما لا يملكه أمين عطاقة ، وسلامة حجازي ، وانقر داحي وعشرات من أمثالهم من يتربعون على عرش المسرح والقنا .. » . وقال زكريا . « ان المطرب عبده الحامولي ، قد تغلب بفنه ، على الخديوي اسماعيل بسلطانه ، والمظ لم تكن تسير في الشارع الا بموكب رسمي ، اكبر واضخم من موكب زوجة الخديوي وساكنة — استاذة المظ — كانت الأميرة النارية تطلق لها في كل مكان .. كما ان المحطات تزين ابتهاجا بمقدمها .. »

وعندما قال له والده : « بقى يا بنى موش عيب تبقى من عيلة مرزبان ، وتطلع من بتوع ياليل يا عين » .. واحتد زكريا لأول مرة على والده وقال له :

« منى أحسن من اللى بيعيشوا مالهومشى شغلة ولا مشغلة » واقطعت المفاوضات بين زكريا أحمد وبين أبيه فترة طويلة من الوقت .

ثم تجددت المفاوضات مرة أخرى . وأرسل زكريا وفدا لمقابلة والده وكان لكل واحد من أعضاء الوفد مكانة ممتازة لديه ..

وبذل الوسطاء جهدا كبيرا في سبيل اقناع والده وقالوا له ان القراءة مهنة محترمة وأن السهر خارج المنزل يكسب زكريا خبرة فنية ، وستعود اذنه على السماع ، وسياسهم في توسيع مداركه .. فرفض الشيخ أن يناقش الموضوع .. وكرر الوسطاء الرجاء .. وكرر الشيخ أحمد الرفض ..

ثم ذهب الوفد مرة أخرى وقد قرر أعضاءه معارضة الشيخ

بكل شيء .. ان مصلحة زكريا أن يحقق الشيء الذي يريده وخير
للشيخ أحمد أن يعمل ابنه مقرئاً من أن يستغل زماراً أو طبالاً ..
وخير لهما أن يأخذ الوالد بيد ابنه .. من أن يتركه يتصرف كما يبلو
عليه عقله الطائش « وإذا كبر ابنك خاويه » ، وإذا ، وإذا .. »
وبدا على الشيخ أنه اقتنع .. وكان الاتفاق ..



وانطلق زكريا أحمد بكل ما في قوته ، يفتش الأندية
والمجتمعات ، والصالونات ، وتردد على صالات الرقص والفناء ،
والمقاهي ، والملاهي ، ويتنعم كل مكان يشم فيه رائحة التبن كما
أخذ يحضر الندوات ، والاحتفالات والأفراح ، وكان في هذه
الفترة — السنوات السابقة للعرب العالية الأولى — مشغولاً
بأن يعرف كل شيء .. ويقرأ كل شيء ، ويحرص على أن يتعرف
على الكثيرين ، ويتقرب — مع احتفائه بكرامته — الى الكثيرين ،
ويستفيد قدر استطاعته من تجارب الكثيرين فكانت هذه الفترة
بحق — فترة نضج جسماني وعقلي وفني — واستفاد زكريا كثيراً
من ظروف البلاد الاجتماعية والفنية والسياسية ، إذ كانت الحركة
الوطنية التي بعثها مصطفى كامل في مطلع القرن العشرين قد بدأت
تؤتي ثمارها وكان انتصار الشعب في كل المارك التي خاضها ضد
قوات الاحتلال والقضيحة الكبرى التي لحقت السياسة الاستعمارية
البريطانية بسبب مأساة دنشواي كما كانت اقالة اللورد كرومر
الحاكم البريطاني لمصر وطرده شر طرده وانكشاف أمر من تولى
الأمر مكانه ومن والاه ، ووالى السياسة الاستعمارية من

الياسين ، كان ذلك كله من أهم أسباب انطلاق الشعب في كثير من الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفنية ، وكانت وفاة مصطفى كامل ، والثورة الوطنية التي أعقبتها ، والقاء أعباء الزعامة الوطنية على كنفى فريد ، وانشاء نقابات العمال ومدارس الشعب الليلية ومظاهرات الشعب من أجل الدستور ، وانشاء الجامعة ولادى المدارس العليا ، ورفض مد لعتياز قناة السويس ، ثم كانت محاكمات الصحف الوطنية ، ومحاكمة الشاعر على الغاياني ، وسجنه ، وسجن محمد فريد ، وعبد العزيز جاويز وغيرهم من أقطاب الوطنية واحتفاء الشعب بالمناسبات الوطنية والدينية والفنية ، كل ذلك كان له آثاره الفعلية في نهضة الفنون والآداب التي بدأت تأخذ طابعا جديدا مع بداية القرن العشرين ..

وكانت نهضة التمثيل أبرز صور الانطلاقة الفنية .. حيث تمددت المسارح كما تعددت الفرق الفنية الكبرى التي أنشأها سليم النقاش ، ويوسف خياط وسليمان القرداحي والقباني واسكندر فرح وسلامة حجازي وجورج أبيض .. ثم الفرق الفنية الصغيرة ، مثل الجوق الدمشقي لنقولا مصابني وكان يقدم المسرحيات الهزلية والفناء والرقص السوري ، وشركة التمثيل الأدبي لسليم وأمين عطا الله ، والجوق السوري الجديد ومجتمع التمثيل العربي وفرقة عزيز عيد والجوق المصري العربي للشيخ أحمد الشامي .. وإلى جانب ذلك كله نشاط فني رائع للمرأة الذين اتفوا فرقا عديدة كان لها أثر كبير ، على نهضة الفن مثل جمعية معبي للتمثيل ، وممثل الهلال الأدبي والمجتمع الأخرى

التشيلي ، وجمعية زرقى التشيل العربى ، وجمعية التشيل الوطنى ،
 ثم جمعية أنصار التشيل .. وكان غاية الجمعية الأخيرة ارساء قواعد
 الفن الصحيح ، وتنقيف الشعب عن طريق المسرحيات الموضوعه
 التى تدور حول فكرة خاصة تهتم الجمهور .. وتعتبر عن بعض
 أحاسيه أو تحل طرفا من مشكلاته ، وكان أول اجتماع ..
 للجمعية فى أواخر عام ١٩١٢ .. وكان لبعض المدارس ، والجمعيات
 والنوادي فرقها التشيلية التى لعبت دورا لا بأس به فى ميدان
 المسرح ، وقد تجرأ بعض طلبة الأزهر ، فتقدموا ببعض التشيليات
 وكانت لهضة أخرى للنقد الفنى الذى بدأ يلعب دوره ، فمثلا كتب
 خليل زينة صاحب مجلة المصور القديمة (٢ مارس ١٩٠٦) :
 « لمر الحق ان التشيل العربى مصاب بأفات عديدة لكن أشدها
 الصحافة والممثل الذى يقول له وانت حامل القلم والنائب فى القول
 عن رأى العام ان التشيل قد قال منك ما نستهى يحسب نفسه قد
 بلغ أقصى درجات الكمال فيقف عند هذا الحد واذا لم يكن بارعا
 فى فنه فان القائل له قبل ذلك القول قد أضر به الى أبعد ما
 يتصوره العقل وذلك كان شأن الشيخ سلامة حجازى فان المصنف
 نعتت اليه فخدعته وأضرت به من حيث شامت له أن تنفعه
 وما عدا ذلك فانه يظهر أيضا الشيخ الكل فى كل آن على رخامة
 صوته وذلك ، فى عرفنا مما أضر بفن التشيل وأوقف سيره .. » .
 وكتب محمد كامل البتندارى — سفيرنا السابق فى موسكو —
 بالجريدة فى أبريل ١٩١٣ ، مقالا عن « رواية مصر الجديدة » ...
 قال فيه : « مصر الجديدة لمولفها فرح انطون ، هى أول رواية

اقتزعت من حالتنا الحاضرة ومثلت على مسرحنا الحديث ، فقد
 مكثنا زمنا طويلا ونحن لا نشاهد الا الروايات المنقولة ، عن الكتاب
 الغربيين قلا لفظيا في معظمها وكانت تيجتها ان بقيت تلك
 الروايات رغم ترجمتها الى العربية ، غريبة صرفة لا تتآلف مع
 اذواقنا الشرقية المصرية ولا تنال من قلوبنا لانها انما وضعت
 لجمهور يختلف عنا في الافكار والأخلاق والعادات والميول النفسية ،
 فكان لجمهورنا المذر اذا لم يقبل على مشاهدتها ، وبالتالي انصرف
 عن التثليل .. أجل تلك هي حال معظم الروايات التي ترجمت وقد
 قابلها الجمهور بفتور وامراض « .. وقد لخص الأستاذ البنداري
 الرواية وأبدى ملاحظاته وقدمه عليها ورد فرح أنطون بقوله :
 « لخص حضرة بنداري أفندي رواية مصر الجديدة وتكلم عنها من
 جهة الفن ، ولقد لها قدرا يدل على رغبته في الانصاف ولكن بنداري
 أفندي وقع في الخطأ الذي وقع فيه غيره فقد جعل الرواية قاصرة
 على حادث حب البطل والبطلة وبنى على رأيه هذا خلو الرواية من
 الوحدة وفاته أن حادثة الغرام هذه انما هي وجه من وجوه الرواية
 الحقيقية المراد بسطها لدى الجمهور أعني حالة مصر القديمة ومصر
 الجديدة .. والذي أوقع حضرة الكاتب في ذلك الخطأ أنه قاس
 رواية مصر الجديدة على الرواية المعروفة بالدرام مع ان « مصر
 الجديدة » ، هي من النوع المعروف « بالليودرام » .. ومن
 مزايا هذا النوع تعدد مواضيعه وتنوعها كما هو مشهور .. « .
 وكبت مجلة الزهور (أكتوبر ١٩١١) تحت عنوان : « الجوق
 العربي : مديره عبد الله عكاشة ، وقد جمع واخواته الى رخامة

الصوت حسن الاستعداد وواضح رواياته الياس فياض والكتاب المعروف بالرقّة والطلاقة ومشرح تشيله التيانرو المصرى ، وقد البس حلة جديدة بإدارة صاحبه اسكندر فرح وأعضاؤه أفراد جوق الشيخ سلامة وهو أحسن جوق عرفناه وتممهد ملايه كبرتى متمهد ملابى الأوبرا الغرية » ..

« ونحن لا نقول أن الجوق قد بلغ آخر مراحل الكمال فهذا ما لا يرضاه مديره الأديب ولكننا نشهد أنه باذل همه تشكر في سبيل ارضاء الفن وحق القيام بشروطه ولا جدال في أنه قد خطا خطوة واسعة في ترقية التثيل المربى . ولذلك فنحن نصفق له كما صفق له الذين حضروا لياليه في القطرين المصرى والسورى ، ولا بد من تسديد بعض الأشواك الى مرتادى مسارحنا الغرية يذهب الواحد منا الى التيانرو الإفرنجى كالأوبرا أو برتانيا مثلاً فلا يجيز لنفسه العضور بغير ملايه الرئيسة السوداء فيجلس كما يشاء الأديب ولا يدخن إلا في المحل الممد للتخين حتى ترى فيه الجتلمان الكامل وأما اذا رأيت هذا الشخص ذاته في تيانرو الشيخ سلامة أو التيانرو المصرى وهما لا يبعدان عن الأوبرا وبرتانيا إلا بضع مئات من الخطوات فانك تعرفه وقد جلس ومد رجله على كرسى جاره وأولع سيجارته بالرغم من الحروف المرقومة على الجدران « ممنوع التخين » أو شغل بقرقرة اللب بل تسمعه يقهقه ضحكا في أشد المشاهد تأثيرا حتى يضابق بعض الممثلين قالى متى نحن نعتمر أحسننا وما دمنا كذلك فكيف نطلب من الأجانب أن يحترمونا .. » .



« ولما قوى اثر التمثيل تدخلت الحكومة في حرية التمثيل
فمنعت تمثيل الروايات التي ورد فيها لفظ الحرية والاستقلال ،
كما منعت اخراج بعض الروايات التمثيلية ، ووضعت لائحة
للمسارح هي انبث اللوائح بقانون المطبوعات القديم (١) وكانت
لائحة المسرح تنص في المادة الأولى على ان يوضع المسرح تحت
رقابة السلطات المحلية ابا كان مالكة وكل من يضمن تمثيله
أو حوار له شيئاً ، مما يمس الاحترام الواجب اداؤه للجمهور
يحاكم ويوضع في السجن عقب انتهاء التمثيل مباشرة وفي المادة
الرابعة يمنح الصغير ، واحداث الأصوات بالمعنى أو الأرجل
والتنوش منعا باتا ويطرد المخالفون الى الخارج وفي المادة
السادسة ينهى أن يتخذ ثمانية من الجنود و « شاربش » مراكزهم
داخل المسرح ، لتنفيذ الأوامر التي يصدرها مدير الشرطة وبالرغم
من ذلك كله ، فقد ازدهرت المسارح بالروايات المترجمة
والمؤلفة ومن الأخيرة رواية « مقاتل مصر أحمد عرابي » للأستاذ
المبادئ وأبطال الحرية للأستاذ أنطون الجميل وأرواح الأشرار
للأستاذ نيم الجاهل وكان في الروايات المؤلفة والمترجمة بعض
التصرف .. ففى رواية مولير يقول أحد أبطال الرواية :

قنيتى لا تفرغى وأبقى عزاء الشارين
ما ضر يا قنيتى لو لم تكونى تفرغين

(١) محمد فريد للأستاذ عبد الرحمن الرافعي .

وفي رواية أخرى لمولير « غرام وانتقام » يقول أحدهم :

اليوم جاء الرجا يا ضى فابتهجي

لا خير في الحب ان أبقى على المسج

أقضى بموتين ، موت في الغرام خلا

عندي وموت بحب المجد معتزج

فاخدم الوطن الاسمى واخدم من

أهوى ويا حسن موت فيه مزدوج

فان قلت فقد وفيت حقى فى

شرع الغرام ومونى موت مبتهج

وفي رواية المخدمين للكاتب محمد عثمان جلال يقول على

لسان المخدم :

لما دخل سيد البيت الشيخ امام

قدم بين الحلال من الحرام

ويقول استنجى وتوضأ وقوم صلى

وخللى للصلاة بدلة هودوم

، ان كان للخدمة أهى الغيبة هنا

واليرا هيا الحمد لله عندنا

وتروح للجامع تعيب ستين رغيف

لكن تنقيهم من العيش النضيف

وكل يوم تبيع لنا العيش القديم

ويكون معاك فى السوق عبد الشيخ سليم

يا لى نىء نسله لى بالمدد
 او مى يفتك حد فى السوق يا ولد
 طلق من الخدمة وكتر المرمطة
 والشيخ الآخر يحب المرمطة
 ويعف الغادم النصائح التى وجهها اليه المخدم فيقول :
 قال لى اذا أعطاك مخدمك فلوس
 ان كان ثمن للنسج أو حق الصانوس
 ولا عطالك تشتري لحمه وخضار
 ولا العليق اللى يجيه للحمار
 تربط على كيس القلوس اللى معك
 واوعى تقول حاجة لواحد يسمعك
 وان شيعورك فى البيت تجيب شيت أو حرير
 ان كان قليل اللى انطلب أو كثير
 اسمى على البقشيش من اللى رحت له
 لا بد يعطيك نىء لما تساله



وكان زكريا أحمد - يحضر كل ليلة هذه الروايات التى لم تكن
 واحدة منها تخلو من الأغاني وكان يحفظ أغانيها ، عن ظهر قلب ،
 وخاصة تلك التى كان يلقيها سلامة حجازى وكان سلامة حجازى
 يبدأ حفلاته بقصيدة مطلعها :

مرحبا بالسادة النجب سادة المرفان والأدب

ويختم هذه القصيدة بالبيت الآتي :

فلتض مصر ولهفتها وليحش تشيلنا الصربي

ولي كل مدينة أو قرية كانت تنتقل الفرقة إليها كانت تبدل

كلمة مصر باسم المدينة أو القرية التي يجري بها العمل .

وعندما مات مصطفى كامل امتنع الناس عن مشاهدة المسارح

أو الذهاب الى دور اللهو وفكر سلامة حجازي في أن يجذب

الجمهور ، فلحن قصيدة لأحمد شوقي في رثاء مصطفى كامل مطلعها:

المشرقان عليك يتحبان قاصيهما في مائتم والداني

وانشد الشيخ سلامة بصوته القصيدة ثم أغبها باحدى

رواياته ومثل على هذا المنوال ثلاثة أشهر كاملة .. وبذلك الحيلة

الظريفة استطاع أن يجذب الجمهور رغم حداده ، وقد سجل

هذه القصيدة بشركة أوديون وراجت رواجاً كبيراً وقد ذكر لى

زكريا أحمد ، أنه حفظ هذه القصيدة الطويلة في جلسة واحدة

وغناها لكثير من زملائه أكثر من مرة ..

ولم يكف زكريا أحمد ، يحفظ معظم الأغاني والقصائد

والعناطيق التي كانت تلقى في المسارح المهتمة بالتمثيل بل أخذ

يتردد على صالات الرقص « الالدارادو وكواكب الشرق ، ونزهة

النفس ، والف ليلة وليلة » ، وكانت هذه الصالات تخدم الرقص

والغناء والفكاهة ، وتعرف زكريا في تلك الأماكن بيده الكسارية

وأختها أسما .. والحاجة السورية ونزهة واللاوندية ، وعرف

مارى صوفان وميليان ديان ومريم ساط وأختها فيكتوريا ساط

والظ سناني وأختها ابريز سناني ، واستمع الى اليد قشطة

وأحمد القار ، وكامل المصرى ، وأبو رابه وأحمد شقَاتيرو وغيرهم
من أبطال الفكاهة .. وتعود كثيرا الجلوس فى مقهى كسكوت
بشارع المنهد العيىنى حيث كان يجلس الشيخ الشفطى ،
والشيخ حسن الطويل ، وسلطان بك محمد ، والشيخ محمد
النجار . وكانت مجالسهم الليلية فى هذا المقهى مجالس أدب
يتشادون فيها الشعر .

وكانت المساجلات بين حافظ ابراهيم ، ومطران تأخذ جانبا
كبيرا من احاديث القوم وأكثر من مرة طال الحديث عن الحب عند
مطران وخاصة قوله :

والحب ألزم للأرواح ما عظمت وقد يكون لها ادعى الى العظم
أو قول حافظ فى مطران :

قد سمعنا خليلكم فسمعنا شاعرا أقعد النهى واقاما
وطمنا فى شأوه فقمدا وكسرنا عن عجزنا الأقالما
نظم الشام وانعراق ومصرنا سلك آياته فكان الاماما
فمضى النثر خاضعا ومضى الله مر وألقى الى الخليل الزماما
فقمدا له اللوه علينا واحتفظنا نزيده اكراما

والمرة الأولى التى شهد زكريا سوق عكاظ ، يتفنى من
الغضب تلك المرة التى هاجم فيها سليم عبد الواحد فى مجلة
الزهور ، النحو والعرف ، عندما قال: « مكين زيد وعمرو فالهما
ما زالا منذ عهد سيويه يتضاربان (ويتراقضان) اكراما لسادتنا
النحاة فتارة يكون زيد ضاربا وأطوارا يكون مضروبا .. يبدأ
الأجنبى أجروميه بتصرف فعل أحب ، ويبدأ الشرقى أجروميه

تصرف فعل ضرب أو قتل .. ذلك يتمرن على الحب وهذا يتمرن
على الضرب والقتل .. رحم الله سيوبه ، فلو أنه أبدل فمسل
ضرب بفعل أحب أو غيره من الأفعال التي لا تضطر القارئ أن
يحمل دروعه وأسلحته !! ألم يكن في قاموس اللغة غير ذلك المثل
المسنوم » .. وفي نهاية المقال كانت الحاشية « بمزيد من السرور
وعظيم الابتهاج تنعى الى طلبة الصرف والنحو حضرة الشيخ
عمرو عدو زيد وجاره ونسيب قطويه انتقل من الدار القانية بعد
عمر قفاه ، في احتمال الضربات من عدوه زيد ، وقد أسلم الروح
فراح شهيد النعاة على اثر الجروح المميتة التي ضرب بها على
أم رأسه .. فانصرف مع أنه كان أعور والتمت جمعية الشفقة
على الحيوانات من عدوه زيد أن لا يلحق به الى دار الخلود
وسيجتفل بتشييع جنازته قطويه الى قبر سيوبه ليدفن معه
ونسريح عظامه المرضوضة .. وسينتفى على ضريحه : « ضرب
زيد عمرو » .

لقد انتهت المناقشة العادة بتهديد صاحب المقال ، واقترح
بعضهم أن يتجه بعض الشباب اليه لضربه . واغتالط زكريا ..
واقسم ألا يعود مرة أخرى الى قهوة كككوت ..

وانتقل الى قهوة متانيا الواقعة الى جانب البوستان والمحكمة
المختلطة وكانت بمثابة ناد لرجال القلم ، وفي هذا المكان تعرف
بالشيخ عبد القادر المغربي ، وعبد الحيد الزهراوى وامام العبد
والشيخ محمد الشربتلى ، وكان يعبر كل يوم أربع أو خمس
جرائد أسبوعية حيث كان يأتيه صاحب الصحيفة ويدفع اليه

خمين قرنا على الأكثر ليكتب له ثمانية مقالات أو تسعة تكفى
لأربع صفحات ، وأحيانا يدفع له صاحب الصحيفة جنيتها ، ليكتب
له مادة تزيد عن حاجة عددين من مجلته الأسبوعية أو جريدته
اليومية ..

ولم يكن يمر يوم دون أن يذهب الى بار « بريكلبي » أمام
مرح اسكندر أفندى فرح حيث كان هذا البار بمثابة خلية
فالشبح سلامة حجازى ، يلحن بعض أغانيه ، ومريم سباط تراجع
دورا لها . وفرح أنطون يكتب فصلا جديدا لرواية جديدة .. وفي
مكان آخر الياس فياض يستمع الى عبد الرازق عنابت ، أول من
ضحى فى سبيل المرح المصرى .. وهو يروى له أحدث مشروعاته ..
ولم يترك زكريا مكانا فيه رائحة القن الا قضى فيه أوقاتا
طويلة ولم يقع فى يده كتاب أو صحيفة فيها أى موضوع عن القن
الا قرأه بتمعن وفهم ..

وزكريا حين يتردد على هذه الأماكن لا يقصد الى تجميع
الوقت .. وإنما يرغب فى الدراسة والحفظ ، وأطلق عليه أصدقاؤه
— الملقاط — لأنه كان أسرع الناس حفظا وأثبتهم ذاكرة ولم يكذب
يكمل الثمانية عشرة من عمره حتى كان قاموسا حيا للفناء ، حفظ
كل ما وصل الى يده ..
ومن أول أغنية :

تعالى لى يابطة وأنا مالى هـ
وشلىلى الشنطة وأنا مالى هـ



الى أغنية :

شربت الصبر من بعد التصافى و مر الحال ما اعرفتش أجافى
ينيب النوم وافكارى توافى عدمت الوصل يا قلبى عليه
على عيني بماد العلوساعة ولكن للقضا سما وطاعة
دغرتى الروح فى الدنيا وداعة عدمت الوصل يا قلبى عليه
والأغنية الأخيرة غناها عبده الحامولى فى رثاء زوجته المظ ،
وكانت من أحب الأغاني الى زكريا أحمد ، وان كان يرفض دائما
غناها فى أية حفلة خاصة أو عامة لأنه ، ليس غاوى عكنة — كما
تعود أن يقول .

وكان زكريا قد استوعب الكثير من الأغاني والألحان
والقصص وأحس أنه بحاجة الى أن يخطو خطوة جديدة ..

بداية ما نحن

لم تكن حياة زكريا أحمد ، في هذه الفترة الطويلة هادئة ولا مستقرة ، ولا فاعلة فقد ماتت والدته ، ونزوح والده عقب الوفاة كما تزوج أكثر من مرة قبل الوفاة ، وكانت الزوجة الجديدة بالرغم من تظاهرها بالمعطف على زكريا نكيد له عند والده ، وتثيره عليه ، بسبب سهره كل ليلة الى الصباح ، خارج البيت ، وكان ما يخفف آلام زكريا أن الشيخ أحمد — والده — قد انتقل عنه الى حد كبير بعيانه الزوجية الجديدة ، وخاصة بعد أن عهد الى الشيخ درويش الحريري ، برعاية زكريا ونحيفته القرآن الكريم وتجويده حتى يصبح « صبيتا » يأكل عيشه بمرق جبينه .. ولم ينجح زكريا في انمام حفظ القرآن لأنه كان مشغولا بأشياء أخرى .. وبالرغم من أن الشيخ الحريري دفع بزكريا الى الشيخ سيد موسى خادم القصة النبوية ليعمل معه في فرقته الا أنه لم يبق في هذه الفرقة أكثر من بضعة أشهر عاد بعدها الى الشيخ الحريري .. ونجح زكريا في أن يحفظ بعض السور قراءة وتجويدا: وقال له الشيخ الحريري : « يمكنك الآن أن تسهر في بعض الحفلات والمآتم .. ويمكنك الآن أن تعتمد على نفسك » ..

وقد زكريا يبحث عن عمل الى أن وجد سهرة في رمضان

عند أحد الأعيان .. وقضى زكريا الشهر كله ، حتى صباح يوم
 العيد .. وعاد الى الشيخ درويش وقد ارتدى جبة وقمطانا
 وفي يده مبلغ لا بأس به من النقود .. وقال لأصحابه يتباهى : لقد
 أصبحت ميتا ولكن هذه المهنة الجديدة لم تبعده عن حياة الليل ،
 التي انغمس فيها وقد ظل زكريا يقود الشيخ درويش الحرري ،
 الى الأماكن التي يريدونها ويستفيد من علمه وموسيقاه حيث كان
 من خبرة الموسيقيين الذين عرفتهم البلاد .. وقدم الشيخ درويش
 لزكريا خدمة لا تقدر ، عندما ألحقه ببطانة الشيخ على محمود ..
 ولم يكن الشيخ على من قرأ القرآن في المجد الحسيني الى
 جانب شيوخ عصره مثل الشيخ اسماعيل سكر أو الشيخ حسن
 المناخلي والشيخ حنفي برعي ، والشيخ محمد القهاوي والشيخ
 العيسوي والشيخ أحمد ندا والشيخ حسين الصواف فحسب .
 بل لقد هوى فيما هواه من ألوان الموسيقى « الآذان » .. « وكان
 الآذان ولا سيما التسابيح والاستغاثات التي تتلى قبل النجف في
 المجد الحسيني ، مما يؤدي على فزع خاص ففتمت يوم السبت
 عشاق .. ويوم الأحد حجاز ، أما يوم الاثنين فتمت سبكا اذا
 كان أول اثنين في الشهر ويأتي ، اذا كان في ثاني اثنين وحجاز اذا
 كان ثالث اثنين من الشهر وشورى على جسرگاه اذا كان رابع
 أو خامس أيام الاثنين . ويوم الثلاثاء سبكا . والأربعاء جسرگاه
 والخميس راسم والجمعة بياني .. وقد انماقت نفس الشيخ على
 محمود كذلك بدافع مبلها واستعدادها الطبيعي الى الموسيقى
 وضروب التلحين .. فانصل بالشيخ ابراهيم المغربي — وهو عالم

فاضل من علماء الأزهر ومن أصحاب القراءات له علم مكين بفن الموسيقى . وتركيب الألحان فتلمذ عليه ونلقى عنه علم النفحات ومعرفة المقامات وأصول الفن كما فعل درويش الحريري هـ .. »

« ولم يكتب الشيخ على محمود بأصول الفن الموسيقى يتقناها على أربابها من حفظة الموشحات العربية مثل الشيخ محمد عبد الرحيم الملوب ومن حفظة الموشحات التركية والشامية ، مثل الشيخ عثمان الموصلى بل ذهب مع ميوله الفنية الى مدى غاياتها وراء فحول المنين يسمهم ويحفظ لهم .. ولم يكن الشيخ على محمود بالذى يقف لمجابهة عند احكام الصناعة وبراعة التصرف فيها بل كان كذلك يهوى الصوت الجميل لجماله . ولقد عرف الحى الحبنى حينا من الدهر ، بانما متجولا اوتى جمال الصوت مع حلاوة ورقة وكان له من كل صنف من اصناف الفاكهة نداء يؤدبه فكان الشيخ على ومعه الشيخ درويش الحريري كثيرا ما يتابعانه الى مائة بميدة .. وكان الشيخ على محمود مرهف السمع للاصوات لا تهوته خافية من انواعها ، والوانها ونموجاتها واقاينها .. وقد اوتى الشيخ فوق ذلك ملكة المحاكاة على نحو يكاد يدخل فى حد المعجزات ، والذى يرويه عنه اصداؤه انه كان لا يقف عند محاكاة المقرئين يصطنع مثلهم الاصوات والنبرات فضلا عن مذاهبهم فى القراءات بل يتعداهم الى المنشدين فيتغنن ما شاء له الافتان حتى ليكاد يحاكي منهم الحركات ثم هو يتعدى اولئك وهؤلاء فيحاكي المتقدمين والحضرين والمحدثين فلا يخطئ المحاكاة والتشيل فى دقيق أو جليل وكان يتفكه أحيانا

بمحاكاة لهجات الأتراك والمعجم في الفناء فضلا عن محاكاته طريقة بعض المثليين المعروفين في الالتقاء ،^(١) ويبضى الأستاذ عبد الرحمن صدقي في الحديث عن الشيخ علي محمود ، ثاني أستاذ اثر في زكريا أحمد بعد درويش الحريري ، فيقول : وقد كان الشيخ علي محمود الى قراءته القرآن ينشد — كما قدمنا — القصائد والتواشيح المنظومة في مدح خاتم النبيين والمرسلين وكان في أول عهده بالمولد يردد الألحان التي وضعها أستاذه الشيخ ابراهيم المغربي ، فلما رسخت قدمه وتمكن من فنه أخذ يلحن لنفسه ويحيى الليالي باسمه ومن يجدر التنويه بهم ممن يلزمه في ذلك الحين الشيخ زكريا أحمد وقد لحن في المولد النبوي بعض التلاحين ومن الذين أنشد لهم المرحوم الشيخ علي محمود بعض السمرات المجيدتين مثل ابن الفارض امام المتصوفين في قوله :

ته دلالات فانت أهل لذاكا وتحكم فالحسن قد أعطاك
ولك الأمر فاقض ما أنت قاض فعلى الجمال قد ولاكا
أما قصة ميلاد النبي فكانت على أنواع كثيرة من حيث الصياغة اللفظية وكان أحبا اليه والى الناس ما صاغه البرزجي وهذا مثالها:
« ولما أراد الله تبارك وتعالى إبراز حقيقته المحمدية وإظهاره روحا وجسا بصورته ومعناه نقله الى مقره من صدفة آمنة الزهرية وخصها القريب ، المحيىب أن تكون أما لمصطفاه ونودى في السموات والأرض بحملها لأنواره الذاتية وصب كل صب

(١) الفنان الدينى للأستاذ عبد الرحمن صدقي : مجلة المجلة

لمبوب نسيم صباه وكسيت الأرض بعد طول حديها من النبات
حلا سندسية وأبنت الثمار واجتني النجر للجاني جنا .. ونطقت
بحملها كل دابة لقريش بفصاح الألسن العرية وأبنت أمه في المنام
ف قيل لها انها حلت بسيد العالمين وخير البرية » . ويكمل الأستاذ
عبد الرحمن صدقي صورته الجميلة الزاهية فيقول :

« ولقد أتبع لي سماع المولد الذي كان يحيه التقييد وشهود
الحلقات التي كان يتصدرها فسمعت الجماعة المرددین يكررون
أياتا من القصيدة في صوت واحد ، ثم في وسط ترديدهم ومن بين
فتراتهم يرتفع صوت الشيخ مجلجلا بأجمل النغمات في وصف مولد
النبي العربي وتعدد معانيه وإيراد معجزاته ، وكانت تبدأ الحلقة
هادئة ثم تنفث شيئا فشيئا كلما اشتد الشيد على أفواه الجماعة
المرددین وجاشت به صدورهم وكلما انبث الشيخ يطلق من عنان
صوته وينثر من جعبة فنه ، وقد اهتزت قهقهه ولالت مفاصله وجمل
يطول ويقصر ويده الى صدغه يبدىء ويعيد ما يقول ، على أنواع
لا آخر لها من الأنغام وترجيحات الصوت وقد امتلات بالهواء
مساحره وانتفعت أوداجه حتى اذا مضى من الليل هزيع وجاء
هزيع كان الاتساد في شأو أبعد وأوج أعلى فاذا أشرف الليل
على آخره ألقى الشيخ بآياته الواحدة بعد الأخرى فأخرج القوم
من طورهم وتركهم وهم من الوجد سكارى » .

ويقضى زكريا أحمد في رفقة الشيخ على محمود وقتا طويلا
يستفيد منه في كل شيء من طريقته في الأذان .. الى طريقته في
قراءة القرآن الكريم ومحاكاة المطربين والمنشدين والممثلين

ويستفيد منه أيضا في قراءة المولد النبوي الشريف وفي اشاد
كثير من الموشحات والمقطوعات الدينية وكالت الفائدة الكبرى
أن الشيخ على محمود قد أفاض على زكريا أحمد ، من علمه في
الموسيقى ومن تجاربه في القراءات ، ومن دراساته العميقة في
أصول الغناء ، والتواشيح ، والموشحات .. الى جانب أن الشيخ
على محمود أتاح لزكريا أحمد لأول مرة أن يلحن بعض الألحان
الدينية التي أداها الشيخ على محمود فرفقت من منزلة الشيخ
زكريا وحقت له شهرة واسعة ..

ويلتحق زكريا أحمد ، بفرقة الشيخ اسماعيل سكر وهو من
خيرة القرنين والمنشدین وقد ملأ صيته كافة أرجاء البلاد فمال
إليه أعيان القاهرة ، ووجهائها ، وأغنيائها وكبرائها ثم تجاوز
هذا الصيت مصر الى الأستانة — حيث استدعاه السلطان محمد
رشاد خليفة المسلمين ليقرا في إحدى الحفلات الكبرى .
وقد أنزله السلطان في قصره وأقم عليه بالنيشان المجیدی وذلك
بالرغم من أن أول آية قرآن قرأها الشيخ كانت تمرضا بالسلطان
وكانت الآية : « وما قدروا لله حق قدره ان الله لقوى عزيز .. » (١).
وكان السلطان لا يعترف أن هناك من هو أقدر ولا أعز منه ؟
وكان أمل كل مقرر ، — حتى المعروفين منهم — أن يكون في
بطانة الشيخ سكر حيث كان متخصصا الى جانب قراءته للقرآن

(١) الهدية السنبة للراء القرآن الكريم والقصة النبوية :

اسماعيل سكر .

في قراءة قصة مولد النبي ، وحيث كان العمل في بطاقة الشيخ يكاد يكون فرصة العمر من ناحية المرات ، والدراسة .

ووجد زكريا في الشيخ سكر أملة المشهود .. انه لقنان منازل لا مثل له في فنه وانه صاحب صوت ، قل أن يائله صوت آخر .. ثم انه فوق ذلك متحدث بارع .. وتقرب زكريا منه .. وحرص على حضور حفلاته وندواته ، وسهراته .. ووجد الشيخ سكر في زكريا خامة طيبة ، فابتدأ يقربه اليه ودعاه للاشتراك في بطاقته بل وأكثر من هذا قدمه الى الجمهور بنفسه .

وفكر زكريا في أن يلحن نفسه ، واختار بعض القصائد الدينية ولحنها وشجبه أصدقاؤه وزملاؤه على أن يلحن بعض الأغاني السائقة . فوضع لها ألحانا جيدة وجديدة .. ولم يكن ذلك محرما في ذلك الوقت ، فمن حق أى مطرب أن ينفى أية أغنية معروفة أو غير معروفة وفي استطاعة كل ملحن أن يلحن ما يريد من القصائد ، والمواويل ، .. والقطايق — وكان من الشائع أن يسطو البعض على مؤلفات الآخرين دون استئذان منهم ولم يكن ذلك غريبا .. اذ كنت تجد لافتة كتب عليها « بائح يا نصيب وسجاير .. وملحن » وأخرى « ملحن أناشيد ، ومقرئ مدائح نبوية ، ومصحف » وتجد لافتة كتب عليها « حانوني ومقرئ ومصحف » .. ورابعة تجد مكتوبا عليها « دار الجيلاني والتخمين والتلحين » .

وكان زكريا أحمد وهو لما يتجاوز بمد عامه العشرين أشبه ما يكون بالطائر الصغير وقد بالغ صياده في تعذيبه ، وفي الحيلولة

منه وبين ما يحبه وما يهواه .. فلما قمر لهذا الطائر الصغير أن يتغلب على صياده القوى ، ولما أتيح له — وهو الضعيف — أن يمر من محبه الحصن ، كانت انطلاقته الأولى انطلاقة قوية .. راح يذرع الحياة طولا وعرضا . قدم ثابتة ، ورأس عال ، وقلب لا يحمل الا الحب والود ، والغير للناس جيما .. شعر كما يقول في مذكراته بأنه يضع قدمه على الأرض لأول مرة .. ويتنفس الهواء الطلق أيضا لأول مرة .. بل يرى الناس وبفضائلهم فقط — لأول مرة ..

أعجبه كلمات قصيرة تبادلها كليمنصو رئيس وزراء فرنسا الأسبق وبترفسكى رئيس وزراء بولوليا المشهور بالعرف على البيانو .. فذهب الى أول خطاط لقيه في شارع محمد على ليكتب له هذه الكلمات ..

قال كليمنصو : هل تركت الموسيقى ودخلت السياسة ؟
وأجاب بترفسكى : نعم ..

وقال كليمنصو : يا له من تأخر ..

وكتب عبارة قالها كوتوشويس في لافتة وضعها في حجرة لومه الى جانب تهويم العام الهجرى ، وصور أبو زيد الهلالي والزنانى خليفة ، وكانت كلمة كوتوشويس « لا يبنى من يضع للناس شرائعهم ما دمت أنا الذى أضع لهم أغانيهم .. » .
وانطلق زكريا فى الحياة ..

لم يكتف بأن يكون واحدا من « المنهجية » أو « السيدة »

الذين لا ينطقون بل ولا يتحركون الا بقدر وفي الوقت الذي يريده « الصييت » .

ولم يقبل أن يكون مجرد آلة في أيدي المطربين والمثليين اذا شاءوا — وقلما كانوا يشاءون — منحوه لقمة العيش ، وفرصة العمل .. واذا شاءوا — وكثيرا ما كانوا يشاءون — منحوا عنه لقمة العيش وحالوا بينه وبين العمل .

ورفض أن تسلط عليه الأضواء في بداية حياته ما دام لم يكن قد أعد نفسه بمد للدور الذي أراد أن يلعبه في الحياة ..

واختار لنفسه اتجاها جديدا لم يتجه اليه أحد من قبله ..
آثر أن يتعلم ويحفظ ويجرب في هدوء وثقة وأناة ، وعناد ..
قال له ذات ليلة أحد معاونيه ولطه أراد احراجه ، « ادخل من الهوا ياسيدنا الشيخ .. » ولم يفهم زكريا أحمد ما يقوله معاونه ..
وتظاهر بأنه متمب في هذه الليلة .. وأن صوته « مختك » ورد لصاحب الليلة الأجر الذي سبق أن تقاضاه منه ، وانسحب ..
ولم يعد الى الغناء الا بعد أن حفظ النوتة الموسيقية كلها — وأخطأ ذات مرة في نسيان دور معروف من احدى الموشحات الأندلسية ، « وزغر » له الأستاذ اسماعيل سكر . وتمارض فترة قصيرة ثم عاد الى حفظ كل ما عرفه المثليون والمطربون من نواشيح أندلسية ..

وجلس ذات ليلة في سهرة خاصة جمعت سلامة حجازي ، ومحمد سالم ، والنياوي ، واسماعيل سكر ، واكتشف أن ما وصل اليه هؤلاء من مجد لم يكن سهلا . وانما كان معتمدا على دراسة

أقواء المطربين والمنشدین من أغان ومواويل .. ومقاطیق ..
واتجه الى ريف مصر .. لم يكتف بأن يسمع الناس غناؤه ، بل
أراد أن يسمع ما عندهم .. وفي كل مرة كان يزور فيها الریف
كان ينتهز فرصة الاستراحة ليطلب من المغنين الاقليميين أن يسموه
ما لديهم .. فلقد تعود أن يطرب الناس ، وتعود أن يطرب لما
يسمعه من الناس وهو — كغيره من الفنانين الأصلاء .. يقيد
ويستفيد .. يتمتع الناس بفته ويتمتع بها لديهم — حتى ولو كانت
بدائية — من فنون ..

ولى الصيد كان يردد أغاني الوجه البحرى وفى الوجه البحرى
كان يردد — من قبيل التفسير — أغاني الصيد .. ومن هذه
الأغاني التى كان يرددها .. ما يسمعه فى طنطا :

مدد يا شيخ العرب يا عم يا سيد
يا للى فى رحابك جمعت العبد واليد
يا قطب يا للى الهداية خلقتك سيد
ادعى لنا ربك يزيل عنا الألم والكرب
يا للى دعاك مستجاب يا عم يا سيد

أو تلك التى سمعها فى المنيا :

عالبهر جمالات يملوا دوارجهم
عليل وعطشان ومنفوا الى دواريجهم
يدج جلبى لزغرونة أباريجهم
جالوا منين الفتى أنا جلت منياوى
مولود معاهم ولا جادر أفارجهم

وقبل ذلك الموال الذى سمع فى شمال الدنيا :
 يا خسارة الحلو من بعد الدلال يمينوه
 من بعد ما كان صاحب مقدرة يمينوه
 حسوا العوازل وجوله فى الوطن يمينوه
 وقف رآهم كهم غيظه وغفى بلاءه
 خايف من الدهر أحواله تيجى بخلاف
 الأهل كرهوه وقالوا تركه وبلاءه
 سقوه كاسات الجفا بعد الصفا بخلاف
 من بعد ما كان عالهمين وبلاءه

ولم يكن زكرا يحفظ الأغنية الجميلة بل كان يحفظ كل
 ما يقوله الناس فلما سئل فى ذلك قال : « ان الناس مجموعة أذواق
 وما يجب هذا قد لا يجب ذاك » ولهذا كان الطلاقة للمصالحات
 والمسارح لا يستهدف رؤية ما بها من راقصات ورقصات بقدر
 ما كان يهدف الى حفظ كل ما يلقى فيها من أغان وتواشييع
 ومونولوجات فهو يحفظ — مثلا — ما يقوله سلامة حجازى
 فى رواية « شهداء الغرام » مثل :

أجوليت ما هذا السكوت ولم أكن لأعهد فيك الصمت عنى فى قرى
 أمائة أنت؟ نعم؟ فأنت لاتموتين بل تحيين منى فى قرى
 كما يحفظ فى الوقت ذاته :

جوليت ما هذا وماذا أصنع	عمل أرى ضررى به تتخلع
هذه الزجاجة جثة من لى بها	أمضى لأوروبا وتوا أرجع
أخشى نجرعها فتيها مستكة	يا حبذا لو كان فيها نضع

وانضم زكريا الى بعض الجمعيات والأندية التي آلت في هذه الفترة مثل جمعية التمثيل المصري التي كان من أهدافها خلق المسرحية المصرية ، باللغة العامية المصرية ، وجمعية محاربة التمثيل الهزلي التي آلت من بعض الكتاب والأدباء والفنانين والتي طبع أحد أعضائها — محمد فضل — منشورات جاء فيها :

« تنجيم التمثيل الأدبي أكبر واجب »

« ومحاربة التمثيل الهزلي ضربة لازب »

وكاد يقبض على أعضاء الجمعية باعتبارهم أعضاء في منظمة سرية ارهاية .

وخطا زكريا خطوة أخرى :

كان مصطفى رضا من هواة الموسيقى وقد تعود هو وزملاؤه حسن أنور ، والسيد كامل ، والشيخ أبو العلا أن يسهروا في منزله للغزف على العود ، حتى ماتت عته ، فانتقلوا الى منزل الشيخ « أبو العلا » .. وتردد زكريا على المنزلين وتأثر بهذه المجموعة المتفقة من خيرة الهواة ... ولما وجدت هذه المجموعة أن السهر في منزل الشيخ « أبو العلا » يكلفها كثيرا استأجرت حجرة في عمارة ، كانت شركة الجرامفون تستأجرها مقرا لها .. واتفقت الشلة مع مدير الشركة على أن تجتمع في غير وقت العمل بالشركة حتى تركت الشركة الحجرة فاستقل بها الموسيقيون ..

وأصبحت هذه الحجرة مكانا مختارا لغيره الموسيقيين الذين تضامنوا فلما بينهم لشراء الكراسي ، والموائد ، ولبة الغاز ..

ثم أقلموا حفلة ساهرة ، كان يرادها خمسة جنيهات خصصت
لشراء بقية الأثاث .

وتهاوت الشركاء على النادي — كما هو متبع — في البداية ،
ثم بدأوا يتناقصون رويدا .. رويدا ..
وكان المضيوان الوفيان للنادي مصطفى رضا .. وزكريا أحمد ..



وأخيرا آمن زكريا أحمد ، بأن شيئا ما في داخله قد لما
ونزعزع ..

وأحسن بأن قوة جديدة قد أوشكت أن تدفعه الى الأمام ..
وتأكد ، أن قدمه في الفن قد بدأت ترسخ .. وثبت وتحمل
الأعاصير ..

وبدا يهد لانطلاقة جديدة ، تتلاءم وما استفاده في هذه
المرحلة من دراسة وتجربة ، وأخطاء ...

مجتمع الأول

لا تغفلو حياة الانسان — أى الانسان ما — من التعرض
للمحور والهبوط ومجابهة السعادة والشقاء ، والفقر والغنى ،
ولا يمكن أن يتنزه الانسان ما عن الوقوع فى الخطأ أو الصواب
ومواجهة الانتصارات والهزائم ... والذين ثبت تفوقهم فى كثير
من ميادين الحياة يتعرضون دائما الى ما يتعرض له الانسان
العادى ، من صعود وهبوط ، وسعادة وشقاء ، وفقر وغنى ..
وخطأ وصواب ، وانتصارات وهزائم لان ذلك كله من لوازم
الحياة . ولم نر قبلا أن طفلا ولد وقد وضعت على جبينه لافتة كتب
عليها متفوق أو فاش أو كفاء ، أو ما يدل على أنه فيما بعد سينجز
مجرى التاريخ ، أو يطى ارادته على التاريخ ولو حدث ذلك لكأن
حياة العباقره من رجال التاريخ سهلة ، وهادئة ، وناعمة منذ بدايتها .
لا صعوبات فيها ولا مشاق ولا تضحيات ... وحياة الانسان
الفنان — الفنان بحنى هذه الكلمة — لا تكون من بدايتها هادئة
ولا ناعمة ولا مستقرة ، بل غالبا ما تكون فى البداية متعبة ،
متقلبة .. تتقل وتشتعل معها صاحبها من سيئه الى احسن ومن حسن
الى أسوأ ، واحباها من أسوأ الى احسن أو العكس من احسن

الى أسوأ وبعض الناس تتفاهل بتلك الصعوبات والمشاق ويمدونها
ثنى النبوغ والنهرة .

وفي رأيي أن بعض الذين يكتبون عن الشخصيات التاريخية
يخطئون اذ يحاولون تصوير هذه الشخصيات تصويرا بعيدا عن
واقع الحياة وطبيعة الانسان ، فهم يتزهون أصحابها عن الوقوع في
الأخطاء وهم يفرضون عليهم النبوغ والمبقرية والتفوق ، حتى
في فترات الطفولة والصبا ، والشباب وفي وقت لم تكن هذه
الشخصيات قد اكتملت بعد وظهرت بواكير نموها وازدهارها ..
وقد يتصيد هؤلاء الحوادث التافهة في حياة هؤلاء — وخاصة في
الفترة الأولى — ويكبرونها ويخلقون منها أساطير خرافية ،
لا يسلقها أحد ، وقد يحاولون رفع شخصياتهم عن مستوى
البشر ، ظنا منهم أنهم يحسنون الى من يكتبون عنهم .. وهم في
الواقع يسيئون الى هذه الشخصيات ، والى أنفسهم بالذات ..
وفي رأيي أن المرحلة الأولى ، من حياة أى شخص لا تبرهن تماما
على ما سيقع في المراحل الأخرى من تطورات ، وإن كانت هذه
المرحلة قد تكون عاملا مساعدا في فهم ما سيحدث في المراحل
الأخرى ، وفي اعطاء صورة غير كاملة ، عن هذا الانسان أو ذاك
فليس كل من خرج على اجماع الناس في صفه ، فكره المدرسة
أو الأزهر أو الكتاب ، واتجه الى الحياة العامة ، يدرس فيها ،
ويتعلم منها سيكون عبقريا والعكس أيضا صحيح ..

إن حياة كل انسان على حدة بظروفها واعمالها ، والامكانيات
المتوفرة عند صاحبها ، هي التي تغلق هذا الانسان ، ولا يمكنك

أن تضع قاعدة ما تطبقها أوتومانيكيا على كل الناس في كل الظروف .

ولنعد الآن — بعد تلك الاطالة — الى سلسلة المقالات التي كتبها الشيخ يونس القاضي تحت عنوان « الشيخ زكريا أفندي » ، وكانت مقدمة هذه المقالات كما يلي : « لقبوه بالشيخ ان ستم والأفندي ان استحسنتم ، فأى الكلمتين لا يكون أداة تعرض له بين عارفه ومريديه ومحبه ، والتميز فيه ، لأن المصطلح عليه ينشأ من بدء معرفته هو زكريا مجردا من كل كنية ولقب .. أما هو شخصا فيتكف أن يقال له الشيخ ولا يجب هذه الكلمة ولا الناطق بها وربما كان هذا نتيجة انتخاله في جوقة الشيخ أحمد الحمزاوى . والحمزاوى لا يكلم الا من يقول له الميو أحمد . » وقد انطبع في خلق زكريا أن لا يكون للشيخة حظ في اسمه ولا نصيب في صفاته لأنه يعتقد أن كلمة الشيخ لا تقال الا لرجال العلم .. وهو يعترف بأنه لم يعترف من منهل العلم ولا العرفان جرة » .

ويقول كاتب المقالات « ان بدء معرفته بزكريا كانت في صحن الأزهر ، وكان زكريا طفلا في التاسعة من عمره يلبس جلبابا من الفزل المحلاوى المتين وطاقيّة شيكة وفي أذنه قرط شيكة . وكنا قبل الظهر ، وقد اتهمنا من مراجعة درس النحو ، استمدلدا لحفوره على الشيخ الذى نحضر عليه . وكانت الصلحة في المدارس أو الاتراكت في التيارات ربع ساعة يترجح فيها الفكر فسادت ذلك الطفل جالسا على مقعد خشبي قبالة المنبر

وهو يلمو جز ساقه فقال لى زميلى فى المذاكرة وهو
 الأستاذ « ... » القاضى الشرعى الآن -- الوادى ايش جابه هنا ؟
 وسرعان ما شهدنا « مندا -- والمنشد -- والمنشد موظف فى
 الأزهر يحل خيزانة أو جريدة أو مفرقة وهو عند الللمات
 الأزهرية وانشاء السلاح الأحمر ، يقود المعتدى والمعتدى عليه
 الى جندى الأزهر -- يسرع فى خطواته حتى اذا جاوز ذلك الطفل
 وكان فى جلته ملفتا وجهه نحو الشيخ وظهره نحو القادم هوى
 بجريدته اليابسة على ساقى ذلك الطفل وأوسعه ضربا . وناهيك
 بشايخ الأزهر يتركون حلقات الدروس اذا سمعوا عن معركة .
 ويفضلون شهودها وأخيرا لم تفلح لدى ذلك المشد شفاعاة .
 وتبين أخيرا أنه والد الطفل وقد ضربه ليؤدبه على ذنب لم أنعم
 بمعرفته . وما كنت أدري اننى سأضطر يوما للكتابة عن زكريا
 كعورخ فأحتاج لمعرفة البب ولولا أن هذا العهد قضى عليه أكر
 من ثلاث وعشرين سنة لطالبت زكريا بسر البب ولكن تقادم
 العهد يحول بين هذا وبين ذاكرته خصوصا وأن هذه الحلقة لم تكن
 الأولى والأخيرة من نوعها » .

ويمضى الشيخ بولس القاضى فيروى كيف دفعه حب
 الاستطلاع الى معرفة البب وقد ظهر أنه هروب زكريا من كتاب
 الشيخ عبد المطلب بالأزهر ، وكيف أن والده الشيخ أحمد ،
 أقسم أن يرسل ابنه الى صنعة ليتكسب منها عيشا ، ويروى
 أيضا قصة هروب زكريا الى طنطا ونهاب الوالد لاحضاره ثم
 يقول : « ولم تنفع لدى آبيه غير شفاعاة الأستاذ الشيخ درويش

الحريري الموسيقى المعروف فقد تمهد لآيه ان يحفظ القرآن
فسله ابنه وزكريا مكين رزى في صغره ، بموت أمه ، وقاهيك .
بتربية ولد ماتت أمه وتزوج أبوه من غيرها ، وهذا من دواعي عطف
الشيخ درويش عليه .. الشيخ درويش صريح حتى مع نفسه ، اذا
قطع عهدا على نفسه لا تستطيع رده عن تنفيذه مهما تستعمل من
المغريات ولكن ذاكرة زكريا كانت سببا في قفض عهد الشيخ
درويش فكثيرا ما رأته ينهره ويهدده .. وبعد ما ينس منه حفظه
آيات من سور مطومة يرتها القراء ، في الليالي الرسية وكان
هذا نصيه في عشر سنوات أقامها مع الشيخ درويش وأكثر .
« وفي ليلة قابلت الشيخ درويش يقوده زكريا وكنت جالسا
في الكلوب المصري والشيخ درويش يكاد يتميز من الفيظ فناديته
وخفت من حديثه فقال لي في مواجهته . سيكون هذا المخلوق أثرا
سينا لي .. لأنني قطعت عهدا على نفسي ولم أوفق لتنفيذه . فقلت
« علمه المبادئ الموسيقية . قال : لا ينفع في أى حاجة فأسعته
زجلا كنت أنظفه عنوانه « كمك العيد » فكان زكريا حين سمعه
« ثبه مطيب » .

« عقب هذا دفعه الشيخ درويش وقال ابعد لك عن عمل ،
فذهب وسهر رمضان وعاد فقابلته مع الأستاذ أمام باب ادارة
الازهر ، وقد لبس جبة وقطانا ، وقال لي « ما بقيت فقي » قلت
مبروك ، وقال الشيخ درويش : اصبح فقي شكلا لا موضوعا . ثم
يروى الشيخ يونس القاضي ، كيف ذهب مع زكريا الى الدكتور

ارام م السامى لرباره فى مبادته ، وهالك التقى باخيه زكى السامى
 وكان فى المابا حيث اقام بها سنوات ولما قدمت له زكريا وخشيت
 ان يخل من كلمة فقى التى يراها عيا كبيرا قلت انه موسيقى
 وعلى ذكر الموسيقى روى الدكتور عبد الفتاح تاريخ كاروزو .
 بعد ان قال « لعنا ترى الأستاذ مثل كاروزو » وقد ظن ان
 الدكتور يشبه بالالماني فاستفهم فى حدة وغير ما حياه فروى
 له الدكتور تاريخ كاروزو ومن سياق حديثه علمنا انه كان صبي
 فراق فتهلل وجه زكريا فرحا ولما نزلنا قال يظهر الى رايح اصبح
 زى كاروزو لانى اشتغلت صبي فران فى صغرى ، قلت : « لا عيب
 فى هذا .. انا انتصك تعلم الموسيقى » . ولعزم ان يأخذ درسا فى
 العود واستصحبني ثلاث مرات الى منزل القصبجي ولم نظفر
 برويته فهل تحقت نبوءة الدكتور ؟ كلا فككاروزو كان مبتكرا
 وزكريا سارقا ما يقول انه من تلحينه ، وثمان بين الاثنين ، ويكمل
 يولى القاضى القصة فيقول : لم تطل مدة اشتغال زكريا مع
 الشيخ سيد مرسى ففصله ولا أستطيع ذكر السبب ثم عاد الى
 الشيخ درويش ، وعلاقة الأستاذ الحريرى بصديقنا الأستاذ الشيخ
 على محمود ترجع الى عهد الطفولة .. ذهب الشيخ درويش وطلب
 الى الشيخ على محمود ان يقبل زكريا ضمن الجوقة ، فقبله ،
 وسرعان ما فصله ، فالحقته الشيخ درويش بجوقة أستاذ تلحين
 تواشيح المولد والذي ابتدع ما تشهده من الموسيقى الصوتية
 الفنائية فى المولد ، وأعنى به الشيخ اسماعيل مكر وجوقة الشيخ
 اسماعيل كفايلة تسير ، فكان زكريا نبعا لها ، ولكن الشيخ

إسماعيل ، اعتذر للشيخ درويش في ما معناه ، اما أن أستغنى عن
العبوة كلها ، أو عن زكريا ، وما هي إلا أيام حتى خرج ، يبحث
عن مرتزق فانضم الى جوق الشيخ — أستغفر الله العظيم —
المسيو أحمد الحزاوي واشتغل معه بأسلوبه الفكاهة الطريف .

ثم يروي الشيخ يونس القاضي أول لقاء فني لزكريا أحمد مع
أم كلثوم فيقول : « في أول سنة غنت فيها أم كلثوم استأجرها زكريا
في آخر ليلة من ليالي مولد الحسين وكان الدخول الى الحفلة
بتذاكر وقد طلب مني زكريا أن أنظم له قطعة يلحنها أو بالعربي
تكون على قد قطعة ينير هو معاملها ، فعملت له قطعة امتدح بها
مصطفى باشا كمال وهي « اسم الله عليك » .

مرت سنة وشهران وجاء شهر جمادى والعادة عند سكان
العاصمة أن الزواج لا يروج سوقه في أربعة أشهر ، محرم ،
وجمادى الأولى ، وجمادى الثانية ورمضان وكان جوق الشيخ
على في حكم المحال على الاستيداع وزكريا يعتبر نفسه في الرديف
أو تحت الطلب ، بث الى شكواه وقال ان الشيخ على محمود
أعطاه خمسة جنيهات ليقطع للجوق تذاكر السفر الى منفوط
لأحياء ليلة اعتيد أحيائها بمنزل صاحب السمادة حفيى باشا
الطرزى ، ولكن زكريا سهر بدل أن ينام مع أحد أصدقائه ،
عبد الحيد أفندى التباسى صاحب قهوة وبار فيمنعطف بكلوت بك
وقد كان في جوقه اللحنين بفرقة السيدة منيرة المهدية في عهد
محمود بك جبر .

وذهب زكريا الى منزله عند الساعة السابعة صباحا وأدرك
أن القطار باق عليه ساعة ونصف ساعة ، ولم يكن في جيبه أكثر
من خمسة عشر مليما .. » .

وينهى الشيخ يونس القاضي ، القصة بقوله :
« اتبعه زكريا أحمد الى الشيخ فراج المخاخي وقال له :
ان أحد النشالين في محطة مصر عند الترسو سرق الورقة أم خمسة
جنيهاً والمطلوب خمسة جنيهاً للشيخ على محمود ، وكان
زكريا أحمد يمنع الناس من أن يمروا وهم معه وأقا منهم على
دكان الشيخ فراج المخاخي قبل أن يسدد المبلغ » .

ويقول يونس القاضي ان الحاج أحمد المرشدي ذكر له أن
زكريا طالبه بعشرة جنيهاً سلفة وأنه خشي أن يعطيها أباه
« لأنني لو أديته العشرة جنيهاً يستحيل على أقاله أحسن يفهم اني
باطال به وهو من قسه ، ما يرضاش يقابلني الا لما تبجي له العشرة
جنيه ، ويستحيل اللي زبه يبجي له عشرة صاغ مجمدين وان
ما كنتش أعطيه العشرة جنيهاً يزعل مني ويقول : « هو أنا حاكمكم
عليك » .

ويمضي الشيخ يونس مدلا على سوء حالة زكريا أحمد المالية
وقتئذ فيقول : ان الحاج أحمد نصار صاحب محل قدام المستشفى
بتاع الأزهر رفض أن يعطى ابن أخت زكريا رغيفين وقرش صاغ
بيض ، وبثلاثة تعريفة سنن علشان زكريا يتغدى هو واللى معاه
.. وقال الحاج أحمد نصار لابن أخت زكريا .. « روح قول لخالك
زكريا : يجيب اللي عليه الأول .. واقسم زكريا بعدئذ يمينا على

الآ يشتري منه حاجة الا بعد أن يسدد ما عليه من ديونه .. » .
وتسأل الحاج المرشدى عما يمكن عمله لاقاذا زكريا
أحمد من الضائقة المالية التى تترىه وأقول له « أفا مطلوب منى
لقاطيق لشركة بيضا وزكريا من جوقة الشيخ على فلتذهب
اليه يا حاج أحمد لتقول له اننى أريد أن أقدمه للشركة كملحن ،
يبيع اللحن ويأخذ ثمنه ، وقال الحاج المرشدى ، انها تكون فى
الوقت ذاته خدمة لواحد مكين قليل العيلة زى زكريا ... » .

ويسقى الشيخ بونس فيقول : « وذهبت فى اليوم التالى الى
منزله ، وفاديت وصعدت فوجدت لديه الأستاذ الشيخ محمى الدين
الجل ، وخاطبته فى شأن الطقاطيق ، فقال هذه صناعة لا أدرى
فيها ، قلت جرب نفسك ، وألقيت اليه بأربع قطع فامتنع فلنا منه
الى أريد به سوءا وذكرنى بأغنية « اسم الله عليك » التى ماتت
من أول يوم .

وفى اليوم التالى قصدت الى منزل الشيخ على محمود وأرغمت
زكريا على قبول الفكرة وقد حسنها الشيخ على ، وأثناء تعينه،
دخل الشيخ درويش الحررى فوافق وتمهد هو والشيخ على أن
يصلحا له ما يعمل . وفى الصباح أيقظته من نومه ، وذهبت الى
محل بيضا أفا وهو ، وتوقفت عن البيع ان لم يكن الملحن زكريا ،
وامام هذا التعت واقف الخواجه بطرس . ولم يخرج زكريا وأفا
الا وفى جيب كل منا ١٥ جنيها .. زكريا هذا لم ير فى حياته الا عشرة
جنيهات يأخذها على سهرة رمضان ، ويعطى من يسهر سمرة

ورشوة ٢٥٪ نظير اغفائه من غلطات زكريا ، وكسائه ... ان زكريا لا يحفظ القرآن ولا ينفع اكثر من تشريفاتي للزوار في بيت الزبوف. مستحيل هذا المخلوق اذا مك في يده خمسة عشر جنيها ولا تستطيع ان تصدق مها تخيل ما كان عليه زكريا ، لقد خرج وانطلق في شارع الموسيقى حتى اذا وصل الى محل كرار خلع العمامة ، كما يفعل الحاج حسن الحاوي في سوق مصر .
ويمضي يونس القاضي فيقول :

« لقد تمهدته في التلحين واخذت في ملازمته مساء ان يستطيع ابتكار لعن وكم سهرت معه لي منزلي حتى الرابعة صباحا ، وهو لم يفتح عليه ربنا بشيء .. اخيرا عرض القطع على الشيخ على والشيخ درويش فأصلحها ولكنهما في الحال قالوا ان الموسيقى اذا سمعها يستطيع ادراك المصدر الذي سرقت منه ، خصوصا البشارف وقال زكريا : وأنا كان مالي ومال الشبكة السوداء دي ياسي يونس » .

وبقص الشيخ يونس القاضي — من وجهة نظره — قصة علاقة زكريا بالسيدة « فاطمة سري » : « كانت فاطمة المثلة الأولى بفرقة حديقة الأربكية ، وأرسلت لي عبد العزيز بشندي فذهبت وقابلتها في حجرتها الخاصة بالمرح ، وعرضت علي أن أنظم مقاميق وأدوار . لأنها عزمت على هجر المسرح التمثيلي مفضلة الفناء مستقلة في عملها ، كغنية .. اتفعلت السيدة فاطمة سري عن فرقة الحديقة ، وانتقلت بالانشاد على تخت آلات ..
وذهبت الي فاطمة سري بمنزلها وذكرتني بوعدى لها في

التيانرو ، فقلت سأقفه اليوم ، قالت وكيف ذلك قلت سأحضر لك الملحن والقطاطيق جاهزة وأعطيتها موعدا ، بعد الظهر ، وكان الموعد فكان معي زكريا فنظرت اليه واندعشت ، وقالت الملحن فين ؟ قلت هذا هو .. قالت يضئ مني زي سي داوود ولا كامل انخلمي وقلت هذا صنّف جديد ، وكان لديها محمد أفندي عوض وباقي التخت .. عزف الجميع قطعني « ارخي الستارة » و « مانخافش عليه » وهما كل ما ذاع لذكرا في مصر أما السيدة فاطمة فأسرع من عدسة الفوتوغرافية .. فأخذت اللحن ومع هذا فانها سمعت القطعتين وقالت « زي اللي لهم قد .. » ونظرا لاضطرابها لأن تنفي شيئا جديدا حفظت القطعتين وغنتهما في المنصورة ثم في رمسيس وكان الشعب يقدر السيدة فاطمة سري فتبيل منها القطعتين وأظهر من التعفيد ما يليق بمثل السيدة فاطمة سري .. » .

وبعد أن يروي الشيخ القاضي — على طريقته — قصة خلاف زكريا مع فاطمة سري وكيف كان ذهابه اليها في الصباح الباكر وتمايه السعوط سببا من أسباب هذا الخلاف ، يذكر — قصة عمل زكريا في فرقة الشيخ سيد وينفي ما ذكره أحد الكتاب في مجلة ألف صنّف التي كان يصدرها الأستاذ بديع خيرى من أن الشيخ زكريا التحق بفرقة الشيخ سيد يساعده في التلحين واتصل لأنه طلب ستين جنينا في الشهر .

ويقول القاضي : لقد ذكر زكريا لسيد درويش ذات مرة وكاتا سيران بالقرب من الكبخانة أنه يحفظ النوتة الموسيقية الخاصة

بالشيخ درويش الحريري والشيخ سيد لم يقدر موسيقيا في مصر
حق قدره الا الشيخ درويش الحريري اعتقد أن هذا صدق .
فقال له ألك أن تمثل دورى في رواية « البروكة » حتى أشفى من
العملية الجراحية .. وبدأ الشيخ سيد في تلقين زكريا التلحين فلم
يوفق الا أن زكريا عرض على الشيخ سيد أن يعمل معه في فرقة
الشيخ سيد ، ووافق الشيخ سيد واتفقا على ستة جنيهات شهريا .
ويقول يونس القاضى :

والدليل على عدم نجاح زكريا في مهمة القيام بتنفيذ الدور في
البروكة أن الشيخ سيد وفق لاقناع محمد أفندى عبد الوهاب
بتشيل الدور .

وفى نهاية سلسلة المقالات يأبى الشيخ يونس الا أن يشهد بكرم
زكريا أحمد فيقول : « وجود زكريا أحمد بنفسه ما دمت في منزله
أو سرت معه في طريق .. وحوادثه في الكرم والسخاء لا تحصى
وربما زرته بمنزله فلا تنزل الا وشربت القهوة وبالغ في تحيتك
وأقسم ولو بالطلاق أن تتناول معه طعاما وربما صرف آخر فلس
يملكه قياما بالواجب المقدس ويسره أن يمنع التكليف بينه وبين
أخوانه ، ويسره أن يقدم أعدادا من مجلة حمارة منيتى ويسمعت
هو قفشات توفيق التى يكتبها بامضاء زيد من الناس .. » .

« ويصف يونس القاضى منزل زكريا أحمد في ذلك الوقت
وكيف أنه لا يحتوى على أكثر من ثلاث كنبات وليس على الأرض
باط ولا حصى » .

والى هنا وتنتهى المقالات الخمسة التى نشرها الشيخ يونس
القاضى عام ١٩٢٦ فى مجلة المشرح — أوسع المجلات الفنية وقتئذ
انتشارا وأكثرها تأثيرا فى الراى العام — ولقد تمتعت اسقاط
بعض صفحات من هذه المقالات لأنها احتوت فى رأى على ألفاظ
وعبارات ووقائع لا يتساخ نشرها اليوم وإن كان قد امتنع
نشرها بالأمس ، فى كتاب أو صحيفة سيارة ، وآمل أن تكون
الفقرات التى نقلتها من هذه المقالات ، كافية لاعطاء صورة كاملة
للفترة الأولى من حياة زكريا أحمد ، كما يراها أعنف خصومه ..
ومن هذه الفقرات يتبين لنا أن زكريا قد أنهى بسرعة وعلى النحو
الذى أراد دراسته النظرية ، فى الكتاب ، والأزهر ، والمدارس ،
وكيف اتجه مباشرة الى العمل فى حقل القراءة والانشاد ، والغناء
والتلحين من أجل تحقيق هوايته الخاصة ، ومن أجل لقمة العيش ،
ويتبين لنا من خلال دراستنا لزكريا أحمد ومن خلال اتصالاتنا
بأصدقائه ، وزملائه أن الفترة التى تمتد من عام ١٩١٤ الى ١٩٢٣
وهى فترة العمل فى قراءة القرآن الكريم ، والانشاد ، والغناء
كانت مليئة بالنشاط والقدرة على التحرك ومحاولات الاستفادة
من الحياة على أوسع نطاق ...

وسأقل هنا بعض ما ذكره زكريا أحمد فى يومياته التى بدأها
من أول يناير ١٩١٦ يقول زكريا أحمد : « فى أول يناير شغل عند
درويش بك وصالح بك ، وفى ٣ يناير قابلت سيد درويش وكان
يشنكى لى ، وفى الأيام ٥ و ٦ و ٧ و ٨ و ٩ و ١٠ و ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٥
يناير شغل فى حوش آدم ، والفنن والحلية وعند والى بك فى

المغربين والزقازيق ، والتفاحر الخيرية ، ودمياط ، وشربين
 والعباسية ، وفي الأيام ١٨ و١٩ و٢٠ و٢١ و٢٢ و٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦ و٢٧ و٢٨ و٢٩ و٣٠ من فبراير
 شغل عند جمجوم المتاديلي ، في الاسكندرية والمرج وطره والمعادي
 والمحلة الكبرى والاسكندرية وهناك تمت مقابلة لبد درويش
 وعند صالح بك وفرج بك جمجوم .. وفي الأيام ٢١ و٢٢ و٢٣ من
 مارس شغل في قليوب والمرج وطنطا ومصر الجديدة وباب البحر
 وباب اللوق وفي يوم ٢٤ مارس مقابلة للأستاذ مصطفى لطفي
 المنفلوطي ، وفي يوم ٢٥ مارس ابتداء شغلي مع الشيخ علي محمود
 وفي أول أبريل ١٩ و٢٠ و٢١ و٢٢ و٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦ و٢٧ و٢٨ و٢٩ و٣٠ من
 المنصورة والحسين (عند جعفر باشا) والعتبة وفي أول مايو ٢١ و٢٢
 و٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦ و٢٧ و٢٨ و٢٩ و٣٠ من مايو شغل
 في السيدة وتلا ومينا التمتع وحلوان ودموق وشبرا وسخود
 وعابدين وباب اللوق وكمر الشيخ والمنصورة والعباسية والمحلة
 الكبرى وباب الخلق وفي يوم ١ و٢ و٣ و٤ و٥ و٦ و٧ و٨ و٩ و١٠ و١١ و١٢ و١٣ و١٤ و١٥ و١٦ و١٧ و١٨ و١٩ و٢٠ من
 يولية شغل في العباسية وجزيرة بدران ومع أحمد سكر وعلى
 اسماعيل وفي المنصورة وعابدين والمحلة وطنطا وسمر عند
 السيوف باشا . وفي شهر يوليو لا عمل سوى سهرتين ، واحدة مع
 الشيخ علي محمود وأخرى في منوف . وفي أول أغسطس ١ و٢ و٣ و٤ و٥ و٦ و٧ و٨ و٩ و١٠ و١١ و١٢ و١٣ و١٤ و١٥ و١٦ و١٧ و١٨ و١٩ و٢٠ و٢١ و٢٢ و٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦ و٢٧ و٢٨ و٢٩ و٣٠ من
 أغسطس يكون العمل في مصر القديمة
 ومنهور والنيا والعباسية والخرقش والقشن وباب اللوق... الخ.
 ويذكر زكريا أحمد في يومياته أن ١٥ أغسطس سنة ١٩١٦
 كان تاريخ إبطاله للدخان وينقطع عن الكتابة في شهرى سبتمبر

وأكتوبر ، ويعود في نوفمبر وتزيد سهراته في نوفمبر وديسمبر عن ٣٥ حلة في كافة أرجاء البلاد .. الخ .

اما عام ١٩١٧ فيكون العمل في الظاهر والعباية والزقازيق وبولاق والزيتون ومصر القديمة والبغالة وعابدين وسوهاج وكوم حمادة ومنهور والحسين وكفر الشيخ والمنزلة والاسماعيلية وهيا وأسبوط ، وذلك بمعدل عشر حفلات في كل شهر . من أسوان الى الاسكندرية .

وفي عام ١٩١٨ يزوره محمد عبد الوهاب في يته في ٢ يناير ويقابله سيد درويش في ٣١ أغسطس ويستاز عام ١٩ بوقوع أحداث هامة كان لها أثرها في حياة زكريا أحمد وعن هذه الأحداث يقول : في ١٩ مارس انتهت عن الشرب . في ١٨ مايو سافرت الى السبلاوين وسهرت عند علي أبو المينين . وفي ٢ يونية عرفت أم كلثوم وكانت قد جاءت الى السبلاوين للاستماع الى ، وسمعتها وهي تغنى مع أخيها خالد ، وعزمتني عندها في الريف .. وفي ١٠ يونيو زرت أم كلثوم بطماي الزهايرة وأكلت عندها وزرة على الطيلة وفي ٢٠ أغسطس تم زفافي .

ولا تزيد حفلاته في عام ١٩٢٠ عن ٥٤ حلة وتتضاعف في عام ١٩٢١ كما تعدد مقابلاته لصالح عبد الحى وسيد درويش ويسافر الى المحلة الكبرى في ١٢ يونية للعمل من أجل شهرة أم كلثوم وينجب بتا اسمها برلنتى في ١٤ سبتمبر .. وتموت في ٢٤ أكتوبر ..

وتزداد شهرة زكريا ويفرد صوته في عام ١٩٢٢ في الزمالك

والمعادي ومنشئة الصدر عند أعيان البلاد .. ويتعرف الى فاطمة
سرى ، وحياة صبرى ويعمل واياها كما يعمل مع منيرة المهديّة
وسيد درويش ، ولم يكبد يتهمى عام ١٩٢٢ الا ويكون اسم
زكريا أحمد على السنة الكثيرين من رجال الفن وسيداته .

لقد أخذ يتعرف الى كبار المطربين والمطربات وأصبحت علاقته
الجديدة بهم علاقة زمالة بعد ما كانت في الماضي علاقات اعجاب
ومعرفة من طرف واحد .. وأكسبه هذه المعرفة ميزات جديدة ..
وأكدت له أن الفنان الصادق لا يمكن الا أن يأخذ مكانه في
الحياة ، فمنيرة المهديّة التي كانت تعرف فيما مضى باسم
زكية حسن .. والتي اكتشفها أحد أبناء الأسرة الأبائية والتي بدأت
العمل في صالة الالدرادو حيث كان يتدفق الذهب من الصمد
والأعيان ، أصبحت بعد قليل سيدة الغناء العربى وأصبح بيتها
ملتقى الشخصيات الكبيرة ، حتى ليعقد فيه حسين رشدي باثنا
رئيس الوزراء ، مجلس وزرائه في أخطر فترة مرت في البلاد في
إبان الحرب العالمية الأولى .

وعلى الكار الذي كان بالأسى طاهيا والذي لم يعرف
الكتابة والقراءة في صغره ، بل ولا حتى بعد أن كبرت سنه أصبح
يشغل بنجاح روايات مولير ويجمع في مسرحه بين أبطال الفكاهة
والغناء ويستأجر كبار الفنانين الايطاليين لرسم المناظر التي يحتاج
اليها في مسرحياته ..

ومحمد عبد الوهاب صبي محمود يوسف الترنزي الذي كان
يصعد الى المسرح في القواصل لينفى .

أنا عندي منجاة وصوتي كمنجاة

أيح وأغنى وأكل منجاة

والذي لم يكن يرتدي سوى جلبابه القصير وفيما بعد البوه
البنطلون القصير .. قد أصبح شيئا يهتم به أحمد شوقي الشاعر
الكبير ونهتم به البلد بأسرها .

هذا في الوقت الذي لم تتطع فيه الأموال أن تصنع
من عبد الرازق حجازي بن سلامة حجازي فنا حتى بالرغم من
أنهم كانوا يستأجرون محمد عبد الوهاب ليفنى بدله من وراء
ستار ويكتفى عبد الرازق حجازي بتحريك شفثه . لم يستطع
المال .. ولا الجاه .. والاسم الطويل العريق أن يخلق فنا في
الوقت الذي أصبح فيه صبي التريزى . والطامى وغيرها من
أقطاب الفنون كل شيء في دنيا الفنون ..

وبعد سنوات من الكفاح المضنى الشاق المستمر . أحس
زكريا أحمد أن قدمه في دنيا الفنون قد ثبتت .. وبالتالي أن رأسه
ارتفع لذل شيء ، يرفع الرأس عاليا ، إلا القدم الثابتة ..

اشتغل مقروئا ، فاستطاع أن يبرز غيره من المقرئين .. وكان
يتنازل عليهم جميعا لا بعلاوة صوته ، بل بسلامة عباراته ومخارج
حروفه ، وصدق أدائه واشتغل في جوقة المقرئين والموسيقى الكبير
على محمود ، فسرعان ما ظهر على زملائه ، وتفوق عليهم ولحن
للشيخ على محمود ألحانا كانت ماثرا إعجاب الشيخ على محمود
نفسه ، وفي مقدمتها .

« مولاي : كتبت رحمة الناس عليك » .

كما لحن لغيره أدوارا هامة منها ، « ما كاتش ظنى فى الغرام » .
ولجعت أغنيائه التى لحنها فجاحا كبيرا وبدأت الأيدى تشير اليه
ولم يصبه الفرور ولم يتنكر لواحد من أصدقائه ، أو معارفه ،
أو جيرانه ، أو أهله كما فعل كثيرون .

وظل يحب المدن والقرى ، مغنيا ، ومشددا ، و « صيتا »
ولم يرفض أبدا احياء حفلة من الحفلات ، خارج القاهرة حتى
ولو كان الأجر المروض عليه لا يكفى ثنا لتذكرة السكة
الحديد .. لقد كان يرى أن مهمة الفنان ، هى اسعاد الناس فى أى
وقت وفى أى مكان وكان يرى دائما عندما يذهب الى بلد غير
القاهرة أنه يكسب تجارب ، أكثر مما يكسب مالا .. بالرغم من
أن تلك السهرات خارج القاهرة لم تكن سهلة أو ميسورة بالنسبة
له أو غيره من الفنانين اذ كانت بحاجة دائما الى أصحاب قوية ،
والى فهم صادق ، لأحاسيس الجمهور ..

وانتقل زكريا أحمد الى شارع الفجالة ليكون على مقربة من
شارع عماد الدين شارع الفن الذى كانت تتلأأ فيه كل ليلة
المسرح ، والمقاهى ، والملاهى ، وقد كانت سنوات ما بعد الحرب
العالمية الأولى هى العصر الذهبى لا لشارع عماد الدين فعشب
بل للقاهرة والاسكندرية وبعض عواصم الأقاليم حيث شهدت
البلاد نهضة مسرحية ، لا مثل لها حتى ان مسرح البوسفور قد
أقيم فى ثلاثة أشهر فقط وراحت الصحف تهكم على الحكومة
لأن هذا المسرح قد أقيم فى ثلاثة أشهر بينما قلم الرهونات

الحكومي تم تشييده في سنة كاملة ومصلحة التليفونات في أكثر من عام ونصف ...

وازداد عدد المسارح وعدد الممثلين وقالت بعض الصحف ان عدد الممثلين سيزيد عن عدد المتفرجين ..

ولم تكن القاهرة والاسكندرية فقط منتلتين بالمسارح بل لم تخل أية عاصمة من عواصم الأقاليم من مسرح أو مسرحين على الأقل .

ففى القاهرة ، الأوبرا — والأزبكية — وللاجتيك — ورميس — وبرتانيا — ودار التمثيل العربى — وكافيه ريش — والبوسفور .. و .. و ..

وفى الاسكندرية : مسرح محمد على (الممبرا) وبلقى وكولكورديا و ... و ...

وفى بورسعيد : الأولدرادو ، والجورنوجراف و .. و .. وفى طنطا البلدية والبايناج .. و .. و ..

وفى المنصورة : مسرح عدن ومسرح البلدية و .. و .. وكان يشرف على هذه المسارح وزارة الأشغال وبنك مصر والمجالس البلدية وبعض محبى الفنون مثل الحاج مصطفى حنفى ومخالى بوليتى وقلىسى اخوان وشارل ماندلتسوا وعزيز متولى وعبد الله عبد الغفار وفارس ميخائيل ..

وقد اتخذت بعض الشركات الكبرى كشركات السجاير طريقة جديدة لاجتذاب الجمهور الى بضاعتها ولتشجيع التمثيل فكانت تستأجر الفرقة المسرحية بضعة أشهر وتنفق تكاليفها وأجور

الفنانين ويكون الدخول مقصورا على الفائزين في المسابقات التي تجريها هذه الشركات .

وكانت الروايات التي تمثل في هذه المسارح تعالج المشاكل الاجتماعية حيث بدأت ، نبتعد عن النقل والاقباس وتوجه الى تصوير الواقع المصرى تصويرا صحيحا صادقا فنزل الى الميدان كتاب صادقون أمثال تيمور وتوفيق الحكيم وأمين صدقى وبديع خيرى وحامد السيد وأحمد البابلى ، وزكى ابراهيم ، وحبيب جاماتى ، وكانت الفرق التي تتنافس على اخراج هذه الروايات ، فرق على الكسار والريحاني وجورج أبيض وزكى عكاشة ، ويوسف وهبى ومنيرة المهدية وعزيز عيد ، وفاطمة رشدى وصالح عبد الحى و .. و ..

ولم يكن الاهتمام بالفن مقصورا على أبناء المدن وحدهم ، بل امتد هذا الاهتمام الى الريف .. أو بمعنى أدق الى القادرين من أهل الريف .. اذ أن أبناء الريف لا يستطيعون بناء مسارح ، ولا إقامة سرادقات ضخمة ، ولا استخدام كبار المطربين أو المطربات ، الى قراهم .. ولا يستطيعون استضافة بعض الفرق التمثيلية أو الاستعراضية الكبرى ، ولكنهم يستطيعون وخاصة العمد ومنايخ البلاد ، والأعيان ، الذين امتلات جيوبهم بأثمان القطن ، الذهاب الى القاهرة .. وعواصم المديرات حيث يتمتعون أنفسهم بالرقص ، والفناء والتمثيل وحيث يعودون الى قراهم ليمتعوا غيرهم من لم تتح لهم فرص مغادرة القرى .. عن طريق الوصف التفصيلي لكل ما شاهدوه في البندر .

والشيء الوحيد الذى كان غالية أبناء القرى يقدرُونَ عليه هو استخدام « صيت » من القاهرة ، أو من عواصم المديريات لسد النقص الذى يشعرون به فى قراهم .. وفى أحيان كثيرة كان المقرئون المحليون يقاومون هذه الرغبة ويشكلون أحزاباً منعددة، لكى تصد الليلة ولا تتيح للقادم الجديد — أو بمعنى أدق للضيف المقتضب — فى عرف المقرئين المحليين فرص أداء واجبه كما يجب ، وكثيراً ما كان هؤلاء المقرئون المحليون ، يقولون : ان زائر الحى لا يطرب ، وانهم لو أنيحت لهم فرص الانتقال من قراهم الى المدن لاستطاعوا التفوق على صالح عبد الحى وعبد اللطيف البنا ، وغيرها من كبار مطربى ذلك الوقت .

وبالرغم من هذه المؤامرات التى كان يديرها القنافذون المحليون فان البنا القائل بقدم واحد من فنانى القاهرة أو المديرية كهيل بحضور أبناء القرى المجاورة ، ومعهم أطفالهم ، ونسائهم ... ولكى ينجح الفنان الضيف فى أداء مهمته الشاقة ، يبنى عليه أن يكون قبل كل شيء على قسط كبير من حدة الذكاء ، وسعة الحيلة ثم يبنى عليه أن يكون بعد ذلك متمكناً من فنه ..

وقد كان زكريا أحمد ، يجمع بين التمكن من الفن وحدة الذكاء وسعة الحيلة ولذلك كان الاقبال عليه شديداً من أبناء الريف ، والمدن الصغيرة .. ولم أجد فى مذكراته التى كتبها مدينة أو قرية لم يزرها ولم يقدم فيها فنه .. ولم يستخدم فيها ذكاهه ...



ويروى الشيخ زكريا أحمد بالتفصيل قصة ليلة من تلك

البالي التي اعتاد أن ينفيا في ريف مصر .. يقرأ .. ويطرب ،
وينشد ، فيقول : دعيت لأحياء حفلة عند حسن باشا أحد أعيان
الموفية ومن هواة الموسيقى وقد كنت أحسب أن مدعويه يشبهوه
في حب الاستماع فوطدت العزم على أن أغنى لونا من ألوان
الفناء التي تحتاج الى مجهود وإتقان .

واستقبلني الباشا عند محطة القطار « بالركائب » حتى وصلنا
الى قصره ووجدنا الطعام والشراب في انتظارنا ، فاسترحنا قليلا
ثم تناولنا الضمام .

وقدما الباشا الى كبار المدعوين من باشوات وبكوات
وأعيان وكانوا جميعا يظهرون سرورهم بتقديمنا وكل منهم يؤكد
أله هو الذي أشار على الباشا باستحضارنا دون غيرنا .. وكنت
أعرف أن هذا الكلام مجاملة لأن صاحب الليلة صديقى يجب لونه
الموسيقى الذي أمارسه .. وقد تأكدت أنني سأحسن بعمول الله
الفناء في تلك الليلة وليس أحب الى الفناء المخلص من أن
يوقفه الله ...

ولم يوجه الباشا الدعوة الى هؤلاء وحدهم بل الى سكان
القرية جميعا وعلى حسب العادة في الأرياف أقبل أهالى القرى
المجاورة بشاركون جيرانهم فى أفراحهم ..

وجاء وقت الشغل وبدأنا نغنى اللون الذى يحبه الباشا ..
ولاحظت عليه علامات الطرب .. والانجم .. وفى الوقت ذاته
لاحقت وجوه الغالية المظنى من الجمهور يملوها الوجوم
والاستنكار .. فقلت فى نفسى « لعلنى غير موفق » .. وأخذت

اهتم بالفناء والباشا ومن معه يطلبون الاستزادة .. وتساءلت
 فيما بيني وبين نفسي ، ما دام الباشا ومن معه منسجما وسعيدا
 الى هذه الدرجة فما الذي جعل الوجوم يخيم على بقية
 الضيوف .. وقلت لعل هذا اللون لا يعجبهم .. فقدمت لهم لونا
 آخر ، فلم يعجبهم — واخذت اقلد كل من اعرفهم من فحول الفناء
 واحدا واحدا ..

غنيت لعبد الحامولي ..

الله يمشون دولة حنك على الدوام من غير زوال
 ويصون فؤادي من ... ماضي الحام من غير قتال
 أشكى لمن غيرك حبك أنا العليل وافت الطيب
 اسمع وداووني بقربك واصنع جميل اياك اطيب
 وغنيت لمحمد عثمان ..

خليلى أنا عبدك وسابق لك بالاحسان
 وشافك خلاف عهدك وخايف يكون هجران

والنبي ترحم

أحبك ولو تهجر وأكره عزولي فيك
 وأشكى ولم تعذر وسقى كمان يرضيك

والنبي ترحم

وغنيت لمحمد سالم العجوز ..

الأمر أمرك مش قايلك من زمان ، شوف الأدلة
 روحى فى ابدك وهبتها لك بس الأمان من دى المذلة
 يا قلب تعرف خلاصك

وغنى للشيخ على محمود ولسلامة حجازى ، ولسيد درويش
وكل ما جال فى ذهنى من كبار الموسيقيين لعلى اكتشاف اللون الذى
يجبهم بدل اعراضهم واستكارهم بما تطمح اليه نفسى من
رضاء وسعادة ..

ولكن هذه الجهود ضاعت أدراج الرياح لأن السبعة لم
يجبهم العجب .. ولما طال الوقت وبدأت أشعر بهمة السامر
دعوت الله أن يسمنى بما يرضى هؤلاء السبعة ..

وبعد انتهاء الوصلة الأولى استأذنت من الباشا واصطحبني
وهو يطيع خاطرى ويظهر سروره لتلبية دعوتى .. غير أننى فاجأته
بأن طلبت أن يحضر لى واحدا من المنين الناجحين فى هذه المنطقة
وتنسبت بهذا الطلب ولحسن الحظ كان أشهر ممن فى المنطقة
حاضرا فى السامر فأرسل الباشا فى استدعائه وقدمه لى فطلبت منه
أن يبنى لى قليلا لأتى أريد الاستماع والاستمتاع بفنه والحقيقة
اننى كنت أريد أن أعرف ما يجب هؤلاء السبعة من ألوان الفناء.

فلم يبخل الرجل وغنى .. فاذا به لا يصنع شيئا أكثر من
المراخ والزعيق و « المأمة » فأدركت السر وفى الوصلة الثانية
بدأت صارخا زاعقا على طريقة المنى اياه فاذا بالأصوات ترتفع
« الله الله يا شيخ زكريا » أيوه كده امال « وظللت هذه الليلة أصرخ
وأزرق فسروا جميعا الا الباشا والنفر القليل الذين كانوا معه
والذين كانوا معجيين بتنانى الأول — فقد لاحظت أنهم كانوا
يتأفنون ويتألمون ، فلما كان الصباح قال الباشا وهو يودعنى :
« ما عرفناش تتمتع بك يا شيخ زكريا ان كان على كده صاحبك

(يشير الى المعنى المزخرفى) كان فيه الكفاية ، فقلت له : أعمل ايه
يا باشا ، أنت كنت عاوزهم يضربولى « .. وقال الباشا : « معلش
تتموض فى المرة الجاية » .. فقلت : « بس ما تكونشى عازم دول » .
وأثبت زكريا أنه الى جانب تمكنه من فنه فانه عالم بنفسية
الجاهل .. وعندما يصل الفنان الى هذه المرحلة — مرحلة التمكن
من الفن .. والتسكن من فهم الجمهور — يكون قد قطع شوطا
كثيرا فى الوصول الى المجد .. والثمرة .. وقد بذل زكريا فى
سبيل الوصول الى هذه المرحلة الكثير من الجهد والعرق ..
والأخطاء .. وكانت ميزته الكبرى قدرته على الاستفادة من أخطائه
ومن أخطاء الغير ، ولذلك سرعان ما أخذ مكانه بين الفنانين
الأصلاء .

عُش الزوجية (أربعون عاماً من الزواج والحب)

بدأ زكريا أحد .. بخطو خطوات جبارة نحو الثمرة
والمجد .. وبدأت الحفلات تهال عليه من كل مكان في القطر ..
وبدأت الجنيهات الذهبية تجري بين يديه .. وأخذ الشيخ — بحكم
عظه — يقضى معظم وقته بين القاعات وفي المسارح .. واجتمعت
الأسرة في أكثر من مؤتمر — مؤتمر الطلبة المستديرة — وكان
البحث يدور دائماً حول زواج زكريا .. وكان الوالد ، وقد بلغت
سنه أكثر من ثمانين عاماً حريصاً كل الحرص على أن يتزوج ابنه
ليستريح ويستقر ، وينشئ أسرة طيبة يخيم عليها الهدوء .
لقد امتازت هذه الفترة بالقلق ، كان يعلم في الماضي بالمجد ..
وما هو ذا المجد قد أصبح قاب قوسين أو أدنى منه .. وكان يعلم
بالمال .. وقد أضحى المال بين يديه .. وقد تغير كل شيء بالنسبة
له : الوجوه التي كانت فيما مضى لا تلقاه الا عابرة أو شبه
عابرة .. أصبحت اليوم لا تمتد للبصافة بقدر ما تمتد للأحضان.
واليوت التي طالما أغلقت أبوابها في وجهه وهو في محنته فتحت
اليوم أبوابها ، ونوافذها ..

حتى الأب الذي طالما سخر بابه وبالاتجاه الذي سار فيه

والذى طالما أنسبه وأشبع زملاءه « نرقّة » ونكافا .. أضحى اليوم
يفخر بابنه وبالاتجاه الذى سار فيه ..

والأسرة الصغيرة التى كانت لا تطلق عليه الا لفظ « الغائب
النايب » أصبحت اليوم لا تلقاه الا بالاحترام والتبجيل ...
ولكن زكريا بالرغم من ذلك كله بل ربما بسبب ذلك كله ،
لا يبدو سعيدا ولا مطمئنا ، فبالرغم من أنه لا يخلو الى همه أبدا ،
وبالرغم من أنه لا يفارق أصدقائه أبدا ، وبالرغم من أن الابتسامة
العلوة لا تحارق شفاهه أبدا .. وبالرغم من كل ذلك فانه شمر
بضيق ووحدة .. وكآبة .. فقد كان يحس دائما بأنه فى حاجة الى
شئ ما ، ولا يستطيع أن يجزم بحقيقة هذا الشئ ..
الفراغ الهائض يكاد يقتله ..

والجوع الروحى يوشك أن يقضى عليه ..
والحياة التى يحياها طولا وعرضا وشالا وجنوبا يشمر دائما
كأنها ليست حياته هو .. وليست له هو ...
والجذور التى تربطه بالأرض الطيبة التى أنبتته تبدو له أنها
من الضعف بحيث أن أى نسة من هواء تذهب بها .. وتستأصلها .
وقرر — بعد تفكير شاق عميق — أن يتزوج .
وبحث طويلا عن عروس المستقبل .

بحث عنها فى دنيا الفنون التى سيطرت عليه ، وأخذته طائفة
مختارة فلم يجدها هناك .. وجد صديقات .. وأخوات ..
وزميلات .. ولكن ليس من بينهم من تصلح له زوجة ويصلح
لها زوجا .

وبحث عنها في الأسرة الكبيرة التي يحيى أفراسها والتي
ينشاركها اما بحكم العمل أو بالمواطف آمالها وآلامها ، ولكنه لم
يجد الا تلك التي تريده لنسابه .. فقط لنسابه .. وتلك التي
لا يطمح فيها أحد الا لمالها .. فقط لمالها .

وبحث عنها في أسرته الصغيرة سواء في القاهرة أم في الفيوم
ولكنه لم يجد من تصلح له .. ولم يجد من يصلح لها وفي الحق
كان مطلبه عمرا .

انه يريد زوجة من طراز جديد ..

يريدها .. اما وأبا ، وأختا ، وأخا ، وزوجة ، وعشيقة ، يريد
ذات قلب كبير ، واحساس كبير ، وإيمان كبير .. انه يريد
دائما الى جانبه ، سواء أكان يتربع على عرش المجد ، أم يهوى
في القاع ، وسواء أكان يملك مال قارون أم لا يملك شيئا
على الإطلاق .

انه بحاجة الى امرأة تثق فيه جلة لا تفصيلا .. لا تسأله أين
ذهب ؟ .. أو لماذا غاب عن منزله ؟ .. ولا تستجوبه عن كالت معه
بالأس ، ولا قلب اليت مائتا اذا ما سألت عنه احدا من
بالتليفون ..

يكفيها أنه سيكون لها ، ولها وحدها ، من اليوم الى آخر
يوم ، لن يخونها لن يفسن عليها بشئ . ولن يحاول أبدا أن يسيء
اليها أو يسمح لأحد بالاساءة اليها .. وهو بحاجة الى عجيبة طرية
يسهل تشكيلها وتكوينها .. وتلونها ..

والغريب انها كانت أمامه وهو يبحث عنها ، تقدم له الشاي

لذا أصبح .. وتقدم له الغذاء على المائدة . وتسر وياها الى الوقت
الذى تمام فيه . واستغرب من نفسه كيف لم يفكر فيها من قبل
وتذكر المثل : « ابني على كفى وأدور عليه » .

وكانت لا تتعدى الحادية عشرة من عمرها صغيرة ساذجة ،
لا تعرف ماذا يدور حولها ؛ بل لا تعرف ماذا يدور من أجلها ..
وكانت شقيقة زوجة أستاذ الأول درويش الحريري .

وتحدث في أمر الزواج مع أستاذة الشيخ درويش ورحب به
كما رحبت ، وبدأ عام من الترقب والانتظار .

وذات يوم سمعت الطفلة الصغيرة أصوات طبل ومزمار وغناء
فوق السطوح حيث تمودت الأسر أن تهيم أفراحها .. وتظاهرت
بأنها سوف تصعد الى السطوح « لتلم الفسيل » .. وبالرغم من
أن الملابس لم تكن قد جفت بعد .. فقد أذنت لها أختها الكبيرة ،
وجلست هانم بين المتفرجين لتستع تمسها بالرقص البلدى ، والغناء
البلدى .. وأعجبها قول المطرب :

« طلعت فوق السطوح بودع الأحباب

لاقيتهم سافروا ومقفلين الأبواب

حطيت ايدى على عقلى لقيته غاب

وحطيت ايدى على قلبى لقيته ، داب

ما يدوب القلب الا فرقة الأحباب »

ونسيت الطفلة الصغيرة البيت .. والفسيل .. وموعد عودة
الخطيب ، وجاء ذكرها أحمد الى البيت وكعادته دائماً سأل : أمان
فين هانم ؟ .. وقالت له أختها « دى فى الحمام » .. وبدأ على

الشيخ انه اقتنع .. وخرج لتفاه مهمة فى الخارج .. وينا هو فى
طرقه الى الشارع سمع صوت قديمها وهى تنزل من فوق
السلالم ..

وجاءت هانم وممها النسيل فتضايقت اختها من تأخيرها
وقالت لها : « كويس .. أهو خطيبك جه ، وسأل عليك وأنا كذبت
عليه وقلت فى الحمام علشان ما يزغش لك .. ؟ » .

وعندما رجع زكريا جلس مكتئبا على مائدة العشاء .. وكان
الطعام الرئيسى سمكا مقليا .. وهانم تحب السمك المقلى .. غير
أن حكاية السطوح والحمام والكذبة التى اقترفتها اختها الكبرى
قد سببت لها ضيقا شديدا جعلها لا تجلس الى مائدة الطعام .

وبعد انتهاء العشاء .. سأل زكريا — بعد أن اقرء بغفطيته —
عن المكان الذى قصدته عندما جاء ولم يجدها .. فقالت له : « كنت
فى الحمام » .. وضربها بالكف على وجهها .. وأمرها بأن تقول
الحق . وقالت الحق .. وابتهج زكريا بكلمة الحق .. ومالها
وأحضر لها قدرا كبيرا من الحمص والفول السودانى ، والهريسة ..
وقال لها : « أوعى تكذبنى مرة ثانية .. أنا ضربتك مخصص
علشان ما تعلمين الكذب » . ولم تكذب مرة أخرى طول حياتها ..
وذاة يوم طلب زكريا أن يأكل « عجة » من صنع يد خطيبته ..

ولمعه أراد أن يتنحنق مقفرتها على الطبخ .. وذعبت هانم الى
اختها لتلقى على يديها درسا فى صنع « العجة » .. وبعد أن انتهت
الأخت من شرح الدرس .. سألتها هانم : « بس ازاي الواحدة
تعمل وش العجة أحمر » . وقالت الأخت الكبرى « لازم الواحدة

تشمل ورق من فوق الحلة ، وذهبت هانم الى المطبخ وعملت
« المعبة » وجمعت كل ما تركه خطيبها من أوراق وجرائد ونونات
موسيقية كان يحتفظ بها لأهيتها القموى عنده — واتخذت من
هذه الأوراق الهامة مادة « لتحبير » المعبة .. وشاظت المعبة ..
وضاعت الأوراق الهامة ..
وكان يوما ...

وفي ٢٠ أغسطس ١٩١٩ تم الزواج . وكانت حفلة الزفاف
بسيطة للغاية . أقيمت في حي الأزهر ، وحضرت الحفل قوة من
رجال الجيش لأن زوج أخت الشيخ زكريا كان ضابطا برتبة
صاغ ... وأحييت الحفلة العالمة المشهورة « فلة » وكان يطلق عليها
لقب « سلى » ويمارضا بعض السيدات يمكن بالطبلة ، والطار،
والرق ، والعود .. وغنت فلة ..

بنى ياسمك بنى يا منقرش ومحبنى
مول لبلى وأنا باموت وحاملة رأسى على التابوت
باستنى حبيى بموت لأجل يروح الزعل منى
واشترك فى فرح زكريا أحمد ، عدد كبير من مشاهير
الموسيقين ، والطربين .. والمثدين وطالب الجمهور زكريا أن
يننى شيئا ما .. ولكنه اكتفى بأن قرأ القاتحة .

واتممت حفلة الزفاف فى مطلع الفجر ...
وأصبحت له زوجة ، كما يحب ويرضى ...
وأصبح هو لها ، كما تحب ، وكما ترضى ...
وابتهج والد زكريا بزواج ابنه .. وابتهج أكثر عندما علم أن

زوجة ابنه حامل .. وصار يزورها كل يوم حاملا معه الهدايا ..
والأحبة والبخور .. والدعوات .. وكانت دعوات الشيخ آتاه
الليل وأطراف النهار أن يرزق ابنه زكريا ولدا يحمل اسم الأسرة ..
غير أن الله لم يلب دعاءه فلقد كانت القادمة بتا في ١٤ سبتمبر
سنة ١٩٢١ وغضب الوالد الكهل وقاطع بيت ابنه .. وتزوج وهو
الذي جاوز الثمانين من عمره فتاة في السابعة عشرة من عمرها ..
واختار لنفسه سكنا في مكان قاه يصعب الوصول إليه ..
وذهب زكريا وزوجته الى الوالد فأبى أن يكلهما وأبى أن
يستقبلهما في منزله ..

وماتت الطفلة برلتي بعد شهر ونصف شهر من ميلادها وكان
الشيخ زكريا قد أطلق على ابنته اسم برلتي كريمة السيوف باشا
وكان الشيخ يعطيها درسا في الموسيقى ..

وابتهج الشيخ العجوز بالقدر الذي ابتأس به الشيخ الشاب ..
وبدأت قدم الشيخ العجوز « تدب » في دار الموسيقى الشاب
وعادت الابتسامة الى فم الكهل الذي لم يعرف الابتسام منذ أن
رزق الله ولده زكريا بأبى .. ثم تحققت للشيخ الكهل أمنيته
عندما رزق الله ابنه زكريا بمولود أسماه يعقوب ..

ابتهج الشيخ أحمد صقر هذا الحدث الفخم في تاريخ
الأسرة ووزع الصدقات وأقام في البيت « رابعة » اشترك فيها
أكثر من عشرة فقهاء .. وشرغ لتربية الطفل الصغير ..

ثم طلق زوجته الجديدة ، ابتهاجا بمقدم الطفل الجديد ...
وكان والد زكريا ، لا يرتاح الى انسان قدر ارتياحه لزوجة

ابنه ، كانت بنتا له .. وزوجة لابنه ، وكانت أكثر الناس اهتماما
بشأنه واعزازا له ...

وكان زكريا قد ابتدأ يجد سعادة لا مثيل لها في البيت الهادئ .
والتوفيقى . ولكن الخصوم — خصوم زكريا — أبوا الا ان
يحشروا أنفسهم بنخب ومكر وحقد بين زكريا وبين زوجته .
وقد اتخذ هؤلاء الخصوم سلاحا جديدا لاثمال النار
في بيت زكريا .. فلعل اثمال النار في هذا العش الهادئ ..
يموق زكريا عن مواصلة النجاح .. والانطلاق ..



ولبدأ القصة بشئ من التفصيل ...
انقرمت المغنية (س) بزكريا أحمد ، غراما لا حد له وراحت
تباهى ، بأنه يحبها .. وأنها تحبه .. وأرسلت الوفود تلو الوفود
الى الزوجة المخلصة الوفية تحمل اليها أنباء الغرام الجديد ..
واتفقت (س) مع خادمتها على أن تذهب الى هانم زوجة زكريا
كل يوم ، وتطلعها — خلسة — على صور زكريا مع المغنية كما
تحمل اليها في الوقت ذاته أخبارا عن علاقة زكريا بها وعن زيارته
للتكررة لها في منزلها ، وعن هداياه التى يحملها لها كل يوم وعن
الأيام التى يقضيها هو وهى خارج القاهرة وعن ... وعن ...
والزوجة الشابة ، هادئة ، لا شور ، ساكنة ، لا تحرك ،
تبسم للأنباء الجديدة وترجو للمغنية المحبة الهداية والتوفيق ...
وهى في الوقت ذاته ، لا تتوالى عن اهداء النصح الى الخادمة

وتمطيها كل ما هي في حاجة اليه ، ونفسرها بحبها ، وعظمتها
وحنانها ...

ونشرت مجلة المسرح في أول نوفمبر ١٩٣٦ ، تحت عنوان
« مذابح الغرام » مقالة على صفحة كاملة جاء فيها ..

« اذا كان القراء يذكرون فلا أعلن انه غاب عنهم أنا في يوم ما
أشرنا الى وجود علاقة حب قائم بين صديقنا الشيخ زكريا أحمد
الملحن وبين السيدة المغنية المعروفة وقد اقترحنا اذ ذاك أن يتحد
الاثنان فهو يلحن لها وهي تغني الغناء فيكون ذلك أنجح من
الوجهة المادية .. قلنا ذلك منذ حين ، فقام الشيخ زكريا ينكر هذه
العلاقة ، ويقول ان صلته بها لا تتعدى صلة العمل أو المعرفة
المجردة من كل صداقة أو رابطة أخرى مجهولة ...

ونحن لا يهمنا بحال من الأحوال أن تكون بينهما علائق
أو لا يكون وانما يهمنا أن نروى خبرا فلا يكون كاذبا ولا يقوم
دليل ينقده .. لأن من عاداتنا ألا نشر خبرا قبل أن تثبت من
صحته ، وقبل أن تجتمع لدينا الأدلة وتتوافر البراهين على صحة
ما نروى حتى اذا كلفنا يوما ما بالاثبات كنا على استعداد تام .
وقد قلنا ان الشيخ زكريا قام اذ ذاك ينكر دعوانا واليوم جاءني
سائل يذكرني بهذه الحادثة ويقول انه سمع الشيخ زكريا ينكر
معرفة السيدة (...) في محل عام .. ويطلبني هذا السائل : اما ان
أثبت وجود العلاقة كما سبق أن ذكرت واما أن أقدم بيانا وتكذيبا
لما نشرته سابقا ...

ازاء ذلك وازاء العاح السائل لم أجد بدا من نشر هذه الصور

بعلی هذه الصحنفة فالصورة العلیا تمثل السیة (...) المنیة
المروفة وبطلة هذه الوقائع ولا لزوم للحدیث عنها فی هذا المجال
الضیق ، والصورة الوسطی تمثل الشیخ زکریا وقد وقف الی
جانب السیة (...) ولا أحدثک عن ملامح الوجه ولا خلجات
النفس ، البادیة علی المشاعر .

أما الصورة الثالثة فهی رسم قلب فی أعلاه الشیخ زکریا أحمد
وفی وسطه السیة (...) وهی تکر فیة طویلا ..
هل تریدون اثباتا أكثر من هذا ... ؟ » .

ولم أنشر هنا اسم المنیة المروفة .. أما نشر الموضوع فقد
أحدث حویا فی الوسط الفنی وراح کثیرون یتصورون لزکریا ..
وآخرون یتصورون لهجوم المجلة علی زکریا .. وتوقع کثیرون أن
تحدث زوبعة عنیفة فی منزل زکریا أحمد .. ولكن شیئا من ذلك
لم یحدث علی الاطلاق ... وكان أن اعترفت (س . ف) خادمة
المطربة المروفة لزوجة زکریا أحمد ، وروت لها القصة من ألفها
الی یائها .. وکیف كانت سیدتها تدفعها لمقابلتها حاملة معها کل
یوم الأخبار الکاذبة والصور الکاذبة ... وروت لها ایضا أنها لم
تر زوجا زکریا فی بیت المطربة مرة واحدة .. وقد قدرت هانم
زوجة زکریا للخادمة هذا الصنع .. وساعدتها علی أن تمزول
الخدمة وتفرغ للفن الذی کانت تمیل الیه .. وقد تهوقت علی
سیدتها .. وأصبحت الخادمة بعد سنوات قليلة نجمة من نجوم
الفن ... فی الوقت الذی انزوت فیة سیدتها ...

وجاء الی زوجة زکریا فیما بعد من یعترف لها . بأن الصور

التي نشرت في مجلة المسرح .. كانت صورا مزورة ، وأن القصة كلها لم يكن لها أساس من الصحة ...

وقد ارتاحت الزوجة لظهور الحق .. وإن كانت لم تسك لحظة واحدة في زوجها ...

واتصرت الزوجة الصابرة على كل الأقاويل والاشاعات وبقيت لزوجها .. وبقي زوجها لها ...

لقد كانت زوجة مثالية تقدر تمام التقدير رسالة الفنان ورسالة زوجة الفنان ...

لقد عاشت هانم الى جوار زكريا تحتضن أحلامه .. وتقفز معه أسوار الزمن وتنتقل في ذكاه عبر المراحل التي قطعها الشيخ زكريا من عضو في بطانة الشيخ درويش الحريري والشيخ سكر الى ملحن يتقاضى عن الأغنية الواحدة ٧٥٠ جنيها .. وكما تطور الشيخ زكريا تطورت هي في مداركها وفي أفكارها وفي ظروف حياتها .. كانت تجلس مع أصدقائه ، وزوجات أصدقائه وتحدث في الفن والتشؤون العامة تماما كما يتحدثون .. نفس المستوى من اللباقة والذكاء وخفة الروح .. وكانت المواقف تهب على حياة زكريا بين العين والحين .. كان يملك العشرات في يوم ثم يضيعها في اليوم الذي يليه .. وذات يوم قال لها الحاج محمود المرشدي أحد أصدقاء زوجها . « يا بنتي الشيخ زكريا ايده سايبه ، لعمري حسابك لليوم الأسود .. ووفرى القرش الأبيض » وعملت الزوجة الذكية بالنصيحة ...

وعرف زكريا لها هذا الصنيع الذي وفر عليه كثيرا من المشقات

وجبه كثيرا من المآزق فقد وجد في الأيام السود ما يحفظ كرامته..
وأذكر اننى زرت زكريا في لحظة كان قد هجر فيها الدنيا ...
ترك تلحين الأغاني وابتعد عن أهل الهوى من الأصدقاء والزملاء ..
وكنت أريد أن أنفذ الى السبب الذى يخفى وراء هذه العزلة ...
ثم عرفت ..

كانت زوجته مريضة . وقد آلى على نفسه ألا يغادر البيت
إلا بعد شفائها التام وهكذا حبس زكريا بأحد نفسه أسبوعين
كاملين لم يكن يغمض له فيها جفن ..

وعندما تم شفاء زوجته خرج الى الأهل والأصدقاء بصافح
الدنيا وكأه ولد من جديد . والشيخ زكريا الرجل العنيد .. والمعتز
برأيه في كبرياء ... الرجل الذى وقف بكل إيمانه وتحديه في وجه
أربع صحف كبرى وفي وجه الأذلة وهى مصدر رزقه لم يكن
يستطيع أن يجد في نفسه القوة لمواجهة زوجته في رأى تراه
خاطئا وخاصة إذا اتصل ذلك بصحته .. نعم كان الشيخ زكريا
يخاف زوجته ، كان خوفا مصدره الحب .. ومبعثه الاشتاق ...
فصح الأطباء بعدم التدخين وألح عليه أصدقاؤه ولصحوه بأن
يكف عن هذه العادة التى تضر بصحته ولكنه أبى .. كان يدخن
أمامهم علانية فإذا ما ذهب الى البيت وأتمل سيجارة وعرفت
زوجه دبرت وأولاده مكيدة للشيخ : أعدوا الملة لأن تضع
أمامها فنجا من القهوة حتى إذا جاء الشيخ أشعلت سيجارة
وراحت تلخنها .. حسبوا أنه لابد أن يثور فتقول الزوجة ..
ولماذا تدخن أنت ؟ كما حسبوا مرة أخرى أن النتيجة ستكون هى

اقلاع الشيخ عن التدخين وعاد الشيخ زكريا ورأى فنان القموة
أمام زوجته واليجارة بين أصابعها فلم يثر .. فقال بلمجته
العلوة :

الم أقل لك ان طعم السجائر لذيد ... ؟
واعترفت الزوجة ... واعترف الأبناء بغفطهم ، أو مكيدتهم
وضحك الشيخ زكريا وأقلع عن التدخين ...



ولا شك ان السر في نجاح زكريا أحمد يعود الجزء الأكبر منه
الى هذه السيدة ... الذكية ، المتطورة التي ترى الحياة للفنان
بقلمها الكبير ، وتدب خطاه بتفحيتها وإيثارها ، وتعتمد منه من
الشفح الى القصة بعزيمة لا تضعف وإرادة لا تلين .

والزواج الناجح مهته عيرة بالنسبة لكل امرأة .. انه في حاجة
الى كفاح ووعى وبذل وتضحية ... هذا اذا تزوجت المرأة من رجل
عادى فما بالك اذا كان الزوج عبقرى لا يخضع للنظام ولا يرضى
التقاليد ويأبى أن يطوى جناحه في قفص حتى ولو كان هذا
القفص من الذهب الخالص ...

ان مهمة المرأة في هذه الحالة ستكون أصعب وأشق .. سيكون
عليها أن تقف في وجه طبيعتها كآثى ، تغار على زوجها وتشور
لأفوتها .. وتغضب لكرامتها ...

ان بيت الفنان هو دائما كعبة تتطلع اليها أنظار المعجبين
والمعجبات وهو يستقبل كل يوم وفي كثير من الأحيان كل ساعة

اعدادا كبيرا من الناس من بينهم نساء قادرات على ادارة الرموس
وتغيير مجرى الحياة ...

وعلى الزوجة ان ترى كل هذا وتسكت ... بل عليها الا تكتمى
بالسكوت ... بل ان ترهب ..

والفنان بحكم عمله او بحكم الظروف التى تحكم هذا العمل
يسهر خارج البيت ويتناول طعامه بعيدا عنه ... وعلى الزوجة
ان ترضى بكل هذا ولا تتكلم ... بل عليها الا تكتمى بالاقرار
للزوج بهذا الحق ...

وهكذا يكون العبد الذى يقع على زوجة الفنان قتيلا مرهقا.
ولذلك كان نجاح الزواج فى الوسط الفنى ، نادرا أو أقل
من النادر ...

وقصة زوجة زكريا أحمد وزواجه هى احدى القصص النادرة
فى بيوتنا الفنية انها قصة زواج ناجح فى بيئة عاصفة قل أن ينجح
فيها زواج ...

لقد سمعناها اكثر من مرة ، تروى الأيام التى عاشتها معه
والتي كانت لا تجد فيها الدواء للأولاد ... والتي كانت لا تجد
فيها القوت الضرورى ... وهى تعلم أن كبرياء زوجها هو الذى
سبب ذلك كله ... وهى تعلم أن حرص زوجها على كرامته هو
الذى اثار هذا كله ... ومع ذلك لم تقل له كلمة .. تسفه فيها
رأيه ... أو توجه اليه لوما ما ...

كانت دائما الى جواره فى السراء والضراء والفنى والجوع ...
والصمود والهبوط ، اذا تنكر الناس له جميعا بقيت هى ... واذا

خاصه الناس جميعا فالها وحدها تصالحه ... واذا أفقرت يده
من المال .. فان نظرة واحدة اليها تمنحه السعادة ...
ولهذا فقد دام الزواج بل دامت قصة الحب التي ربطت
بين الزوجين أربعين عاما كاملة ... كان أول يوم فيها تماما كآخر
يوم .. سعادة .. وانسجام .. وحب قوى .. ذكى .. فعال .

الفن في ثورة ١٩١٩

في خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) بذلت بريطانيا كل ماتملك من جهد وأموال ومؤامرات للقضاء على كل مقومات البلاد .. وجعلها قطعة لا تتجزأ من الامبراطورية البريطانية التي لم تكن النمس تغرب عن ممتلكاتها وقتئذ واستوزرت بريطانيا عددا من الشخصيات التي اتسب بعضها زورا وبهتانا الى مصر وكان رئيسهم « صاحب عطوفة » فأصبح يحمل « صاحب الدولة » وكان الوزير يحمل « صاحب سعادة » فأضحى « صاحب المعالي » ... ومن طريق هؤلاء تم اعلان الحماية البريطانية على مصر ، وعلان الأحكام العرفية للانتقام من شعب مصر .. كما تم تخويل القوات البريطانية حقوق الحرب في الأراضي والمواني المصرية وهزئت بالقوة والعنف الرقابة على الصحف وقوانين منع التجمهر وملا الوزراء المصريون السجون والمعتقلات بالأحرار من المواطنين المصريين وحتدوا ١٧٠٠٠٠ ر ١٧٠٠٠٠ مصرى في تلك الفرقة التي سوها فرقة العمال والجمالة ... وجمعوا من الريف المصرى ١٢٠٠٠٠ مصرى ساقوهم الى الميدان بلا غذاء ولا دواء ولا غطاء ... ودفعوهم في مقدمة القوات المحاربة ... ثم أهدى هؤلاء الحكام ثلاثة ملايين ونصف مليون من الجنيهات الى

الحكومة البريطانية التي بادرت ففرضت حمايتها على مصر ...
وتنازلت وقبلت أن نحتلها ، وتستنزف ثمارنا وأموالنا ...
ولم يستقل احد من الوزراء أو كبار الموظفين أو اعضاء
الجمعية التشريعية احتجاجا على هذه الأعمال العدوانية وعاش
الوزراء المصريون وكبار الموظفين ينعمون بكل شيء في ظل
الاحتلال البريطاني نعموا بالمرتبات المفرية ... والمناصب الكبرى ...
عاشوا وماتوا .. بل ماتوا قبل أن يعيشوا ... عاشوا اساء ...
وماتوا فعلا ... خونة ... خونة .

ولم تستطع وسائل الكبت والضغط والارهاق التي استخدمتها
سلطات الاحتلال ان تقضى على كل منفذ من منافذ حرية
النمب ... كما لم تستطع الوسائل التي استخدمتها دعاة
الاستعمار ، وأذنافه ، لتفليل النمب وثر راية اليأس في كل
مكان ، لم تستطع كل هذه الوسائل القضاء على مقومات شعب
مصر وامكانياته ، والحيلولة دون تحرره وانطلاقه ... وكان الفن
نافذة من النوافذ التي فتحها النمب يستشق منها الهواء الطلق
الحر ، وعرف سلطات الاحتلال ، مدى أهمية هذه النافذة الهامة
فبذلت كل امكانياتها لاغلاق هذه النافذة ... واستولت على كئسكين
للموسيقى في الازبكية كانت الجماهير تلتف حولها في المواسم
والاعياد للاستماع الى بعض الوان الموسيقى ... بل استولت على
حديقة الازبكية نفسها . وكانت أهم رئة للفن في ذلك الوقت
وخصصتها طوال مدة الحرب للجند الانجليز ... ثم اغلقت
معظم محال الفناء والرقص ، والملاهي وفرضت اقامة اجبارية على

بعض المطربين ، والمثدين ، من المصريين ووضعت رقابة شديدة
وسخيفة على كل الأغاني والروايات والفكاهات ، وعندما غنى
سلامة حجازى فى رواية شهداء الفرام :

« زمن يعلمنا الفجور ملوكه فيه وآثام الخنا ملكانه .. »
قامت ضجة عنيفة وهددت الحكومة الشيخ سلامة حجازى فى
حرته كما هددت بإغلاق مسرحه الى ان تم تعديل البيت على
النحو التالى :

زمن يعلمنا الفجور شيخوخه فيه وآثام الخنا مسانه
وعندما ما عزلت بريطانيا الخديو عباس حلى ، وولت مكانه
عمه السلطان حسين غنى الشيخ سلامة حجازى فى رواية
هملت :

عم يخون وأم لا وفاء لها أم ولكن بلا قلب ولا كبد
واستدعى سلامة حجازى الى البوليس للتحقيق معه وطلبوا
منه استبعاد هذا البيت من الرواية وقد تم ذلك فى الليلة التالية .
وعندما قدم على الكسار وأمين صدقى رواية « ليلة ١٤ »
لاجازتها ، تدخلت الرقابة بصورة سخيفة وجملت اسم الرواية
« القضية رقم ١٤ » ويصف الدكتور فؤاد رشيد هذه الفترة
فيقول : لقد فرضت قيود شديدة على الاضامة وحددت الساعة
الحادية عشرة مساء كاقصى ميعاد للعمل بالمسارح والملاهى
وامتلأت الشوارع بالجنود البريطانيين وفرضت رقابة شديدة
على الصحف والروايات المسرحية كما حذفت كثيرا من المشاهد
فى كثير من الروايات بحيث تركتها مبتورة لا تصلح للعرض وخلال

تلك الظروف اضطرت النفوس وتهيب الناس السهر وتوقع الجميع للمرح كسادا كبيرا .

ثم قامت ثورة ١٩١٩ لتحرر البلاد من الاحتلال .. والظلم.. ولتزيح الكابوس الذى ظل جاثما فوق صدور البلاد قرابة أربعين عاما ... ولتقضى على الولاء للأجنى الذى صار شعار الحاكمين ، وبعض المحكومين ، ولتنقذ البلاد من التصاد الذى أصبح الطابع المميز لكل ناحية من نواحي الحياة ولتحرر البلاد من الذل والتفاق الذى امتزج بالدم واللحم .. ثم ليرد للبلاد هيبتها التى ضاعت وحقوقها التى اغتصبت وكرامتها التى دبت .. ووصفت السيدة روزاليوسف أثر هذه الثورة فى الفن فقالت : « تابعت الأحداث وكان اعتقال السلطة الانجليزية لسعد زغلول وقهيه الى عالطة القارة التى هزت كل انسان ... فأغلقت الحوانيت وأضربت المواصلات من الترام الى الحميم التى كانت وسيلة شائعة من وسائل الانتقال .. وانطلقت المظاهرات من كل مدرسة وكل وزارة وكل شارع تهتف كلها بالاستقلال التام وبحياة سعد وبدت البيوت كأن أهلها هجروها الى المصعة كلها مغلقة صامتا تحمل على أبوابها وجدرانها ، قهوشا تمثل العلم المصرى وشعارات تصرخ بحياة الاستقلال وسقوط الانجليز .. وزحف الجنود الانجليز بأسلحتهم وخوذاتهم الى كل حارة من حواضر القاهرة وأصبح الصوت الرتيب فى شوارع القاهرة هو صوت طلقات النيران .. ومضت المسارح تمارس عملها فى هذه العاصفة ووقف المشلون على

المرح يؤدون أدوارهم وأصوات الرصاص والتقابل في الخارج
تغطى عليهم والصالة ليس بها الا مترج أو اثنان وقد يفتح الباب
فجأة ويندفع الى الداخل شبان من الثوار يسرعون الى الاختفاء
من مطاردة الانجليز في حجرات المثلثات وخلف ستائر المسرح ..
ويحتفظ المشلون بهدوء أعصابهم لمقابلة الجنود الانجليز واقناعهم
أن أحدا لم يدخل .. وقرر القناصون يوما أن يقوموا بمظاهرة أسوة
بسائر الطوائف في مصر .. كانت المظاهرات متنوعة ولا تقابل
الا باطلاق النار .. وكانت كل مظاهرة تخرج ، وقد استعملت
للمودة بعدد من القتلى والجرحى وفي الساعة المحددة خرجت
كل فرقة من المسرح الذى تعمل فيه .. وقد حملت علما كبيرا ،
والتقت الفرق كلها في ميدان الأوبرا أمام فندق كوفنتال .. وكان
في السائرين جورج أبيض وعبد الرحمن رشدى وعزيز عيد
ونجيب الريحالى وزكى طليعت ومحمد عبد القدوس ومحمد
يمور وكل من كان يعمل في المارح مثلا أو مغرجا أو عاملا
وكان بعضهم يلبس ملابس عربية وبعضهم يلبس ملابس فرعونية..
وقد تمت المظاهرة عربة حنطور تركبها الممثلان الوحيدتان في
المظاهرة المثلة الناشئة تحمل علما والمثلة ماري ابراهيم ومعها
في العربة الأستاذ عبد الحليم الفمراوى المحرر بالأهرام ، وكان
مديرا المسرح بريتانيا .

وتجمع حول المظاهرة خلق كثير .. وسارت قطع ميدان
الأوبرا ومن حولها تسمى جنازات الشهداء وصيحات الجماهير
وتحت تمثال ابراهيم باشا مباشرة رأت المثلة الناشئة جندين

الشارع من مصرى .. وقد لطف منها دم غزير .. واتجهت المظاهرة
الى شارع عدلى .. ولم تكذب سير فيه حتى تصدى لها جنديان
الجليزيان ومشت المظاهرة .. ورفع أحد الجندين بندقيته وصوبها
الى الفتاة الناشئة حاملة العلم ونجست الفتاة الناشئة من الرعب ..
وشعرت بخوفة تغمر جسدها .. وأحست كأن رصاصه قد
انطلقت واخترقت ظهرها فعلا فتثبتت بالعلم وكأنها تستند اليه ..
ولم يكن قد أصابها في الواقع شيء من هذا الذى صورده لها
الفرع .. وقد تبينت فيما بعد أن الجندي الانجليزى لم يكذب برفع
بندقيته حتى عاجلته رصاصه من أحد النوار المصريين كان مغتبا
في شارع جانبي صغير متفرع من شارع عدلى ..

وأسرعت المظاهرة الى مسرح برتاليا ..

ولم تكن المسئلة الناشئة التى أشارت اليها روزاليوسف فى
كلمتها الا روزاليوسف نفسها ، اذ كانت فعلا وقت الثورة ممثلة
ناشئة .. !!



ولعل أجمل ما كتبه ذكرى فى حياته تلك الكلمات النابضة
بالحياة التى حلل بها دور الفن فى ثورة ١٩١٩ — قال ذكرى بعد
أن كتب مقالة رائعة عن الفن فى ثورة سنة ١٨٨٢ .
« كان طبيعيا أن يكون أهل الفن فى مصر من أسبق المواطنين
الى مكافحة الاحتلال الأجنبى والى الثورة ضد الظلم ايا كان ..
ذلك لأن الفن — فى أى زمان وأى مكان — من لوازمه الحرية
الكاملة ولا حياة له الا بها .. ولأن الفنان بطبيعة عمله أرهف

حسا ، وأعق شمعورا بفضاضة الظلم وآلام القيود . وهو لذلك أسرع ضيقا وتبرما بكل ما يعوق انطلاقه ، وبكل ما يسي مقدساته من المبادئ والمثل العليا ..

وفي تاريخنا الحديث ، صفحات لا يحصى عددها ، سجلت لها مواقف ومآثر لطوائف القتالين ، تعد مثلا في قوة الوطنية وصدق التضحية والعمل بحماسة لاعلاء كلمة الحق ، واتخاذ الشعب من سالى حريته ومستغليه ...

كان للثمن « مثلا » دور كبير في ثورة عرابي ضد استبداد الحكام الدخلاء وأكلهم حقوق الشعب بالباطل ثم ضد التدخل الأجنبي المسلح الذى انتهى بالاحتلال البريطانى البغيض ...

تجلى ذلك فى الصور والرسوم الفنية التى ملأت بيوت أفراد الشعب وملأت ميونهم وقلوبهم لعجابا بقائد الثورة وإيمانا ببطولته وزعامته .. وتجلى فى الأناشيد والقصائد والمواويل والأزجال الحامية ، التى وضعها شعراء الثورة ورددها المنشدون والمغنون فى مختلف أنحاء البلاد وسرعان ما ردها معهم عشرات الألوف من المواطنين التحسين الذين تطوعوا للجهاد تحت راية الثورة وبايعوا قائدهم على الاستماتة فى الدفاع ..

ولم يقف أثر الفن عند هذا الحد ، حد استثارة الهمم والغزائم للتطوع فى جيش الثورة والتبرع له بل جاوزه الى ميادين المعارك المدينة بين جند الثورة وجند الاحتلال .

كان الشعب فى خطوط القتال وفيما وراءها يغنى أناشيد الثورة وأهازيجها فتزداد روحه المعنوية قوة على قوة وتشد تفته

بنفسه كما يشتد سخطه على الاحتلال وأعوانه .. فالفلاحون في
حقولهم والعمال في مصانعهم والطلبة في مدارسهم وغيرهم وغيرهم
من أفراد الشعب يتفنون بلحنها المشجي السهل كالزجل الذي
يقول فيه :

بدان ما أقلد أودى في ألكى ونسرى

كانت بلادنا لنا جنة ولها شنة وورنة

صبحت لأهلها نيران

وكان جنود الثورة ينزلون الى ميادين القتال وقد تزودوا الى
جانب أسلحتهم البسيطة بذخيرة قوية لا تفد ما استموا له من
ترتيل آيات القرآن المجيد التي تحض على الجهاد وتبشر المجاهدين
بأعظم السرجات عند الله ، ومن انشاد القصائد الدينية والوطنية
بأصوات بعض اخوانهم المتطوعين :

وفي كل مكان من أنحاء البلاد كانت مواكب الشعب الثائر
لا ينقطع سيرها ، ولا ترددها الهتافات المدوية الملحنة ، تمجيدا
لأبطال الثورة والدعاء لهم بالنصر على الأعداء كقولهم :

يا عسراى الله ينصرك

بجيش المؤمنين

يا عسراى بكره عسكرك

يكيدوا المجرمين

وحينما انتهت ثورة عراقى تلك النهاية الأليمة بسبب القدر
والخيانة وبعد أن أمعن المحتلون وأعوانهم في التنكيل بقيادة الثورة
وجنودها بقى كثير من الفنانين يؤدون دورهم الكبير في تضسيد

جروح الشعب وتعبته قواه من جديد ضد أعدائه فمن مواويل
لفنى على الأرغول تحدث بقصة الثورة وبطولة قادتها ومن قصائد
تشهد في حلقات الأذكار وغيرها لتذكير الناس بحقوقهم الضائعة
واعدادهم للتأثر والانتقام ومن ذلك قصائد حماسة للبارودي
والنديم وأحمد عبد الفنى وأحمد المليجي ويعقوب بن صنوع
وغيرهم ، وللأخير قصيدة سماها « القول الوجيز في دخول
الانجليز » نشرها في مجلته « أبو نضارة » ولحنها الشعب
وغناها .. وفيها يقول :

يا راوى الدهر حدث عن أبى العجب
وانتب زمان التصالي يا أخا العرب
ما بين جبل وحقد ضاع مؤددا
واستأملتنا يد الارزاء والكرب
هذا المزيّر تخلى عن سيادته
للانجليز ولم يقبض سوى الكذب
مصر الفتاة أبو سلطان سلمها

والما سلم الاسلام بالذهب
وحينما قام الزعيم الشاب : مصطفى كامل مطالبا بجلالة المحتلين
منندبا بأعمالهم الوحشية في دنشواى كان الفنانون من الأدباء
والشعراء والرجال والمثقفين والمثاليين في مقدمة من هبوا لتأييد
دعوته وترسم خطاه في مكافحة الاحتلال وإذنا به وتأييب الشعب
ضدهم ثم كان انتصاره على كرومر عيد الاحتلال وكان اخراجه
من مصر فرصة طيبة لمضاغة كفاح الفنانين في سبيل الحرية

والاستقلال . فلما اختار الله مصطفى الى جواره كان موته بعنا
للأمة كلها من مرقدها ، ونهوضا بها من كبوتها .. وفي موت الزعيم
وسيرة حياته أنشئت قصائد ومواويل وأزجال وقصص منظومه
ونبارى القناون في نلحينها وانشادها وحفظها وترديدها بحماسة
واعجاب في مختلف المناسبات .

وأحد المواويل التي خطتها الشعب منذ ذلك الحين يعزو — في
صراحة مؤكدة — موت مصطفى كمال الى تأثيره بسم قاتل وضعه
المحتلون ليتخلصوا من الحاحه في مطالبتهم بالجلاد .. ومن اللهار
العالم كله على فضائحهم ومغازيهم الاستعمارية .. ولا تزال لهذه
الانشاعة السياسية المقصودة مكانة الحقيقة الراسخة عند كثيرين
من أفراد الشعب لكثرة ما سمعوه وتأثروا به في استماعهم لذلك
الموال وفي ترديدهم اياه ..

وقيام الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٤ هيا بدوره للتناقض
المصريين فرصة لتهمة الشعب وتعبته للقيام بثورة سنة ١٩١٩ .
لقد زادت مصائب الاحتلال ونكباته ورزاياه خلال تلك
الحرب فأعلنت بريطانيا حمايتها على البلاد وفرضت الأحكام
العرفية والعسكرية وجند أكثر من مليون مصري وسيقوا كالبهائم
ليناصلوا من أجل الامبراطورية البريطانية وليبذلوا شبابهم وخصا
بل ليبذلوا حياتهم كلها جوعا وعريا ومرضا جزاء لهم على ذلك
النضال الذي أرغموا عليه ارغاما وقيل كذبا وبهتاناً انهم متطوعون..
ولم يكتف المحتلون بذلك فأخذوا في لهب أقوات الأهلين
وسلبهم ماشيئهم ما زاد في فداحة الغلاء ومرارة الظلم والحرمان

ثم لم يكفهم هذا أيضا فتوالت اعتداءات جنودهم على الأمنيين
والأمّنات من المواطنين والمواطنات ..

في تلك الفترة الخطيرة من تاريخ مصر الحديثة كانت أفواه
الشعب مكسمة وأقلامه محطمة فالجمعية التشرعية معطلة وكذلك
أكثر الصحف الوطنية والرقابة الصارمة مفروضة على ما بقي منها
والاجتماعات ممنوعة .

ولكن عمال السلطة أنفسهم لم يعدموا فنانين شعبين من بينهم
عرفوا كيف يصوغون تلك المظالم التي يقاسونها في أناشيد رائعة
المعاني والتلحين سهلة الأداء في مقدمتها :

يا عزيز عيني ألا بدى أروح بلدى
بلدى يا بلدى السلطة خدت ولدى
ونشيد شعبى آخر يقول : —

يا عزيز يا عزيز كبه ناخذ الانجليز
وما كانت العرب تضع أوزارها حتى انطلق الشعب في ثورة
وطنية عارمة مناديا بالاستقلال التام أو الموت الزؤام وتوالت
الاضرابات والمظاهرات والاحتجاجات وعمد المحتلون الى وسائل
البطش والقمع والارهاب والخداع محاولين اطفاء نيران الثورة
التي اندلعت ضدهم في كل مكان .. فأطلقوا نيران المدافع على
المتظاهرين وحرقوا قرى بأكملها وكثرت الاعتقالات والمحاكمات
الصورية وأدت المحاولات الفاشلة والديثة للتفريق بين عنصرى
الأمة : المسلمين والأقباط ولكن الأمة الموحدة الثائرة مضت في
ثورتها وصمت على بلوغ أهدافها وتحقيق مطالبها ...

وكان دور الفنانين في ذلك الكفاح عظيما حقا اذ انهم لم يكتفوا بالمشاركة في المظاهرات والاجتماعات المتتالية في المساجد والكنائس بل اخذوا على عاتقهم مع ذلك مهمة اجل خطرا واعنى اثرها هي مهمة اذكاء تلك الروح الوطنية الثائرة ونزويدها بوقود من القن الموجه المتخلف في النفوس .. ففى المسارح القليلة التى سمح الاحتلال باستمرارها فى العمل كانت شخصية المحتل الفاصب البغض تبدو فى صور فنية مختلفة تثير حماسة الشعب ضده وضد كل ظلم واستبداد واستغلال . وكانت الألحان الوطنية ، القوية التى وضعها الموسيقار المصرى العبرى الشيخ سيد درويش ما تكاد تتردد على المسرح حتى يحفظها جمهور المترجمين لسلاتها وبساطتها وقوة تعبيرها وفى الوقت نفسه كان الشيخ سيد ولخوانه من المثلىن والنشدين يؤلفون من بينهم فرقا عدة تملأ النهار أو أكثره فى الطراف بأنحاء العاصمة للانتماج مع الشعب فى مظاهراته واجتماعاته وتلقينه تلك الألحان وفى مقدمة الحاد الشيخ سيد التى ظهرت فى السنة التالية لقيام الثورة من تأليف الأستاذ بديع خيرى ، اذكر منها :

قوم يا مصرى	مصر دائما بتناديك
خد بناصرى	نصرى دين واجب عليك
رد	قبل ما يروح من اديك
أوعى مجدى	يروح هدر قدما غنيك
دول جددوك	فى قبورهم ليل نهار

وغيرها من الألحان التي كان الشعب يحفظها عن ظهر قلب ، ويرددها في مظاهراته وكل غدواته وروحاته ...

وأحب أن أسجل أن كثيرا من الفنانين في ذلك الحين ، كانوا أعضاء في الجمعيات السرية التي تكافح المحتلين ، ومن هؤلاء الأستاذ بديع خيرى . وكان يقوم بطبع المنشورات الوطنية التي توزع على الشعب في مطبعة سرية كان مقرها في بلدة محلة حسن ، بضيعة أحد الأمراء السابقين ، .. ذرا للرماد في عيون الجواسيس .. وكثيرا ما حدث أن فاجأه الانجليز برصاص المدافع والمترليوزات أثناء ذهابه الى الجمعية أو رجوعه منها .. وقد اضطر مرة الى البقاء عشر ساعات كاملة مختبئا في صندوق للقمامة .. للنجاة من رصاص الانجليز ...

وكان سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩ يعرف لبديع فضله في تأييدها ، وقد زاره مرة في المسرح ومعه المرحوم محمود صدقى زوج شقيقة قرينته المرحومة أم المصريين ، والمرحوم سعيد عنانى ، وبعد أن شاهد الرواية التي كانت تمثل في تلك الليلة ، أثنى عليه كثيرا وأفاض في تقدير وطنيته ... » .



ولم يشأ زكريا أن يشير الى الدور الذى قام به — كشاب — في ثورة ١٩١٩ لقد انضم زكريا في أتون الثورة ولئن كان دوره فيها غير قيادى فقد كان في الواقع جنديا مخلصا للثورة ، صنى أعماله ، ولم يقبل الارتباط بأعمال جديدة منذ ٩ مارس سنة ١٩١٩ . وفي المرات التي سافر فيها الى الأقاليم لم يكن

الفرض من السفر قراءة القرآن أو قراءة قصة المولد النبوى ،
أو الفناء ، بقدر ما كان يقوم بحمل بعض الرسائل من توار القاهرة
الى توار الإقليم والعكس . وكانت هذه الرسائل تحمل فى طيات
شال العمامة . وعندما كان يقرأ القرآن فى القاهرة أو فى الأقاليم
كان يختار الآيات التى تعض على الاستبسال فى الدفاع عن
الأوطان والجهاد فى سبيل الله .. وأكثر من مرة .. وفى أثناء وزارة
يوسف وهبة باشا التى تولت الحكم رغم أنه الساسة الوطنيين
ورغم اجماع الأمة على مقاطعة الحكم . كان يقرأ وسط التبان
الوطنيين الثائرين قول الله تعالى :

« اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أيبكم » .
وكان يقرأ هذه الآية بالسبع قراءات مرة .. وبالأربع عشرة قراءة
مرات أخرى .. وأكثر من مرة اشترك فى اجتماعات الأزهر وألقى
خطبا وأغانيه وأغانى كانت تقابل من الجمهور بالتصفيق والهتاف ..
ولحن زكريا أحمد فى هذه الفترة ألحانا سرت فى الشعب
مصرى النار فى المهسيم ومنها ما قد غناه عبد اللطيف البنا « قال
يا سعد مبن غيرك زعيم » و« يا مصر دى أيام أنسك » و« لصر فيك
يا سعد » ، ومنها ما قد غناه زكى مراد كشيد « مصر أولادها
رجال » « وفار الوطنية فى القلب » وكان لزكريا أحمد نشيد اسمه
نشيد « سعد زغلول » كان يلقى فى بداية العمل بسرح الماجستيك
حيث كان الجمهور والمنشدون والمطربون يرددونه جميعا وقولا ..
لقد اتفعل زكريا كهر من أبناء الشعب بشرة الشعب .. وبذل
أقصى ما يستطيع بذله لاجتاج هذه الثورة ، لم يفعل ذلك رغبة

في منصب أو مان ، أو وسام وانما فعل ذلك ايمانا منه بأن واجب المواطن أن يقف على وطنه ، دمه ، وجهه وروحه ، وكل ما يملك ... وإذا كان زكريا جنديا مجهولا ، في هذه الثورة . فما أكره ملايين الجنود المجهولين ... وإذا كانت الثورة قد أضاعتها فيما بعد الاقوامات .. والانحرافات ، فعليه أن أدى واجبه .. وحسب الثورة أن الوفا من أمثال زكريا أحد كانوا من صنع هذه الثورة .. لقد انطلق زكريا أحد في أعقاب الثورة .. انطلق ليرفع راية الموسيقى المرية .. انطلق ليكمل من الفن أداة طيعة لخدمة الوطن في شتى مجالاته ، السياسية والاقتصادية والاجتماعية ..

تلاحين زكريا (٥٦ أوبرا و١٠ أوبريت^٢ من تلاحين زكريا)

ثلاث محاولات هامة في تاريخ مسرحنا العربي لها الفضل في وجوده ، المحاولة الأولى كانت على يد مارون النقاش في لبنان حيث تجرأ في نهاية عام ١٨٤٧ على تمثيل رواية « البخيل » . . . كان مارون النقاش هو مؤلف الرواية وملحنها ، وكانت أسرته تقوم بالتمثيل معه .. وكان بيته هو المسرح ، فلما رضيت الحكومة عن تمثيله ، صدر فرمان عال بإنشاء مسرح بجوار بيته ، وقد تحول هذا المسرح عملاً بوصية مارون إلى كنيسة .

أما المحاولة الثانية فقد كانت في مصر وقام بها يعقوب بن صنوع المعروف باسم « أبو نظارة » الذي أنشأ في عام ١٨٦٩ مسرحاً للجمهور المصري ، وسط حديقة الأزبكية وقد استطاع أن يجلب على اذن من الخديو اسماعيل بتمثيل رواية كتبها في فصل واحد ، باللغة العامية وأدخل فيها بعض الأغاني الشعبية الشائعة . وقد لُجج يعقوب في تحفيظ الرواية لعشرة من الشبان الأذكيا اختارهم من بين تلاميذه ونزبا أحدهم بزي امرأة وقام بدور العاشقة ونجحت المسرحية .. ونجح مسرح يعقوب بن صنوع

— مولير مصر كما أطلق عليه وقتئذ — في أن يلعب دورا خطيرا في نهضة الرأي العام ..

وكانت المحاولة الثالثة ، عندما قدم الموسيقار الشيخ أحمد أبو خليل القباني — كما يقول الأستاذ زكي طليمات في مقال له عن المسرح العربي الحديث ، نشره بمجلة الهلال — الى مصر على رأس فرقة تنيلية ، من دمشق هاربا من تصف الأتراك وقدم لونا جديدا من المسرحيات يتم بسات جديدة أهمها أن المسرحية على يده بدأت تنهج نهجا جديدا يخالف مسرحية النقاش المترجمة. ومسرحية أبو نظارة المقتبة . وذلك من جنب مواضع الاستلهام فقد كان القباني يستلهم موضوعات مسرحياته من التاريخ العربي والاسلامى ، ثم من حيث انه جعل الفناء والعزف عنصرا هاما في المسرحية ، كما أدخل الرقص الايقاعى العربى في بعض مشاهد المسرحية ، فالقباني هو بحق أبو المسرحية التاريخية العربية والابتدع للمسرحية الفنائية الأوبريت في مرحلتها الأولى .

وقد عمل سلامة حجازى مع القباني ، طويلا ، وتأثر بمنهجه للتشيل والموسيقى فلما اتيح له أن ينشق عن جوقه اسكندر فرح في فبراير سنة ١٩٠٥ ويؤلف فرقة خاصة به ، انطلق يعلى من البناء الذى شاده القباني ، بل لقد استطاع أن يخلق مسرحا غنائيا، اعتمد أولا وقبل كل شيء على صوته ككفن ، ومنشد وفى ذلك يقول الأستاذ زكي طليمات : —

« لقد امتاز العقد الأول من القرن العشرين بذبوع المسرحية الفنية على حنجرة الشيخ سلامة حجازى ، وبارتهاة المسرحية

المرحى ١٩١٩ ، من الأفراس على يد عزيز عيد الذى نعتبه قسيس
 المرحى ١٩١٩ ، ان سلامة حجازى على صوت فريد فى جهازه
 ١٩١٩ ، وهذا ليراه الى القلوب بحيث ينفى بهاء على ما ليس
 به جاء الا انه كان يعمل فى مسرحيات لم تستوف حقها من شرائط
 التليفزيون التى يجب توافرها فى الرواية الغنائية (الأوبرا) كما
 ان سلامة حجازى لم يكن يعنى بالتحسين الجماعية ، قدر عنايته
 بالتحسين الفردية ، ولم تعالج هذه التحسين الصيغة المحلية لأنها
 واردة فى مسرحيات مترجمة أو معربة على أن ما قدمه سلامة
 حجازى يعتبر تمهيدا وافيا الى ما قدمه الموسيقار سيد درويش
 من تحسين ذات صيغة محلية واضحة تشدها وحدة موسيقية وذلك
 فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وبعد ثورة ١٩١٩ اذ نبض الوعي
 المصرى لبضا دافعا عمل بثورته على استخلاص ذاتية مصرية ،
 سرطان ما شملت جانبا كبيرا من تاج الأفلام المصرية فى التليف
 للرحى » .

لقد كان واضمو المسرحيات التى كانت تخدم قبل ثورة ١٩١٩
 — أو معربوها أو مقتبسوها — يتمدون وضع الأغاني والأناشيد
 كيفما اتفق ، لجذب الجمهور الذى لم يكن يقبل الا على
 المسرحيات الغنائية ..

ثم جاء سلامة حجازى ، فطور الفناء فى المسرحية المترجمة
 أو المؤلفة الى اتجاه يقربنا من الواقع المصرى .. ففى مسرحية
 شهاده الغرام — مثلا — يعنى سلامة حجازى :

عليك سلام الله يا شبه من أهوى
 ويا حبذا لو كنت تسمع لى شكوى
 لئذ لشكا قلبى اليه غرامه
 وبثك ما يلتقى من الوجد والبلوى
 اتانى الهوى من قبل أن أعرف الهوى
 فصادف قلبا كان قبل الهوا خلوا
 وفى قصى الرواية يننى سلامة حجازى :
 سلام على حسن يد الموت لم تكن
 لتسحوه أو تحو هواء من القلب
 سلام على غصن ذوى فى رياضه
 على حين جرى الماء فى النضن الرطب
 سلام على بدر هوى من سمائه
 وما كان عهد البدر يقرب فى الترب
 سلام على شمس توارت فابلت
 دموعى ولا بدع فذى عادة السحب
 سلام على قلب يحبى قضى أسمى
 وما أنا أقضى الآن من ذلك الحب



أجوليت ما هذا الكوت ولم أكن
 لأعهد فيك الصمت غنى فى قرب
 لعائنة أنت نعم ، لا ، فأنت لا
 تموتين بل تحيين منى فى قلبى

وعا قليل سوف أقضى عندها

تسوتين اذ لابد يقتلني كسرى

وكان لداود حنى فضل كبير فى تلحين مسرحيات لعبت

دورا كبيرا فى نهضتا الغنائية ، وفى مقدمتها « صباح » التى ظلت

تعرض على مسرح الأزيكية أربعة شهور متتالية ، ومنها معروف

الاسكافى والشاطر حنى و ... و ...

ثم كانت النورة الكبرى على يد سيد درويش . اذ لحن لفرقة

جورج أبيض « فيروز شاه » ، ولحن لفرقة عكاشة « هدى »

و « الدرة اليتيم » ، و « عبد الرحمن الناصر » كما لحن لفرقة

منيرة المهدي ، رواية « كلها يومين » ، والفصل الأول ونصف

الثانى من رواية كليوباترا ثم تهاست فرقة الریحانى وفرقة على

الكار الجزء الأكبر من نشاط سيد درويش ، فكان من نصيب

الريحانى . « ولو — أش ، قولوا له ، .. فسر ، العشرة الطيبة » ،

ولحن لفرقة الكار سبع روايات تعتبر من أئمن الفخائر فى

تاريخنا الفنى ومنها : راحت عليك ، وله ، وأم أربعة وأربعين ،

الهلال ، البربرى فى الجيش ، ومرحب ، والانتخابات « ولحن

سيد درويش لفرقة الخاصة ، مسرحيتين غنائيتين هما « شهرزاد »

و « البروكة » وقد وصف الأستاذ توفيق الحكيم أول مرة رفع

فيها السار عن رواية « البروكة » فقال :

« لا أنسى أبدا تلك الليلة التى ظهرت فيها البروكة لأول مرة ،

ورفع السار وجرت الألحان تصور مختلف المناظر والمواقف

والمواقف من نشيد الجنود الطافرة مثل لحن « املا الكاسات »

الى الاحتفال بالانتصار الى وصف الرفف ، بدجاجة وخرافه في
 لبن و أحب خرفاني السان ، خرجنا من تلك الرواية في شبه
 القبول وكان الليل قد اتصف ، ولكننا لم نذهب الى بيوتنا أو ذو
 الى فرائشنا فذاك عهد قد ولى ... جلسنا في قهوة ، مجاورة لدار
 التمثيل العربى وما لبث سيد درويش أن أقبل علينا مع الصديق
 للرحوم عمر وصفى وقد قضى عنه ثياب التمثيل وهو يقول
 يا رايبكم ؟ لم يخطر في بال الفنان المسكين أن يسألنا عن رأينا في
 كساد الحفلة وخواء الصالة ، ولا خطر في بالنا أن يسألنا في ذلك ،
 فقد كنا ندرك أن رأى المطلوب هو أجل من ذلك عنده وأسمى ،
 لأنه كان يريد الافلاس ، أو يكره المال بل لأن فرحة الفنان بفنه
 أهمه أكثر من المال .. وأن النشوة التى تبعثها خمره التمثيل تذهب
 فائسا بلب الفنان أول الأمر فتذهله عن كل شئ . أدركنا ما يريد
 قلنا .. لست أذكر وفقه ما قلنا ولكن الذى لاشك فيه أنه قرأ
 في وجوهنا الجواب انه قد انتصر .. » .

على أن للجو الاجتماعى والفنى الذى عاش فيه زكريا أحمد ،
 إلهام حياته الفنية الأولى ، كان له الأثر الكبير على أعمال
 الفنان الشاب . والذين زاملوا زكريا أحمد ، واتصلوا به عن قرب
 يعرفون حق المعرفة أن زكريا كان أكثر الناس إعجابا ، وفهما
 لسيد درويش ، ولتن سيد درويش ، وكان يحفظ كل أعمال
 سيد درويش ، ويرى فيها قمة المجد الفنى الذى وصل اليه
 الفنان الشعبى سيد درويش .. ولست أبالغ اذا ما قلت ان
 زكريا أحمد تأثر في تلحينه الروايات المسرحية ، والغنائية الى

حد كبير بسيد درويش ... وأعود بعد تلك المقدمة ، لأحدث
 عن زكريا أحمد وعلاقته بالروايات الغنائية ، والمرحية ...
 في بداية الحياة الفنية لزكريا أحمد ، وحوالي سنة ١٩١٦ ،
 فكر ليف من طلبة المدارس الثانوية من هواة التمثيل ، في إنشاء
 جمعية مسرحية ، وكان في مقدمة هؤلاء الطلاب حسين رياض ،
 وحسن فايق وحسن لاشين ، وكانت أولى ثمرات هذه الجمعية إقامة
 حفلة تمثل فيها رواية « فقراء نيويورك » .. وقد تكفل أعضاء
 الجمعية وحلهم بكل تكاليف الحفلة ، ووزعت التكاليف عليهم
 بالتساوي ، كما وزعت عليهم أيضا بالتساوي تذاكر الحفلة كمقابل
 لهذه التكاليف .. وكما قال حين لاشين « كل واحد وشطارته ،
 الذي يوزع تذاكر أكثر هو الذي يسترد بعض ما دفعه من تكاليف
 الحفلة ، أو كل ما دفعه ، والذي يتبطل في توزيع التذاكر ستكون
 خسارته فادحة » ..

واتخذت الجمعية مع عزيز عيد ، والمثلة الناشئة —
 روزاليوسف — على أن يتقاسما البطولة في الرواية .. وغنى حسن
 فايق في هذه الحفلة :

هينوا الطعام ، واحضروا المدام فهو لذى وكل بفتي
 خرة وعود ، احفظوا المهود .. واتلوا الألمان !!
 وقد دفع أعضاء الجمعية ستة جنيهات ، لتأليف الأغاني ،
 وتلحينها على أن تقسم بالتساوي ، بين المؤلف والملمن ، غير أن
 المؤلف — كما قال زكريا — أخذ المبلغ كله وحرّم زكريا من ثمره
 جهوده الأولى ..

واقطع زكريا أحمد عن تلحين الروايات بعد ذلك الفصل
 البارد — كما قال — وطال اقطاعه عشرة أعوام كاملة الى أن
 طلب منه على الكسار تلحين رواية « دولة العظ » وزكريا كان
 في عام ١٩٣٤ الملحن الأول الذي خلف سيد درويش ، وبعثت
 « دولة العظ » وتلاها زكريا برواية « النول » ..وبعد الاقبال على
 هاتين الروايتين تعاقد زكريا للعمل كملحن بفرقة الكسار ثم
 اشتغل للفرق المسرحية كلها كفرق نجيب الريحاني ومنيرة المهدية
 وفاطمة رشدي و ... و ... و ... وكى تكون دراستنا لهذه المرحلة
 من مراحل تطور الفنان زكريا أحمد وافية وعميقة ، يجب أن ننقل
 بعض الألحان المسرحية التي قام زكريا أحمد بتلحينها ، والتي
 تعتبر بحق صورة من صور الحياة الاجتماعية في مجتمع ما بعد
 الثورة .

في رواية دولة العظ تفتح الستار عن المجموعة تغنى :

خلدوا بالكم يا جماعة	لحسن سمعنا اشاعة
ان أميرنا بابا باظ الأول	ألف اسم الله عليه
نزل من قصره مخفى	ولا حش عارف ليه
يتحشش باللى فابتين	اللى رايحين واللى جاينين
ما حشش عارف غرضه ايه	ويتجس علينا ليه

وفي نفس الرواية لحن عن الحب ، جاء فيه :

كل نظرة من عيونها	فيها وعد لمهجتي
كل ابتسامة منها	زى بوسة لثفتي
ليه بقى ما أدوبش فيها	وقلبى مكتفى بكده

مهما أقامى فى هواها
الحب دا شئ لا بد منه
حتى الهج دول حتى الوحوش
حاجة اسها حب والا غرام
مبنى على الشرف
وكان اللحن العاشر والأخير
نقول الجوقة :

نمننم أميرنا
بالعنائكم الطربوه
الحدق فينا الى يظهر
يقول الأمير :

أيوه غنوا الى واطربونى
وداسونى وانشطونى
الجوقة :

سيد من يجانسك
انت سيد الكل
افرح بقى زاملط بقى
الأمير والفلكى :

سيبك ما دام
روحوا افروشوا قراقتا
الجوقة :

زفتكم حاتكون أبهة

من جفا ومن بفدنة
ما فيش لقلوبنا غنى عنه
الى فى الجبال ما يجهلونى
ما دام باخلاص واتلاف
وعلى المفسان

وامصرفوا الكرب عنه
بكلامكم فرفشوه
قوته وفنسه

يمكن انسى
بالمجانسه

وبآنسك يا أميرنا
فينا انت كل خيرنا
مالهم عينين جلاتك كده مبرقة

قممتنا اتنا توف
واقلبوها لنا بزقة

مالهاتى مئيل ولا ثن

لازم لهنم لكم جا يا مرحومين مقبلا
الله يرحمهم مولانا كان راجل عادل محترم
كان زى الرجل الخدانة ولا فيش زيه فى الأسم
الأمير والقلكى :

الغابة حظونا شويه وخشوا بنا فى خد وهات
جيووا لنا كاسين شبنانية وهاتوا لنا الرقامات
وبقول زقزوق فى نهاية الرواية :
يا فرحتى مين فى غرامه شاف هنا

فى كل تاريخ اللي جوا زى أنا
انت ملاكى ومين سواك
يحتكم فى مهجتي

وترد الأميرة :

انت حبيى ولصبيى القرب منك جنتى
زقزوق :

لحتى تهنى ونسود ولطفى نيران الجسوا
إيه المزول إيه الحسود ما دمت أنا وانت سوا
الأميرة :

هس آه لو كنت زى ابن أمير كانت كلت فرحتى وهاذ الصير
زقزوق :

قولة الحب يا روحى جمهورية ما فيه مائس أبدا كبير
لجتم فيها الملوك ويا الرعية القفير وابن الأمير
المبرة ما هنس باللقب والا النياشين والرب

الراجل اللى بهتمسه وعلو قصه ونفوسه
من غير لقب من غير رتب يجمال له شأن فى أمته
ان عانى بعيش عرضه نفيف وان مات يموت حر وشريف
وبكون اللحن الختامى للرواية :

غنوا لنا يا بنات وهاتوا لنا الكلاسات
وان جه المزل قولوا له أبوك السقا مانت
سيد من يننى ، وبهين وبهين ، هيمس يا بوسرة وارقص
وبلاش تخبي ، الله ارقصم وغنوا ، واتبججهم وهنوا ، الحظ ده
حياتنا مالناس غنى عنه .

ومن لحن الساكنين فى رواية « أنوار » :

أما عجيبة عليكى يا دنيا عنديه وليكى مفارقات
أبصر ليه تخلقى بالعينه من ماء السردين شربيات
حد يقول يا اخواتنا با هوه القصر ده يسكنه زقزوق
وبرنسات ييجوا يالسوه بعد ما كان مهزاه للسوق
بين البسارية وبين الشلابة والأراميســط
ونهار ما ياكل مش وحلابة كان ييزــط
صبح بقا جنباه القرنكه قولتى متربى فى آتينا
ينقلب المسير كذا يشكا فى مكة الشوكة والكينة
ولا هنس مكرهه فى حياته الا مــراته
غجربة ودون من عند طالون قد ما يمدنها برضه هيه بيمينها
واخده عا التحيش اياه بالمشة وهيه وراه يعجرى تجرى
قوموا سندوه أرموط العترة وصلوا بينا عالنبى يا خلايق

ما عركوش دقتوا الكثرة الاف زمانه الحلو الراق
ديم الحظ يا رب ليدنا ، واحنا يوم الهنا توعدا روق بالننا
واحى امانا واهلك اعدانا وحادنا

وفي افتتاح « رواية السفور » تشد البنات :

الدقة المصطاوى	ما بقاش حاجة اليها
والطرز الأورباوى	بسوط دلوقتى عليها
الناس قبله كانوا تنابله	قطع الماضى وزمانه
قوى يا هبة سبيى الطلبة	واتمدلى فنى ييانو
وامنى بحسب المصر بتاعك	والشر قصيه آلا جرسون
والرجل تاخديه فى فراخك	يرقص ويالك الثارلستون

وفي هذا اللحن تنادى البنات :

ولا برقع ولا حبرة	ولا يينة ولا ملابة
الشرق نايم والزمان	عمال يدور
واتغيرت واتبدلت	وياه آمور
والبت لما اتعلمت	والعلم لسور
طالبت بحرتهما	فى عهد السفور ..

ومن رواية « آفا وانت » لغتار لحن « هيلاهيه هيلاهيه » :

عا الجناسيك يافه بنا	أدى دفتر الأكرسيز
واحنا سور وفى ألعابنا	بنفوق على بنت باريز
رجليننا وايدينا	زى اللى يزملكات
تلوحنا نطوحنا	كده حسب الحركات

آن دى ترواه

وما سبق ذكره من أغاني وأدوار ، وديالوجات كان يعنى محاولة
لاجعة لتصوير أوضاعنا الاجتماعية والسياسية ، لمجتمع ما بعد ثورة
سنة ١٩١٩ ، ولم يخل هذا التصور من نقد هادئ ، فى بعض
الحالات ، وقد مر غيف فى كثير من الحالات .. والظاهرة التى
تميزت بها الروايات المسرحية والفنائية التى قدمت على مسارحنا
فى أعقاب ثورة سنة ١٩١٩ أن مؤلفى هذه الروايات خوفا من
بطش السلطات الحاكمة ، وخوفا من الرقابة الممتنة قد لجأوا الى
دنيا الخيال .. ففى هذه الدنيا ، يستطيعون أن ينقدوا ما يريدون
انتقاده ، وفى هذه الدنيا يمكنهم أن يقولوا « للأعور فى عينه
يا أعور » ، وهذه بعض نماذج للحياة فى دنيا الخيال !!

فالأستاذ أمين صدقى — مؤلف رواية دولة الحظ — « يصنع
من أفغانستان وكردستان ومورستان دولة خيالية ويختار ، باباؤه
الأول أميراً للأمراء .. ومن عادة أمير الأمراء هذا أن يسلى شعبه
فى عيد ميلاده السعيد باعدام رجل من المجرمين بأكلة الخازوق ..
ويحدث أن يجيئ عيد الميلاد السعيد ، وليس فى سجون المملكة
البابائية واحد من المجرمين .. ويقع أمير الأمراء فى ورطة .. كيف
يستطيع أن يسلى شعبه فى يوم عيد ميلاده .. يتخفى أمير الأمراء
وينزل الى صفوف الشعب متنكراً ، لعله يجد شخصاً ما يظن فى
جلاله أو فى حكومة جلالة .. ويتصادف أن يجد أمير الأمراء
تاجراً مصرياً ، اسمه عبد الباسط البربرى ، وقد جاء الى المملكة
البابائية ومعه صبيه زقزوق المصرى ، وسأل أمير الأمراء باباؤه الأول

التاجر عبد الباسط البربرى ، رايه فى باباط الأول وحكومت وراح
عبد الباسط البربرى يلعب باباط الأول وحكومت .

وابتمج باباط الأول لهذه المناسبة السعيدة وأعد المنة لاعدام
عبد الباسط البربرى ، وبينما القوم آخذون فى اعداد الخازوق ،
للبربرى ، وبينما أمير الأمراء فى أشد حالات الابتهاج اذا برزلخان
فلكى الدولة وموضع ثقة أمير أمرائها يبلغ جلالة باباط الأول ،
انه بينما كان يرصد طالع هذا البربرى وجد أن حياة أمير الأمراء ،
مرتبطة بحياة هذا البربرى ، ومعنى ذلك اذا ما أعدم البربرى ،
فسوف يموت باباط الأول بعد اعدامه بأربع وعشرين ساعة ..
وأمر باباط الأول ، بتغيير الخازوق « بهودج ملوكى » وقفل
عبد الباسط البربرى الى القصر الملكى محاطا بكل أنواع
النجيل والاحترام .. واتهم عثمان فرصة احتفاء أمير الأمراء به
فطلب منه تزويج صبيه زقزوق المصرى باحدى الفتيات التى
أحبها ، ولم تكن هذه الفتاة سوى خطيبة أمير الأمراء أرسلها
إيها ، بصحبة أحد سفرائه متكرة ..

ولما لم يكن باباط الأول يعلم قصة هذه الفتاة فقد أصدر
تعليماته بأن يهرب عبد الباسط البربرى وصبيه ، ومعهما الفتاة ،
وأخيرا علم الملك قصة الفتاة كاملة : وعرف أن السفير قد أطلق
النار على عبد الباسط البربرى ، الذى مات غرقا فى بحيرة
القصر .. واستسلم أمير الأمراء لليأس ، وأخذ ينتظر مصيره ..
ثم فكر فى أن يرف الى الفتاة ليتمتع نفسه قبل وفاته .. وبينما
الجميع يمدون ممدات الزفاف الملكى جاء الملكى ، ليخبر باباط

الأول أن الساعة الرهيبة قد جاءت وعليه أن يستعد للموت ..
ويركح الجميع احتراما لرعبة الموت .. وينتظر عبد الباسط
البربرى الفرصة — ولم يكن قد غرق كما أُنِيع — ويظهر للجميع
مدعيًا أنه روح المرحوم عبد الباسط البربرى .. ثم يطلب من أمير
الأمراء بابا الأول ، أن يسح لحيه زقزوق المصرى أن يتزوج
من الفتاة واسمها الأميرة شمس الدين .. ويتم زواج الأميرة
شمس الدين بأحد أبناء الشعب .. الذين لم يجز الدم الأزرق في
عروقهم .. وتتمى الرواية .

وفي رواية على بابا بعد الأستاذ توفيق الحكيم الى تصوير
حياة خطاب بئس ، لم يستطع أن يدفع ابجار منزله ، يستصدر
صاحب هذا المنزل — وهو ابن عم على بابا — حكما من القاضى
بدفع المتأخر ، أو بيع المتاع بالمزاد .. وتضيق الأحوال بعلى بابا ،
ويذهب الى الخلا ، ومعه حماره ، ويحاول الانتحار ، فيضع
حبلًا حول عنقه وتقفله جارت مرجانة ..

وفجأة بينما هو فى الخلا يسمع أصواتا ، فيختبئ فى مقارة ..
ويسمع على بابا صوتا يقول : « افتح ياسمسم » فتنتفح صخرة
كبيرة يدخل فيها عدد من اللصوص ، يضعون أمتعتهم ثم ينصرفون ،
ويخرج على بابا بعد ذلك ويردد كلمة « افتح ياسمسم » ، فتنتفح
القفارة ، ويرى ما بها من كنوز ، فيحمل منها الكثير ويسود الى
بندلا حيث يدفع ابجار مسكنه ، ويرتدى أنفخ الملابس ويسكن
فى قصر فخم .. وبينما كان على بابا يروى لمرجانة سر هذا الثراء
المفاجئ كان ابن عمه قاسم ، يسمع لهذا الحديث ، ويعرف السر

ويذهب قاسم الى الكنز .. ويعمل ما استطاع حمله من ذهب وفضة وجواهر ولكنه ينسى كلمة السر ، فيقبض عليه اللصوص . ويحاولون اعدامه ، غير أن أحدهم يتقنه ويضمه الى المصابة وتذهب زوجة قاسم الى ابن عمه على بابا راجية منه أن يبحث عنه ، فلما ذهب على بابا الى أبواب المدينة وجد هناك ملابس قاسم ، فاعتقد أنه مات ، وأقيمت المآتم ، وأعلن الحداد .. ويحاول رئيس المصابة أن يعرف سر على بابا ، وكيف استطاع أن يسرق الكنز فيرتدى ملابس تاجر زيت ويذهب الى على بابا .. وتعد مؤامرة لاختياله على بابا ، ويكون تنفيذها عن طريق وضع علامة على باب منزل ليراها اللصوص في الليل فيدخلوا المنزل ، ويقتلوه ..

وتكتشف مرجانة السر فتضع العلامة على عدد من البيوت المجاورة فلا يتعرف اللصوص على بيت على بابا وبعد اللصوص مؤامرة أخرى لاختياله على بابا فيدخلون عددا من الرجال في «زلع» على أنها مليئة بالزيت وتحمل «الزلع» الى منزل على بابا في الليلة التي حدها لزفاته بزوجة ابن عمه قاسم .. وتكتشف مرجانة سر الرجال الذين وضعوا في «الزلع» . وبعد أن ينتهي الرقص تحاول إحدى الرافعات وهي خلية أحد اللصوص اختياله على بابا فتسك مرجانة يدها ، وتتنقه مرة أخرى ، ويقبض على اللصوص . ومن بينهم قاسم ابن عمه على بابا ، الذي يعلن عن قصه .. وتعود زوجة قاسم اليه .. ويتزوج على بابا من مرجانة .

وفى رواية « ياسمينه » التى ألها بديع خيرى ، وكان مسرحها بغداد ، يكون بطلها بائع فاكهة تمنى لو أصبح أميراً للمؤمنين لكى يتمكن من مجازاة الظالمين ، بما اقترفوه من آثام .. ويستيقظ بائع الفاكهة هذا ليجد نفسه فى قصر ضخم ، وقد أصبح « أميراً للمؤمنين » ، وكذلك قصة « البلابل » التى ألها أيضاً بديع خيرى ، ووقعت أحداثها فى الهند ، وبطلة القصة فتاة هندية مات أبوها عن ثروة اغتصبها ابن عم له ، فلما نزعرت وكبرت وعلمت بحقيقة الأمر تنكرت فى زى شاب ، وجمعت حولها عصابة ، أمنت فى تخريب أملاك عمها ، وتلتقى الفتاة بشاب تحبه — وهى لا تدري أنه ابن عمها وعن طريق هذا الحب ، تحصل على حقوقها المقتبة . وتنتهى القصة بزفاف العروسين ، وإخاف متاعب والد العربس ، وعم الفتاة ..

وروايات قليلة جداً ، هى التى كانت تصور الجو المصرى . ففى رواية « من فىهم » من تأليف بديع ، وتلحين زكريا ، وتمثيل فرقة الكسار ، فتى وفتاة تحابا ، ففر الشاب من الاسكندرية الى القاهرة ونبتت الفتاة التى تخفت فى زى شاب وأقامت هى الأخرى فى نفس الفندق الذى أقام فيه الفتى واستخدمت نفس الخادم الذى استخدمه الفتى ، والفتى لا يدري والفتاة أيضاً لا تدري ، وتجلى الحقيقة فى آخر الأمر ، ويظهر شقيق الفتاة الذى اعتبره حبسها فى عدل الأموات .. ويعم الترح ، والعبور .. وترتفع الرايات ويتبنى الجمهور للعروسين ، البنين والبنات .. وإذا كانت هذه الروايات — كما سبق أن ذكرنا — تمتاز

بالاغراق في الغيال ، والبعد عن الواقع ، والاعتماد على الأساطير ،
لامكان تسليية الجماهير ، فقد كانت تتنازع أيضا بالنهايات السعيدة ،
لذا لابد من أن يتزوج البطل والبطللة في نهاية الرواية ، والا فان
الجمهور سيفرب الممثلين والممثلات وسيحطم كراسي المسرح ،
وسيصصر على أن يترد ما دفعه من قنود ، لقد جاء الجمهور الى
المسرح ليسرى عن نفسه ، وليبعد عنه الهموم والأحزان ، فلا يقبل
ابدا ان تنتهى السهرة بموت البطل والبطللة او بحدوث شئ كان
ينهما ..

وظاهرة أخرى تتنازع بها هذه الروايات وهى الاعتماد على
الاغاني ، فلا تمثل مسرحية ما دون ان تمتد على سبعة العان
أو ثمانية ، وأحيانا احد عشر لعنا كما في رواية «على بابا .. والب
في ذلك ان الجمهور كان يقبل على الاغاني اكثر من اقباله على
التمثيل .. وكما يفعل مخرجو السينما اليوم — أو بعضهم على
الأقل — عندما يحشرون بعض الرقصات لجذب الجمهور الى
أفلامهم ، كان مخرجو الروايات المسرحية بعد ثورة سنة ١٩١٩
يعدون الى الاغاني والانشيد والطماطيق لجذب الجمهور أيضا
الى مسرحياتهم ...

وكالت الاغاني اقرب الى تصوير الاوضاع الاجتماعية
والسياسية والاقتصادية ، وقد ما بها من اخطاء ، وتشجيع ما فيها
من اعمال طيبة ، وقد امتازت بعض الاغاني — وخاصة في الفترة
التي تلت ثورة سنة ١٩١٩ وقبل أن تفرض الرقابة على الاغاني —
بميلها الى التحرر والانطلاق . ففى رواية دولة الحظ « ترقية على

جلالة الأمير باباط الأول « فمينا جلالة » مبرقة « و » جلالة زى
الرجل الغدلالة « و » دولة الحب يا روحى جمهورية « و » العبرة
ليست باللقب ولا بالنياشين ولا بالرب .. والراجل جهته وعلو
نقه ، ونخوته « ..

وفى رواية الغول حكم ومواعظ ، و « ترقة » وقد غيف —
فمنلا :

حط فى بالك لأجل تميش لازم تتحنى وتطاملى
والرزق يحب التهوش يضمه ، وسبحان الماطلى
دى الذمة هى اللى تجوع خليك واد حلمنجى ملوع
تلط فى بلولة وتكون على كل الأنواع تنسوع
أوعى تعبرش بصى وغطرش واعمل أطرش
الحق فى الأيام دى جريسة اللى يقوله يديبقوه
لكن دولته دولة عظيمة منصوره مها يعاكسوه

وفى رواية « أنوار » توصف الدنيا ، بأنها « عندية » أى تميل الى
العناد وهى تخلق من التسيخ شربات ، وفى الرواية دروس لأولئك
الذين نبتوا من صفوف النصب ثم تنكروا بعد أن تم لهم الثراء ،
للنصب ولابناء النصب .

وفى رواية « الوارث » ، نجد هذا غنيفا لنظام القرعة حيث
كان الاحتلال يمد الى ابعاد الشبان عن الجندية نظير البدل
المسكرى ، وحيث كانت معاملة الجنود من أشق ما يمكن وذلك
ليكره الناس الجيش ، ويميلوا على الفرار منه .

وفى روايتى « السفور » و « الا واث » حملة على الدقة

القديمة ، ودموات متكررة للانطلاق والتحرر من البرقع والحبرة
والبينة ، والملاية اللف ، وعتاب مر للشرق الذى « نام بينما
الزمان عمال يدور » .

وفى رواية أبو زعيزع نجد من يقول عن الدنيا :

سُروِقها بِصَبْحنا وغروبها بِمَسائنا
وساعة تفرحنا وساعة بتعزينا
يروح قديم ويحيى غيره جديد وكله كائين متى بالأيدي
حال النهاردة خلافه لمبارح وكل يوم للناس مواليد
وتصور الرواية عزة النفس والآفة والكبرياء عندما يقول
البطل فى قصى الرواية :

كله حين الا تحكيم العدا بتحيل الحر يرضى الذل ده
والشئ الجدير بالذكر أنه بالرغم من عدم وجود الراديو فى
هذه الفترة وبالرغم من عدم وجود تليفزيون ، وبالرغم من عدم
وجود أجهزة تسجيل ، فقد كان اللحن ينتقل من مكان الى مكان
بسرعة لا مثيل لها ..

روى لى الفنان رخا أن سيد درويش غنى بالاسكندرية ،
لأول مرة : « زدوني فى السنة مرة » وتصادف أن جاء الى القاهرة
بعدها بأيام قليلة .. وبينما كان فى زيارة لحلوان سمع خادمة تفتى
الأغنية ، وتعجب سيد درويش ، كيف جاء اللحن من الاسكندرية
الى القاهرة ، وانتقل الى شفتى الخادمة بهذه السهولة ، وسأل
الخادمة فقالت له .. « كنت فى الاسكندرية وسمعت هذه الأغنية
من أفراد الأسرة التى كنت أعمل عندها وحفظت اللحن من أول

مرة ، وجئت الى القاهرة ، مع الأسرة ، وهناك أغنيه ، للمرة الثانية ١١

ولعل السر وراء سرعة حفظ هذه الألحان الناجحة وتزويدها يعود الى أنها كانت نابعة من حياة الشعب ، بل لقد كانت قطعة حياة من حياة هذا الشعب اذ لم يكن المؤلف ، ولا الملحن يؤدي عندما يؤلف أو يلحن واجبات روتينية ولم يكن الملحن مثلاً يكتب بأقتباس الموسيقى الغربية فثنا منه أن أحداً لن يفتن الى معرفة أصول ألحانه ، وموسيقاه .. بل كان الملحن ينخر في اللحن ، يحيا فيه بكل ما في كلمة الحياة من معنى .. يضع في خدمة اللحن ، كل أحاسيسه وكل عواطفه وتكون النتيجة أن يخرج اللحن قطعة من هذه الأحاسيس ، وهذه العواطف .. ولهذا نجح زكريا أحمد في أن يلحن في هذه الفترة : ١٩٢٤ / ١٩٣٠ — أجمل ألحان الروايات المسرحية .. لحن زكريا أحمد لفرقة على الكسار « دولة الحظ » في نهاية عام ١٩٢٤ ، ولحن في عام ١٩٢٥ روايات « الفول » و « قاطر الزراعة » و « عثمان يخش دنيا » و « الطنبورة » و « الخالة الأمريكية » و « ابن الراجا » .

وفي عام ١٩٢٦ لحن روايات « ٢٨ يوم » و « أنوار » و « آخر مودة » و « قادي السر » و « الكرفال » و « أبو زعيزع » و « الوارث » و « حكيم الزمان » — وكلها لفرقة على الكسار . و « على بابا » و « الأستاذ » « لفرقة زكي عكاشة » .. ولحن في عام ١٩٢٧ لفرقة على الكسار « ملكة الجبال » و « قفتك » و « ابن فرعون » و « زهرة الربيع » و « حلم ولا علم »

و « الساحر أبو فصادة » و « السكرتير » و « غاية المنا »
و « بدر البدر » و « خمسة مليون » كما لحن في عام ١٩٢٨
« ياسمين » لمرح الريحاني ، و « البابل » و « الكنوز » لفرقة
على الكسار ، وفي سنة ١٩٢٩ و ١٩٣٠ لحن لفرقة على الكسار
« العروسة » و « العيلة » و « مين فيهم » و « ما فيش منها »
و « ابن الأومباني » و « ملاحنة هوا » و « ملكة الغابة » ..
ولفرقة صالح عبد الحى « قاضى الغرام » .. و رواية « عيد البشير »
و « الهادى » .

وزاد عدد ألحان هذه الروايات على ٥٠٠ لحن ، بلغت أغلبها
قمة النجاح والشهرة ، ذلك لأن زكريا وضع في هذه الألحان
آدمارى جهده ، وفنه وعائنه فيها ، كلها ، لحن ، لحن ، بمواظفه
واحاسيه ، وعبثيته حتى استطاعت أن تخرج للناس في أوضاع
فنية جديدة أجبرت الكثير من خصومه على الاعتراف له بالزعامة
ائنية بعد وفاة سيد درويش !!

سمعت زكريا أحمد يقول :

« مات أبى قبل أن أضع اللحن الأخير في رواية الغول ..
ونركت جثمان أبى في أبدى من يغسلونه ، كما تركت مهمة اعداد
المآثم للأصدقاء ، وصعدت الى حجرة الفسيل ، فوق السطوح ،
وحبست نفسى ساعات طويلة ، ورحت أغنى وأدندن ، وفي الوقت
الذى تم فيه اعداد كل شئ .. ونأهب الجميع لنقل الجثمان الى
المسجد ، كنت قد اتهمت من نصف اللحن .. وفي الجنازة كنت

سارحا في بقية اللحن ، وفي السرايق المقام بجوار منزلنا ، وبينما أنا أستقبل المزين وأودعهم شاكرًا لهم مجاملاتهم لي ، وعزامهم في أبي ، وبينما كنت أستمع إلى كبار المقرئين الذين تطوعوا لقراءة القرآن مجاملة لي ، وبينما كنت أبادل عبارات المجاملات الروتينية ، التي لا يخلو منها مآثم من المآثم كنت أعيش في بقية اللحن .. وعندما بدأ العمال يزيلون أقمشة السرايق ، وأخشابه كنت قد انتهيت من أعداد اللحن كله .. » .

وفي مذكرات زكريا أحمد ، قصة لحن واحد من الألحان التي وضع فيها روحه .. والهامه .. وشبابه ، قال زكريا أحمد :

« من عادتي دائما في الألحان التي أقوم بتلحينها أنني أترك للمجتمع الذي أعيش فيه دائما في فرائسه ، ثم أمضي أفتش في نفسي عن شخصيات المغنين والمؤلفين ، أقلب كلماتهم وأهمل أوتار حناجرهم ثم أخلق من ذاتي ذات المغني وجوه ثم أعلم المغني اللحن .. وأتركه يغني وأصفق له إذا أجاد ، أنني أتمرى من شخصيتي هذه المريبة وأروح ألبس شخصيات المشلين والمغنين وغيرهم .. ولا يعني أنني أخضع لهم ولكن يعني أنني مستودع من البشر ملوّه باختلاف المواقف والقوى ، فكلما احتجت إلى فرد من الأفراد ملحت يدي إلى قلبي وأخرجت منه لفة تختلج ثم تندفق في منافذ قلوب الناس ، أذكر مرة طلب مني الأستاذ على الكسار لروايته « أبو زعزع » لحنا يغني والحفاري والسحرة والأشباح على المسرح ، وكانت ليلة حالكة ممطرة ارتدبت فيها لباس المجانين : « كلوش » برجلي وجلاية كستور ، وفوقها بالطو

سموكن وعلى رأسى « لاسة » وركبت تاكسى من ميدان ابراهيم
 باشا الى سفح الهرم قرب أبى الهول . وما أدراك ما أبو الهول .
 وما يفره فى الظلمة والمطر من روعة ورعب واشباح تاكل الأنباح
 ورمال تتنازل كأنها أرواح الشياطين .. وجلست أمثل « الجنون »
 وجلس حولى مع الليل العاصف السحرة والغاريت وورقة عليها
 كلمات الأغنية ، وكان معى مصباح كهربائى صغير استعين به على
 تلمس الكلمات ، وفيما أنا غارق فى العانى مأخوذ فى نشوة عميقة،
 اذا بالعارس يتقدم منى وينهرنى قائلا : « بتعمل ايه هنا يا جديع
 انت » وأمسك بتلابيبى فحاولت أن أقنعه بأنى ألحن فمزأبى قائلا
 « لعن ايه .. انت مجنون .. اللى بتقوله كلام فارغ يلاينا على
 القسم » ، فقلت له « أنا زكرا أحمد وده اسى مدقوق على
 زندى » . فقال « بلاش أونطه » وأضافت له المصباح ووجهته الى
 الذراع وتفتحت عينا الجندى خوفا وهلعا وظن أنى نقشت اسى
 على يدى فى تلك اللحظة ، وقال لى مرة أخرى « بلاش أونطه »
 وراح الجندى يسألنى عن صناعتى واقامتى فقلت له « ملحن
 فنان » ، وغضب الجندى وقال : « وهو فيه شغلانة اسمها ملحن
 وفنان يلاينا على القسم » . ولما كان لا بد من الذهاب الى القسم،
 وما كدت أدخل بلباسى هذا حتى حام حولى أفراد القسم
 يتأملون .. ويضحكون ، وبقيت فى القسم حتى الصباح حيث
 اتصلت بعلى الكسار وصديقى الشيخ على محمود تليفونيا
 لاثبات شخصيتى ، وتم الإفراج عنى بعد أن اعتذر رجال القسم
 وبعد أن ولد اللحن.. فى الجو الذى خلقته وعشت فيه .

وبالرغم من أننى أحس بأن هذا الفصل قد طال أكثر من اللازم
الا أننى أرى ضرورة اختتامه بقصة طريفة ، رواها زكريا أحمد ،
وكانت هذه القصة قد حدثت في أول يوم عرضت فيه فرقة
على الكسار رواية « دولة العظ » التى لعنها زكريا أحمد ، وكانت
فاتحة المجد القضى لزكريا أحمد :

قال زكريا :

« في يوم اتصلت بى السيدة فاطمة سرى وأقمتنى أن الأستاذ
على الكسار يرغب في أن ألحن له روايات لفرقة ، وذهبت معها
الى الكسار ، وهناك اتفقنا على أجر اعتبره عظيمًا بالنسبة لى
ولسواى في ذلك الوقت ، وبدأت ألحن برواية « دولة العظ » وفي
أول يوم من عرض الرواية حضر الى شخص قال انه موفد من لدن
سيدة تنتظر في الخارج وتود رؤيتى فتوجبت خيفة من هذا الطلب
وذهبت الى حيث تنتظر السيدة ، فوجدت عند باب المسرح عربة
مطلية يجرها جوادان وقبل أن أدنو من السيدة : أصلحت دون
وعى منى عمامتى وقطعانى ثم انحنيت نصف انحناء ومددت يدى
الى السيدة فراعنى أن أرى يدا بضعة تمتد الى وتسلم على
وارسمت على وجهها ابتسامة خلابة ، ثم ضحكت من ارتباكى
وقالت : أهلا بالأستاذ العظيم .. أنا سميحة جدا لرؤيتك .. وأجبتها
وأنا أجتهد في مداراة ما أحس به من خجل :

— هل من خدمة يا سيدتى ؟

فقهقمت قهقهة طريفة سلبت البقية الباقية من عقلى وقالت :

— يا أستاذ تفضل معى وأنا أقص عليك ما أريد ..

وبأن التردد على وجهي وحاولت معرفة تلك السيدة خاصة
وأن صوتها كان يشبه صوت سيدة أعرفها .. وابتدرتني قائلة :
— الى أراك متخوفا .. لا تخش شيئا وتفضل ..

وبلباقة مدت يدها وسحبتني وأنا في لجة من التفكير العميق
وأخذت مقعدى بجوار السائق .

أمرت السيدة السائق بالسير الى جهة حدائق القبة ، وكانت
ضول الطريق لا تفك تردد على مسامى حوادث طريفة .. ومسلية
وكلما اتهمت من احدلها لجأت الى الأخرى وهكذا حتى وصلنا
أمام منزل ناء تبدو عليه الأبهة والفخامة ..

وهكذا بدأت أشعر بحرج مركزي اذ كيف أدخل منزلا لم
تغاه قدماي من قبل ، وكأنها لحظت ذلك فعادت الى الضحك
معي وتقدمت نحوي وتأبطت ذراعى فتبعتها وأنا صامت ،
وما احتوتنا غرفة الاستقبال حتى طلبت منى اذ أنتظر ريثما تبدل
ملابسها ثم اختفت من أمامي وتركتني في حيرة أفكر فيمن تكون
هذه السيدة ، وما الذى نريده منى ؟؟ وفيما أنا على ذلك الحال
اذ بها تملخل وقد ارتدت فستانا زاهيا جلالا فوق جمال ، بدت
فيه أشد فتنة ما رأيته حين تقابلنا ، فجلست بجوارى وراحت
تفكه معي في الحديث ، وكلما زادت في مداعبتها شعرت بالخوف
خاصة عندما اقتربت منى وبينما نحن كذلك اذا بثلاثة رجال
أشدهاء بدخلون .. فصمت وتملكني رعب شديد وارنجت
أوصالى لهول المفاجأة .. وأخذت أحملق في وجوههم ثم احتبس
لسانها عندما قال لها أحدهم :

— فليتك يا خاينة أنت وذلك الوغد ، وسأريكما كيف تنتهكان
حرمة المنزل وكيف تخلين بقواعد شرف الزوجية .

ثم التفت الى زميل له قائلاً :

— يا عثمان بك أرجوك ابلاغ البوليس حالا ، لقد جاءت
الساعة التي كنت انتدعها لأظهر للسلاطة عليه زوجتى من خسة ..
والتفت الى قائلاً :

— أما أنت أيها الرجل فجزاؤك عندي شديد وسترى بعينيك
الآن ..

وهنا شرعت بالسموع تجرى في مآقى وأحست أنى أكاد
أختنق لحرج الموقف فجعلت أنظر اليهم وإلى المرأة التي كانت
سيما في كل ذلك ، واحترت كيف يكون حالى لو علم والدى وأهلى
بالقعة وكيف تكون فضيحتى خصوصا اذا وصل الأمر الى
البوليس وهو أهم ما كنت أخشاه .

وأخيرا تشجعت وقلت للرجل ألا لم أفهم السبب الذى من
أجله تقول لى هذا الكلام ، فقد حضرت هذه الليلة وطلبت منى
أن أرافقها لأعيا تنوى لقاعة سهرة ، وبما الى رجل موسيقى فقد
أجبتها الى طلبها وجنت معها ، فقمقه الرجل لكلماتى وقال ساخرا :
— ما شاء الله تريد أن تدفع التهمة عن نفسك ، خير لك أن
توجه هذا الكلام للبوليس ...

وهنا دخل الرجل الذى كان قد خرج لابلاغ البوليس
وبصحت أحد الضباط وتقدم منى وقبض على كمنى بقوة وقال :

— أستاذ معمم وتنتهك حرمة المنزل بهذا الشكل .. وفي الوقت المتأخر من الليل .. ليلتك سوده يا سيدنا الشيخ ..
ثم أضاف قائلاً في قوة :
— باللابنا يا خفيف ...

وراح الضابط يوجه الى أقذر العبارات والشتائم وأنا أحاول بكلمات مهزوزة ، التدليل على إراةنى من تهمة دخول منزل أجنبى ، وأقسم بأعظ الايمان التى ضحية مؤامرة دبرتها لى هذه الليلة ...

وضاعت مجهوداتى أدراج الرياح ...
وأخيراً تشجعت وقلت لهم :

— ها أنا تحت تصرفكم فافعلوا بى ما تشاءون .
وعقب جملتى هذه ابتسم الجميع وراحوا يضحكون وراحت الليلة التى قادتنى تضحك هى الأخرى للمرة الأولى .. وزاد ذلك من ارتباكى وقلت لنفسى :

— كيف تسنى لها أن تضحك وهى شريكى فى الجريمة ..
وما كان أشد دهشتى حين رأيت ذلك الضابط المزعوم ينزع ملابسه ويظهر لى أنه صديقى الأستاذ حسن لاشين . وابتدأت أفهم « الملبوس » الذى جاز على ، فقد كان اليوم أول يوم فى أبريل ، وضحكت لفرط غباوتى وقضينا الليلة على أحسن ما يكون من الصفاء والود والترفشة .. بعد أن اعتقلت فترة طويلة اتى لئاقضها فى التخنية .

كما أتى لابد أن أشير — ولو إشارة عابرة — الى قصة

أعنف امتحان نمرض له زكريا أحمد ، عندما طلب منه — دون علم — أن يلحن أغاني رواية « على بابا » ، وعندما طلب من كامل الخلمي — دون علم من زكريا أحمد — أن يلحن قص الأغاني : قال بديع خيرى يروى قصة هذا الامتحان :

« لقد بدأ المرحوم طلعت حرب يهتم بالمرح .. وقد احتضن أولاد عكاشة وشجعهم بكل وسائل التشجيع وأعطاهم دار الأزيكية. وأغدق عليهم الأموال حتى يستطيع الاخوة الثلاثة . زكى وعبد الله وعبد الحميد أن يوجدوا مسرحا عربيا ، يضارع أعظم المسارح .. واختار أولاد عكاشة رواية « على بابا » التى هلهلها الى المرية الأستاذ توفيق الحكيم ، وطلب منى عمل الأزجال لهذه الرواية ، وقد ألقت الأغاني وأذكر منها :

الديباجة عشرة ضمه يسلك فيها الحرف

وابن الأشراف والأما يختار جنب الخطيف

وقد أعطيت أغاني الرواية لزكريا أحمد ، لتلحينها ، وأعطيت فى الوقت ذاته لكامل الخلمي ، دون أن يعلم زكريا ، ودون أن يعلم أيضا كامل الخلمي بأن الألحان أعطيت لزكريا أحمد .. وكان الحكم فى الموضوع عمر وصفى الذى سمع ما لحنه زكريا وكامل الخلمي واختار تلحين زكريا أحمد ..

وأعد طلعت حرب المسرح بكل ما يحتاجه من اضاءة فنية ، واكسوار من الطراز الأول ، ونجحت شركة ترقية التمثيل العربى (عكاشة اخوان) فى أول يناير سنة ١٩٢٦ فى أن تقدم رواية

على بابا — اوبراكوميك من أربعة فصول . واشترك في هذه
الرواية عليّة فوزى في دور مرجانة .. وعمر وصفي في دور قاسم ،
وعباس فارس في دور شيخ المنصر .. وكان التلحين كله لـ زكريا
أحمد .. ومثلت الرواية في القاهرة والاسكندرية ونجحت نجاحا
ملاحقا .. لم تحققه أية رواية أخرى حتى هذا التاريخ ... » .

بين سيد درويش و زكريا أحمد

من ميزات ثوراتنا وانتفاضاتنا الشعبية الأخيرة أنها استطاعت أن تخلق من بين صفوف الشعب شخصيات بارزة تمكنت من أن تلعب أدوارا خطيرة في تطوير بلادنا والانتقال بها من عهود الظلم والظلام والاحتلال ، الى عهود العدالة والمساواة والتحرر .. ومن هذه الشخصيات من حمل المدفع والبنديقة والقنبلة ، والقلم ، دفاعا عن حقوق الوطن وذودا عن كرامته وحرية ومنها من اتخذ من الفنون الشعبية كالموسيقى والغناء والتثيل ، أسلحة يحارب بها العدو ، في قوة وضراوة ، ليترك بها حصوله ومعاقله وليقضي بحزم واصرار على كل آثاره وبقاياها ..

ومن الظواهر التي استرعت انتباه الدارسين لتاريخنا وجود تشابه غريب بين بعض الشخصيات البارزة التي تكمل الواحدة منها الأخرى .. ففي دنيا السياسة — مثلا — نجد مصطفى كامل ومحمد فريد . الأول هو باعث الحركة الوطنية في بداية القرن العشرين والثاني هو حامل شعلة التحرر والانطلاق التي سار من خلفها الملايين .

وفي دنيا الموسيقى نجد سيد درويش وزكريا أحمد ، بمثابة

التوأمين فبينما يفجر سيد درويش الثورة الموسيقية العربية ،
ينجح زكريا أحمد قرابة الأربعين عاما في أن يكون العارس الأمين
للموسيقى العربية الأصلية يذود عن حيائها ، ويدافع عنها ، ويضم
الى كروزها — بكثرة — تحفا من روائحه .. ولم تخل جلسة من
جلسات زكريا دون أن يشيد بفضل سيد درويش على الموسيقى
العربية ، ودون أن يؤكد ما كان يجسمها من اخوة ، وسداقة ،
وزمالة ، وفي أحسن الحالات التسمية لزكريا أحمد ، كان يقنى
لسيد درويش الكثير من الأغاني والألحان التى كانت بالنسبة له
أعذب الأغاني ، وأجل الألحان ...

وعندما بدأت اكتب قصة زكريا أحمد ، روى لى زكريا بنفسه
كيف تم اللقاء بينه وبين سيد درويش .. ونشرت ملخصا لهذا
اللقاء فى عدد المصور الصادر فى ١٦ أكتوبر سنة ١٩٥٣ جاء فيه :
« تصادف أن ذاع فى مصر اسم موسيقار صعد الى قمة
الشهرة وهو الشيخ سيد درويش ، فقلل السبعة الى الشيخ زكريا
بعض أعمال الشيخ سيد ففتن به ، وقرر أن يسمى اليه فى
الاسكندرية لينعم بساعه .. كان سيد درويش وقتئذ يقضى فى
أحد المقاهى البلدية مقابل خمسة عشر قرشا كل ليلة ، فلاحظ
أحد أصحاب الملاهى الأجنبية بيدان المثنية أن الموسيقار العربى
يجتنب الناس من كل حذب وصوب ، فأرسل يعرض عليه الفناء
فى ملهى مقابل ثلاثة جنيهات ذهبية كل ليلة ، فرفض سيد درويش
وبرر رفضه بأنه ينسجم فى الفناء بين أبناء البلد لأن هناك تجاوبا
بينه وبينهم .. ولكن صاحب الملهى وسط لديه الشيخ زكريا ،

وكان قد أصبح من المقرين اليه ، فما زال به حتى قبل وذهب الى
الملهى وغنى ليلة نجح فيها ، ولكنها كانت الليلة الأخيرة ، فقد
رفض سيد درويش أن يغنى فى ملهى بعد ذلك . وقال ان الاعجاب
الذى أحاطه به المستمعون لم يفعل به ولم يشعر بأى أثر فى
نفسه ولذلك فضل أن يعود الى الملهى البلدى الذى يتقاضى منه
١٥ قرشا على أن يغنى فى الملهى الأجبنى الذى يدفع كل ليلة ثلاثة
جنيهات ذهبية . « وقلت فى ختام المقال : « وفى اليوم التالى كان
ذكرىا فى محطة السكة الحديد يقطع تذكرتين درجة ثالثة واحدة له
والثانية للموسيقار الشاب سيد درويش ، وفى القاهرة عملاً
الموسيقار الشاب .. »

ولم ألتق بعد نشر هذا المقال سطرًا واحدًا يغنى ما جاء فيه ..
ثم كان أن نشر الأخ محمود السعدنى قبل وفاة ذكرىا أحمد
بفترة غير قصيرة مقالا فى مجلة روزاليوسف عن ذكرىا أحمد
قال فيه :

« وذكرىا أحمد هو أول من اكتشف سيد درويش ، وهو
الذى سحبه من يده كما فعل مع أم كلثوم بعد ذلك وحضر به
الى القاهرة . »

ذهب الشيخ ذكرىا الى كوم بكير ، واخترق الأزقة المظلمة
والطارات الموحلة حتى وصل الى ملهى الشيخ سيد درويش ..
وعندما دخل الشيخ ذكرىا الملهى فوجئ « برجل عرضى طويل ،
يرتدى ملابس المشايخ ويجلس بين أفراد التخت يغنى فى عصبية »

بينما المستمعون منصرفون عن غناؤه الى الطاولة والكوتشينة
وكان الشيخ سيد يفتنى لعنا بسيطا عميقا جليلا :

أنا مالى هيبه اللى قاتلى

روح اسكر وتعالى ع البهى

وكان أبرز ما فى اللحن بساطته ، يمكن أن يفنيه كل انسان من
سيد درويش الى صبي المقهى ، وعندما انتهى سيد درويش من
الغناء قدمه رجل اسمه طلبة الى زكريا أحمد ونظر الشيخ سيد
الى زكريا وقال فى صوت رهيب :

— قوم بنا ...

وقام الشيخ زكريا مع الشيخ سيد ودخلا بيتا ومعدا الى
الدور الرابع وعلى ضوء الكلوب الباهت راح الشيخ سيد يفتنى
أحدث ألحانه ، وتاه الشيخ زكريا فى غيوبة ونطح العائط برأيه
أكثر من مرة ، ثم أفاق من غيوبته على ضوء باهر ، فظن أن
الشيخ سيد استعان بكلوب آخر ، ولكنه فوجئ بالشئ نطل
عليه من الأفق ، وأنه قضى مع الشيخ سيد عشر ساعات كأنها
عشر دقائق ولا تزيد ... ١١

ولم يبت الشيخ سيد بالاسكندرية بعد ذلك ، هجر كوم بكير
وجاء مع زكريا أحمد الى القاهرة .. وفى مثل هذه الأيام فى
رمضان منذ ٤٢ عاما ، كان رجلا اسمه سى محمد عمر ، يحيى ليالى
الشهر المبارك فى أحد مسارح عماد الدين ، وفى أول يوم سى عبده
واليوم الثانى سى محمد عثمان واليوم الثالث صالح عبد الحى ،
واليوم الرابع الشيخ يوسف المليلاوى والخامس والسادس ،

وكل عبارة ذلك الجيل احتشدوا في مسرح سي عمر لآحياء شهر رمضان ، وعندما استمع محمد عمر الى سيد درويش أفسح له مكانا بين المعلقة الكبار .

ولكن سيد درويش هجر القاهرة بعد أن جرب حظه على مسرح محمد عمر وعاد مرة أخرى الى كوم بكير .. والسبب أن محمد عمر قاله خمسة عشر جنيها آخر الليل.. فتذف سيد درويش بالجنيئات الذهبية على الأرض ولطش محمد عمر قلما وضربه بمصاه الخليطة على رأسه ، وقال في ثورة عنيفة :

— بأه ندى ابن عبد الحمى « صالح عبد الحمى » ١٠٠ جنيه وتدونا خستائر .

وعاد سيد درويش الى كوم بكير يعمل بـ ٧٥ قرشا كل ليلة ! ولكن زكريا أحمد ذهب الى كوم بكير مرة أخرى وعاد به واشتغل الشيخ سيد مع الريحاني وقبض ١٠٠٠ جنيه ذهباً في شهر واحد وأهق كل ما ربحه حتى آخر قرش .



ولم يتحرك أحد للتعقيب على ما جاء في مقال السعدني ، وفي عدد المصور الصادر في ٢٨ يوليو سنة ١٩٦١ قلت :
« ولم يكن زكريا أحمد رجلاً فردياً في تفكيره ، لقد كان منشداً مضجوراً في تخت الشيخ اسماعيل سكر ، فأظهره للجمهور الشيخ اسماعيل سكر ... »

وكان « ترسا » في ماكينة للشيخ على محمود واستطاع أنه يجعل من هذا الترس « موتورا » جديداً ...

فلماذا لا يقوم هو بمقام النسخ سكر والنسخ على محمود .. ؟
لماذا لم يكتشف هو الآخر خامات جديدة لعلها تحدث انقلابا
في عالمي الموسيقى والفناء ... ؟

لماذا لا يضع هذا الهدف في ذهنه وفي قلبه ... ؟
ولماذا لا يحاول باستمرار فلهطه يوفق ... ؟
وبدا بعد نفسه للمهمة الكبرى التي ألقاها بنفسه على
عاتقه ... مهمة اكتشاف العناصر الطيبة ...

فقد تعادف أن سمع زكريا أحد عن موسيقار شاب يعني
بعض الأغاني التي بلحنها وسمع لأول مرة أغنية امتازت بلحنها
النمى :

وسأل عن صاحب الأغنية فإذا به موسيقار لا يعني في
الأفراح ، بل يعني في أحد المقاهى البلدية بالاسكندرية مقابل
خمس عشرة قرشا كل ليلة ..

ورويت القصة التي سبق أن نشرتها بالصور .

وفي اليوم التالي تلقت كثيرا من الرسائل ، يعقب فيها
أصحابها على ما جاء في هذا المقال ، وكان من أبرز هذه الرسائل ،
رسالة من الأخ محمد إبراهيم — صديق سيد درويش وزكريا
أحد — وقد جاء في هذه الرسالة ما يلي :

« أما قصة اكتشاف زكريا لسيد درويش ، فلم أسمها منه
مطلقا وأن الحقائق تثبت بأن مكتشف سيد درويش هو أمين
عطاقة ، حيث سلقته الظروف الى استماعه وهو يعني للمال من
فوق السقالة ، فكانت سببا في سفره لأول مرة الى سوريا ١٩٠٩ ،

مع فرقة أمين وسليم عطا الله .. وقد حدثني للرحوم مصطفى رضاء فقال ان هذه القصة ولو انها حقيقية الا ان الذي يعتبر المكتشف الحقيقي ليد درويش هو الشيخ سلامة حجازي مستهدا على ذلك بأنه كان في صحة سلامة حجازي حيث ذهب الى استماع سيد درويش في قهوة شيان بالاسكندرية سنة ١٩١٠ وكان يردد في ذلك الوقت الحان سلامة حجازي ومحمد عثمان وعبد الحمولى .. وقد غنى في هذه الليلة الكثير من الحان ، وشكا للشيخ سلامة اعراض الجمهور عنها ، ولكن الشيخ قال له مشجعا وقد كان يعتر برأيه :

— سر في طريقك ولا تكن الا الحائف ، فان لم تنفوقها الجاهير الآن ف سوف تفرض ضما عليهم مقبلا ..

كما ان الشيخ سلامة حجازي قدمه ذات مرة ليغنى بين الفصول في رواية « غانية الأندلس » قائلا للجمهور :

— هذا هو خليفتي ..

وقاضت عبقرية سيد درويش بعد وفاة سلامة حجازي بعد ان قام بتلحين روايات عديدة لفرق نجيب الريطالى وعلى الكسار ومنيرة المهدي وأولاد عكاشة وفرقة الخاصة .. بينما بدأت الحان زكريا في الظهور بعد وفاة سيد درويش بعامين أو ثلاثة .. ٦ فكيف اذن تم اكتشاف الشيخ زكريا ليد درويش .. ٧

وعموما فان العظيم يلقى عقبات تعد عن السير يقطع شجبا وبماني صابا حتى يرقى ذروة المجد ، ويتسم شاق العزة ،

وتفتح أمامه السبل ليصل الى المكان الذى هياته له الأقدار ..
وهكذا كان سيد درويش وصنوه زكريا .. والا فمن يكون اذن
قد نم على يديه اكتشاف زكريا أحمد ؟؟ .. وهل زكريا أحمد قب
في داره متظرا من يكتشفه ؟؟ .. !!

وكتب الأستاذ عبد الفتاح محمد يقول :

« أما عن اكتشاف زكريا أحمد سيد درويش رحمها الله .. فإن
المعروف للجميع أن صاحبى الفضل الأول فى اكتشاف سيد درويش
هما الأستاذان أمين عطا الله وسليم عطا الله اللذان رحلا بسيد درويش
الى الشام فى رحلتيهما عام ١٩٠٩ وعام ١٩١١ ، ويمكن التأكد من هذه
الحقيقة بالاطلاع على مذكرات الأستاذ أمين عطا الله التى اشترتها
وزارة الثقافة والارشاد . وبالرجوع الى مذكرات الأستاذ نجيب
الربيعانى التى نشرتها دار الجيب والتى أعدها للنشر الأستاذ
بديع خيرى والأستاذان ابراهيم العشماوى وأنور عبد الله ،
نلاحظ أن الأستاذ جورج أبيض هو أول من أحضر سيد درويش
من الاسكندرية الى القاهرة ، وكان سيد درويش يعمل مغنيا فى
مقهى صغير بهى كوم الدكة (مسقط رأسه) وكانت له صلات
ببعض الممثلين فلما وصلت فرقة جورج أبيض الى الاسكندرية
ذهب سيد اليها ليزور بعض أصدقائه من مثليها .. وفى فترة
الاستراحة سمعه حامد مرسى فأعجب بصوته وعرض الشيخ سيد
على حامد أن يغنى مقطوعة لعنها له خعيصا وهى « زورونى فى
السنة مرة » وقالت الأغنية لجاحا كبيرا وكانت فرقة أبيض فى حاجة
الى ملحن فعرضت على الشيخ سيد أن ينضم اليها ... » .

وقد قلت تعقيا على رسالة الأخ عبد الفتاح محمد التي
نشرتها بالمصور في العدد ١٩٢٥ أول أغسطس ١٩٦١ :
« ان سرف سيد درويش الى الشام في جوقه عطا الله ليس
معناه ان صاحبي هذه الجوقة هما اللذان اكتشفاه ، فكثيرا ما يعنى
القنان في فرقة لا تعرف قدره حتى تهباً له ظروف من يكشفه
ويقدمه للجماهير وقد أعان زكريا صاحبه سيد درويش على سلوك
الطريق المؤدى للجماهير .. » .

والحديث عن اكتشاف سيد درويش ، قد تناوله الكثيرون .
ومنهم الأستاذ يونس القاضى الذى كتب بقول في العدد ١٨٢٥ من
المصور الصادر في ٢ أكتوبر سنة ١٩٥٩ :

« في سنة ١٩١٤ كتبت على صلة بزكى أفندى صالح معاون
مكتب بريد باب الخلق ، وكان يؤدى لى بعض الخدمات ، فقد
كنت أؤثر ان يحتفظ لى بخطاباتى في مكتب البريد حتى أمر عليه
لإتسليمها بين يوم وآخر ، وحدث مرة أن طلب منى أن أكتب أغنية
لمطرب (غلبان) يعرفه في الاسكندرية اسمه الشيخ سيد درويش ..!!
حاولت أن أتهرب منه ، لكنه ألح بشدة ، ولم أجده بدا من
كتابة الأغنية .. وخشية أن يعود فيطالبنى بأغان أخرى تعمدت أن
أكتب له أغنية ظننت أن الشيخ لن يفتنيها ، فقد كانت عبارتها
مكتسوفة .

ولئن أن الأمر انتهى بينى وبين المطرب الاسكندراني
الغلبان ولكننى فوجئت بالناس بعد أربعة أيام يرددون هذه
الأغنية .

لم يكن هناك اذاعة ولا دور سينما ، ولكن الشيخ سيد وضع
للأغنية لحنا تناقله الناس من الاسكندرية الى حلوان في أربعة
أيام .. ١

وأسرعت الى الاسكندرية ، وبحث عن الشيخ سيد في كل
مكان ولكنى لم أجده .

وأرهقنى البحث فجلست في احد المقاهى ، وفجأة أقبل رجل
مفتول الثارب والمضلات وسألنى عدة أسئلة دقيقة ، وكأنا هو
يحقق معى ورأيت أن أحسم المناقشة فقلت له :

— لذا كنت تعرف الشيخ سيد فين أرجوك تسلم له الكارت

٢ ...

وغاب الرجل قليلا ثم عاد ليقودنى الى المنزل ، ولم أعرف ان
كان ملهى عاما أو بارا أو مطما ، فقد كان عامرا بالنساء والرجال ..
ووقت قليلا ثم أقبل رجل عريض المنكبين ظننت أنه أحد فتوات
الاسكندرية ، ودون أن ينطق حرفا سحبنى من يدى الى حجرة
داخلية ، وفجأة أسرع نحوى يماقنى وبصر وجهى بقبلاته ..
وسأله :

— لم كل هذا الفوضى ؟ ولماذا تحتجب عن الناس .. ؟

— كله من البنت (بنت ال ...) أصلنا مسكنا في بعض ..

وأنا مش عايز أرجع لها ...

— مين هيه ... ؟

— جيلة ... حييتى ...

ودعاني الشيخ سيد لتناول الغداء ، وقبل أن يبلغ المطعم
تركني ودخل الى محل رهونات وخلع خاتمه الذهبي من أصبعه
وساعته ، وأسرع الى أمنعه من رهنهما ، وأكدت له أن في جيبى
٢٥ جنيهًا وهو مبلغ يكفى ولكن الشيخ سيد ناز قائلًا :

— حتيجي في اسكندرية وتصرف من جييك ... متحيل ...
وما كدنا فرغ من طعامنا حتى رأيت الشيخ سيد وقد تسمرت
فيه فجأة ، وقبل أن أسأله أقبلت علينا حسناء رائعة الجمال ،
ووقت قبالتنا وقالت والغضب يتلظى لها في عينيها :

— حضرتك الشيخ يونس اللي من مصر .. مش كده .. ؟
تسمع كلمة !!

ولأول وهلة أدركت أنها جليلة حبة الشيخ سيد .. ووجدتني
أضئ معها جانبًا وإذا هي تقول لى :

— آنا مش عايزه أبهدله قدامك عشان أنت ضيف . وأنت
طبعًا ما يرضكش انه يهزأنى وأنا اللي اسكندرية كلها بتعمل لى
حساب .. !!

— هو عمل ايه ياست جليلة ؟ ..

— ساينى والناس شتانة فيه .. أنا عايزاه يرجع معايا دلوقت
وبعدين أهزاه قدام الناس ، واكرشه ، بس أبقي أنا اللي كرشته ،
مش هو اللي ساينى !!

وعادت بى الى مكان الشيخ سيد وقالت له :

— قوم يا سيد .

وقام الشيخ سيد ومرت ساعة ، وساعتان ، ولكنه لم يعد
بعد ، فبعثت اليه هذا الزجل ...

م الساعة سبعة تسعة ونص وعيني عليك لا يده بتبسم
وتحبنى يا أخى حبك برص والنبي ما اخذك على ضرة
ولما لم يعد سيد ذهبت الى منزل جليلة ، فوجدتهما يجرعان
كنوس السعادة ، لم تفر به ، ولم تفرده ، ولم يهرب منها كما
وعدنى ، لقد كانت جليلة ملهته التى كانت توحى اليه بأروع
الألحان ، وعندما أفاق لنفسه فى صباح اليوم التالى أسرع
بالحضور الى الفندق الذى كنت أقيم به وانتقنا على السفر معا
الى القاهرة ولكن خوفا من أن تعرف جليلة اتفقنا على أن أسافر
وحدى ثم يلحق بى فى قطار آخر ... » .

وفى البحث الذى نشره الفنان أمين فهمى عن زكريا أحمد ،
جاء ما يلى :

« مزية أخرى عرفها فى زكريا كل من عرفوه ، تلك هى فرحة
الفطرية الشديدة ، بكل موهبة يعرفها فى سواه ، وبذله كل جهده
فى الانسادة بهذه الموهبة والعمل على ابرازها وفتح المجال أمامها ،
من ذلك — مثلا — ان زكريا وهو فى بدء حياته الفنية بالقاهرة
سمع لعنا جديدا قبل ان الذى أبدعه شاب يعمل مطربا فى مقهى
متواضع فى الاسكندرية ، فسافر الى هناك فورا وذهب الى
المقهى حيث استمع الى ذلك الشاب وما أشرقت شمس اليوم
التالى حتى كانا فى طريقهما الى القاهرة معا وبقي فيها الشاب
الاسكندراي ، منذ ذلك حيث لمع اسمه وذاعت ألحانه ، وأصبح

بفضل عبقرية التي اكتشفها زكريا وآمن بها الملحن الأول في البلاد .. ولعل القراء قد عرفوا أن ذلك الفنان السكندري الشاب لم يكن إلا المرحوم الشيخ سيد درويش ، ورغم أن حياة الشيخ سيد درويش لم تطل بعد ذلك أكثر من خمس سنوات فقد ظل زكريا وفيًا لعبقريته النادرة ، لا يترك فرصة إلا اتهمها للاستفادة بفنه الغالد ، وترديدها كما سمعها منه أحياء لذكراه وبعثا لما قدم لموسيقانا ... » .



وبالرغم من الآراء المتضاربة في اكتشاف سيد درويش ... فانا أومن بأن الرواية التي قصها على زكريا أحمد في صيف ١٩٥٣ ، عندما كان يروي لي قصة حياته ، هي أصدق الروايات ، لقد كان زكريا أحمد ، مريضاً وكان يقص قصته بكل ما فيها من عيوب وماخذ ، كانا كان يلقي شهادة أمام محكمة التاريخ .. وفي أكثر الأحيان ، وعندما كان يروي مسائل خاصة ودقيقة ، ومحرجة للغاية كنت أسمع صيحات أولاده تنطلق من كل مكان ، « هو ذا كلام تقوله يا بابا » ... « العاجات دي راحت من زمان » ... وكان زكريا يصر على أن يروي قصته — ومنها معرفته بسيد درويش — كما هي — بلا مبالغة ، ولا « تزويق » ، لا ينقص حرفاً ولا يزيد حرفاً ...

لقد التقى زكريا أحمد ، عشرات المرات بسيد درويش ، ذهب إليه في الاسكندرية أكثر من مرة قبل عام ١٩١٦ ... وروت

مذكرات زكريا التي لا تكذب أبدا قصة لقاءه به في عام ١٩١٦ وكيف كان يشكو من سوء الحال ، وبعد عام ١٩١٦ وكان ظروف سيد درويش — في بداية حياته — أقصى مائة مرة من ظروف زكريا أحمد .. فزكريا ولد ، وعاش في العاصمة منبج القرن .. ومركز السلطة ، ومقر الحكم .. والمجال الطبيعي للشهرة .. وسيد درويش ، ولد وعاش في العاصمة الثانية حيث الثقافة الأجنبية ، والقرن الأجني ، وانحصر الأجني ، في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، له السيطرة ، والنفوذ ، وليس هناك ما ينسج من أن سيد درويش قد استفاد من صلات زكريا أحمد ، وبمعارفه .. والذين التصقوا بزكريا أحمد ، ودرسوا طباعه من معارفه — بل ومن خصومه — لا ينكرون أبدا كيف كان زكريا عاملا مساعدا في هدم أي فتان التقى به حتى لو كان ذلك التقدم على حسابه هو .. فزكريا لم يكن يحقد أبدا ، ولا يحمل للناس جميعا الا الحب كله ، والود كله .. وبالنسبة للفنانين كل الفنانين لا يحمل الا أصنى أنواع الحب ... وأخلص درجات الود ...

ولمنا لا نكون مبالغين اذا قلنا أن البهار زكريا أحمد بمبتكرة سيد درويش ، وتجيد زكريا أحمد ، لفن سيد درويش ، واعجاب زكريا أحمد بالمدرسة الموسيقية التي جدد كيانها سيد درويش ، واعتراف زكريا أحمد بالزعامة الفنية لسيد درويش كان ذلك كله من العوامل الهامة التي ساعدت على ازدهار هذه الموهبة القذة في أيامها الأخيرة .. وعندما يكون الفنانون فنانين بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، يكون التعاون بينهم صادقا والتكامل بينهم ،

منتجا حيث لا مجال للعقد ، ولا للمنافسة غير الشرفية ، ولا مجال للهبوط الى مستوى الصراع الهدام .

لقد كان عمر سيد درويش القنى ، وعمره الزمنى يسبقان عمر زكريا أحمد بضع سنوات ، ولكن الاتصالات زكريا ، ووجوده فى قلب العاصمة ، وعدم انطوائه على نفسه أتاح لزكريا فرصا لم تتح لسيد درويش .. ثم أتبع سيد درويش فرصة ، ثورة ١٩١٩ التى اشترك فيها الشعب كله ، والتى قدم فيها الآباء والأجداد أرواحهم الطاهرة الزكية ، بلا مقابل .. كانت ثورة شعبية بكل ما فى هذه الكلمة من معنى .. الفلاح الذى لا يملك الا بندقيته يصمد الى نخلة مرتفعة ، لكى يصطاد احدى الطائرات البريطانية المسلحة المهاجمة .. والعمال والفلاحون يهاجمون بنفوسهم القطارات المسلحة البريطانية ، ويفقدون فى كل معركة مئات منهم فلا يخشون مهاجمة قطارات أخرى والرجال والنساء والأطفال من يقيمون فى المدن ، ومن يقيمون فى القرى والنجوع والكفور يضمون أرواحهم على أكتفهم ، مشتركين فى هذه الثورة بكل ما يملكون من قوة .. وجهد .. ومال .. وأرواح .. وكان تأثير سيد درويش — لسبقه القنى والزمنى — بالثورة أكثر من تأثير زكريا أحمد .. ولعل التقدير أراد أن يعدل بين الصلاطين فمنح سيد درويش عبقرية قصيرة تلالا دفعة واحدة ، بسرعة لقت الأنظار ، ومنح زكريا أحمد ، عبقرية طويلة الأجل ، ظلت تلالا شيئا فشيئا ، الى أن بلغت القمة بحد وفاة سيد درويش فى أغسطس سنة ١٩٢٣ ...

الطلق سيد درويش — متأثرا بالنورة — انطلاقة كبرى لفترة
لا تتجاوز خمس سنوات ، ثم أسلم الشعلة لـ زكريا أحمد ، لفترة
لا تقل عن ثمانية وثلاثين عاما ..
وكان زكريا أحمد ، امتدادا لسيد درويش ، وكانت مجالات
التقدم والتطور بالنسبة لـ زكريا أحمد ، أوسع منها بالنسبة لسيد
درويش ...



وسارت الأمور بالنسبة لـ زكريا أحمد بعد وفاة سيد درويش ،
هينة ، لينة ، ليس فيها ما يسبب الضيق أو التعب ، وليس فيها
ما يعوقه عن التقدم نحو الثمرة والمجد بخطوات سريعة ،
وثابتة .. لقد استطاع في سنوات قلائل أن يحتل المركز الذى كان
يشغله بجدارة سيد درويش .. واستطاع أن يشغل مكان الملحن
الأول ، تطلق أغانيه ، بسرعة البرق ، الى جميع أرجاء البلاد ،
وتهاوت عليه أصحاب شركات الاسطوانات لكى يؤلف ويلحن ،
ويضئ ... وبما عرف عنه من ساحة ، وإتقان وإخلاص ، ومحبة
للغير ، استطاع أن يجذب اليه الكثير من المعجبين والأنصار ..
وهو في الوقت ذاته ، ينعم باستقرار عائلى لا مثيل له في دنيا
الفنون ، لذلك انطلق بسرعة كالصاروخ وهال ذلك بعض الخصوم
الذين ساءهم أن يبرز واحد منهم هذا البروز الجبار .
وبدأت حملة من أقسى الحملات الفنية التى تعرض لها في
تاريخنا الحديث فنان من الفنانين ..

كانت منذ بدايتها — وحتى نهايتها — قوية وعنيفة ومنظمة ..
وكانت تعتمد دائما وأبدا ، على بعض أصدقاء الشيخ المقربين
الذين أكلوا معه كما قال « عشرات الأرباب من الخبز ، ومئات
الأرطال من الملح » ...

وكان ميدانها الأول مجلة المسرح ، أولى مجلاتنا الفنية وأكثرها
انتشارا والتي سبق أن قالت في عددها الصادر في ٢٢ نوفمبر
سنة ١٩٢٥ « ان الشيخ زكريا الملحن الوحيد في مصر اليوم الذي
يستطيع أن يصنع شيئا من الابتكار ويسمو به الى درجة الابداع
وسيكون لحامد مرسى وزكريا أحمد أثر خالد في النهضة الفنية » ،
ثم انضمت اليها طبقا لخطة موضوعة ، صحيفة كوكب الشرق أولى
صحفنا اليومية الحزبية ، ثم انضم اليها بعض هواة الهجوم في
كثير من صحفنا اليومية والأسبوعية التي تقرأها آلاف الجماهير ،
أو التي لا يقرأها الا أصحابها والشرفون عليها ..

واستخدم المهاجمون كل سلاح .. ولم يتورعوا أبدا في
استخدام ما لا يليق استخدامه من الأسلحة ...

وتكهرب الجو

وبدأ الناس ينفذون من حول الشيخ وبدأت أعماله
الفنية التي انتشرت وازدهرت ، ودخلت كل بيت ، وكل مسرح ،
وكل صالة ، تعرض للذبول والضياع .

وبدأ الشيخ يشمر بالمرارة .. مرارة الهجوم .. ومرارة الدفاع

ومرلة الناس الذين أوشكوا أن يتأثروا بالمجوم دون الدفاع ..
التليفونات التي كانت تدق كل صباح ومساء ، والتي لم تكن
تسك أبدا عن الرنين ، والضجيج ضعف صوتها أو كاد -
والرسائل التي كانت تتوالى كل يوم مع كل صباح ، حاملة
الإعجاب والتقدير .. والزوار الذين لم ينقطعوا يوما ما عن زيارته
والالتفاف حوله ، والسهر دواما في موكله ، قد تخلص عددهم
بصورة لغت أنظار الأطفال المضار .. ١١

وكلما ظهرت مقالة عنيفة يخيل لقارئها أن الشيخ قد انتهى ،
انتهى موكب المناقنين والمطلين والمزمرين ...

وكما ظهرت مقالة دفاع قوية ، متينة ، عادت الأجراس الى
الرنين ، والرسائل الى الوصول .. والزيارات الى ما كانت عليه
أو الى شبه ما كانت عليه من الكثرة والوفرة .

ولم تكن محنة الشيخ في أصدقائه الذين قادوا ضده الهجوم
بأقل من محنته في أصدقائه الذين انضموا من حوله بعد أن بدأ
ضده الهجوم ..

ولقد سمي الشيخ هذا الصنف من الناس الذين لا يعرفك
إلا إذا كنت غنيا ، أو مشهورا ، أو صاحب نفوذ ، « بأنهم بنى آدم
قش » يظهرون مع الخير ويختفون عند بواذر الشر . ولا يعرفونك
أبدا إلا إذا كانت لهم عندك حاجة .

بدأت الحملة بكلمة نشرتها مجلة المرح بمددها الصادر في
١٠ مايو سنة ١٩٣٦ تحت عنوان « أتعرفون الشيخ زكريا أحمد؟ » ..
وقد جاء في هذه الكلمة ما يلي :

« أتعرفون الشيخ زكريا أحمد .. ؟ هل سمعتم عن الملحن
 المصري ؟ هل سمعتم حالته في رواياته الأخيرة ؟ التلحين فوضى
 في مصر .. وهذه الفوضى لا ضابط لها .. ولا قانون يبرى دائما .
 ويظهر في وسط هذه الفوضى شخصيات تشق لنفسها طرائق الى
 عالم الشهرة والمكافأة الحسنة بين الناس من بين هؤلاء الملحنين
 الشيخ زكريا أحمد المعروف الذى لحن عدة روايات ..
 وقد استغل في المدة الأخيرة بتلحين رواية لمرح الأذربكية
 اسمها « على بابا » .. ولا يعلم الا اقله متى تظهر .. ١١ » .
 واحترار القراء كما احترار الفنانون ونساءلوا لمصلحة من تنشر
 هذه الكلمة تحت صورة للشيخ زكريا أحمد ، وما هى المناسبة
 التى دفعت كاتب هذه الكلمة ليقول هذا الكلام الذى لا يعرف
 أحد ما المقصود به ، ولكن الشيخ زكريا باحساسه الطيب وصدق
 قرامته ، التى لا تخطئ عرف كاتب الكلمة ، عرف الهدف من
 وراء هذه الكلمة ..

وتوقع زكريا أحمد أن وراء هذه الكلمة المسمومة ما وراءها ..
 وبدأ يتأهب فعلا لمركة جديدة ..

وكب محمد البحر — لعل الشيخ سيد درويش — فى مجلة
 المسرح بتاريخ ١٩ يوليو سنة ١٩٢٦ ، وبعد شهرين وأسبوع من
 تاريخ نشر تلك الكلمة ما يلى :

« اطلعت يوما على اعلانات بمدينة الاسكندرية فحواها أن
 السيدة فتحية أحمد ستعطي حفلة طرب بتياترو الهمبرا ١٠ الجارى ،
 فتأقت نفسى الى أن أحضر تلك الحفلة .. وابتدأت الآلات تمزف ،

وابتدأت السيدة تغنى وسمعت ضمن ما قاله السيدة قطعة مطلعها:
أدى وقت البرنيطة بلا دوشة بلا زبطة

الفنم يسبوا لك ، اعمل قصك حيلة
وما كانت تستقر في ذهني حتى اعترتني دهشة وخاصة عندما
قيل لى ان هذه القطعة من تلحين الأستاذ زكريا أحمد ، فمجت
ما الذى حدا بالأستاذ المذكور أن يتخذ لنفسه صناعة غيره ، فهل
يقصد بذلك أن يرمينا بالجهل والغباء ، وانا لا نميز بين الألحان
المتشابهة ، أليست هذه القطعة على قد لحن من الحان رواية
« الباروكة » وهو « شوف كيفك » ...

فضلا عن أن الشيخ زكريا أحمد سبق أن لحن قطعة أخرى
وهي « ارحى الستارة اللي في ربحنا » وكانت على قد لحن « الفين
حمد الله » .

وأغضينا النظر عنها مؤملين أنه قد لا يعود الى هذا العمل ..
وحيث انه تكررت منه هذه القطة للآسف نضطر الى أن نقف بشدة
في وجه الأستاذ المذكور راجين ألا يماود الكرة مرة ثانية
والا فنضطر الى فعل ما هو أشد وأقوى ... » .

ويمضى محمد البحر مهددا زكريا أحمد ، وزملاءه الذين
يسرقون الحان والده باتخاذ وسائل أخرى منها الكشف عن كافة
السرقات التي قام بها الملحن المذكور أو غيره ...
وقرأ زكريا أحمد الكلمة وكتب الرد بالتالى :

« صديقنا الأستاذ عبد المجيد أفندى حلمى .. اطلعت على
ما جاء بمجلتكم الفراء تحت عنوان « سرقة » بامضاء محمد

البحر ، ولولا مكانة مجلتكم ما أعرت قوله التفانا لأن جهله
بالتن وانح جدا ، ولعلنى أنها مناورة المقصود منها معلوم ،
فبالاختصار أكتب هذه الدعوى تكذيبا تاما وأطلب من مدعيها
اثباتها » .

وطلب زكريا أحمد بأن ينشر محمد البحر النوتة الموسيقية
فى مجلة المسرح ، لينشر هو الآخر النوتة الخاصة ، بلحنه ، وأنهى
زكريا كلمته بقوله : « وإذا لم ينشر النوتة فهذا أكبر دليل على
كذبه .. » .

ولو أن الأمر كان طبيعيا لما ترددت المجلة فى أن تعلن أسفها
لنشر رسالة محمد البحر ، الذى لم يكن قد تجاوز بعد الخامسة
عشرة من عمره ، وأن تعلن فى الوقت ذاته ثقتها وتقديرها للشيخ
زكريا أحمد ، غير أنها قالت تعقيا على خطاب الشيخ « انه دفاع
واه ضعيف لا يبرر موقفه ، ولا يخرج من الورطة التى أوقعه
فيها محمد البحر ... » .

ويكتب محمد دواره مدير فرقة تمثيل كوم الدكة ، ولم يكن
قد تجاوز فيما يقول - الخامسة عشرة من عمره - خطابا الى
الشيخ زكريا عن طريق مجلة المسرح يطالبه فيها بأن ينشر أولا
نوتة « آدى وقت البرنيطة » ثم علينا بالطبع أن تنشر نوتة
« شوف بختك » « فانت ملحن بامكانك عمل اللحن فى ساعات ،
أما نحن فلا نعرف شيئا عن ذلك .. أليس كذلك .. ؟ » .

وكتبت المجلة تحت صورة للشيخ زكريا أحمد قائلة بمناسبة
الضجة القائمة حول تلحين الشيخ زكريا أحمد وهل هو مبتكر أم

يترسم أثر غيره ننشر له هذه الصورة .. وهي آخر صورة له
أخذت من شهرين تقريبا ...

وننشر المجلة « مجلة المرح » أيضا أن الشيخ زكريا كان
مرتبلا مع فرقة الماجستيك بمقد شهرى قدره ٢٥ جنيها ولكن
الشيخ زكريا طالب بزيادة هذا المبلغ فرفض طلبه ، وبذلك انفصل
نهائيا عن مسرح الماجستيك .

ورد زكريا أحمد على ذلك بقوله :

« انه لا صحة إطلاقا لما نشرته مجلة المرح واني ما زلت
متعاقدا مع المرح المذكور لتلحين رواياته عن السنة القادمة
أيضا ... »

وتنشر المجلة التكذيب في مكان وتنشر في مكان آخر خبرا ،
يكذب التكذيب .. وهكذا .

وبنصح الشيخ يونس القاضى عن دوره في هذه الحملة فيقول
في نفس المجلة :

« وأنا أقسم بن خلق الشيخ زكريا أحمد وحكم على شمس
سمته بالغروب اننى ما خرجت من صفوف المتفرجين الا في هذه
الكلية ... »

ويضى قائلا انه ما فعل ذلك الا ليكون عند سوء ظن الشيخ
زكريا أحمد به .. ويكتب مرة أخرى سلسلة من المقالات عن
الشيخ زكريا كلها طعن فيه وفي فنه — وقد سبق الإشارة إليها —
ويكتب مرة أخرى تحت عنوان « ليهذا زكريا » :

« ساء الأحد الماضى قصد زكريا حديقة الأزبكية وجلس في

البوفيه يتزلف الى فهمي أفندي أماذ رئيس جوقة الملحنين بفرقة
السيدة منيرة المهديّة ورجاء في أن يحكم بأن دخول « ارضي
الستارة » يخالف دخول « الذين حمد الله على سلامتك » ودفعاً
لهذا اللبس أقول ان زكريا أحمد أول يوم أخذته لتلقين السيدة
فاطمة سري ، قطعة ارضي الستارة كان معاً محمد أفندي عوض
المواد الكبير وتوفيق أفندي الرقاق وصديقي المحترم الحاج
أحمد المرشدي ، وصديق زكريا فكان التلقين عند ابتدائها همزة .
ارضى مدودة ، أو هكذا ارضى الستارة ، فلاحظنا عليه ملحوظة
أن مد الهمزة لا يليق فقال نخطفها فخطف الهمزة كما خطف اللحن
من صاحبه ثم زدت له سطراً يا مفرشين يا احنا .. ومضى الشيخ
يونس يقول .. أما طلب الشيخ زكريا أحمد نشر النوتة فهذا
يحتاج الى سؤال الملحن اللاحق هذه الأسئلة والاجابة عليها ، وأنا
أبهرع بعقر الكليشيات الخاصة بالنوتة على حسابي — واليك
الأسئلة :

— على يد من تعلمت الموسيقى؟

— هل تعرف النوتة الموسيقية ؟

— هل يصدق الشيخ درويش الحريري اذا قال انك تجهش كالفرس؟

— والشيخ على محمود اذا قال انك قاضي؟ هل لم تتفق مع أحد اصداقك على انك تأخذ الحركات التي اهلكت وتذيعها لتحياها من جديد؟

حبك اليوم هذه الأسئلة ومتى أجبت عليها رجوت البحر
أن يعتبرك موسيقيا وبشر النوبة ... » .

وينتهي الشيخ يونس كلمته بقوله « وليكن عند حسن ظني
بفكره ولا داعي للتججج وليكت .. » .

وفي العدد ٣٠ أغسطس سنة ١٩٢٦ ، ونحت عنوان « زكريا
أحمد في الميزان » نشرت مجلة المسرح كلمة لمحمد البحر قال فيها :
« انتنى مستعد لاجابة طلبكم وارسل النوبة اذا ما اجاب
الاستاذ الملحن ، والقناذ العبقري مع ملاحظة انه اذا لم يجب
بنوع خاص على السؤال الاول من اسئلتكم ، وهو على يد من
تعلمت الموسيقى بصدق وامانة » فساكون مضطرا الى ذكر
الحقيقة ويان من منا يكون لدى قراء المسرح الجاهل الكذاب
على انى من الآن أعد حضرة الملحن وعدا صريحا بأن اكف عن
نشر ما لو ظهر بعده لكان كافيا لاسقاطه في هوة لا يجد له مخرجا
منها بعد .. نعم أعدته من الآن بذلك اذا نشر على صفحات المسرح
انه لا يمكنه ان يلحن الا ما توحى به روح والدى الفقيده وأن
يعتذر عما فرط منه من وصفنا بالجهل والكذب .. » .

وتمضى مجلة المسرح فى الهجوم بلسان الأديب محمد محمود
حواره لتقول :

« المدافعون عن الشيخ سيد درويش رحمه الله أربعة : رجلان
ويافعان أما الرجلان فهما الشيخ محمد يونس القاضى والشيخ
محمد على خاطر ، وأما اليافعان فهما محمد أفندى البحر نجعل
الفقيده وكاتب هذه السطور ، وليس معنى هذا أن هؤلاء الأربعة

لا غيرهم الذين يدافعون عن التقيد ، فكل غيور على الفن يعمل ذلك ولكن أقصد أنهم المظلمون على كل شيء .. » .

هذه مقدمة كتبها بمناسبة على أن قولاً أفندى الملا الذي هو صديق الشيخ زكريا أحمد الوحيد في الاسكندرية جاءه خطاب الشيخ زكريا يقول فيه « الرجا اسكات محمد البحر ومحمد دواره عنى مع التحرى عن المدعو دواره هل هو رجل كبير السن أم هو شاب صغير مثل البحر ، لا تخف يا شيخ زكريا فنى زائد من البحر يساوى عرك ...

وقال فى الخطاب أيضا انه يريد الاتفاق مع عائلة التقيد على أن ينترى روايتى الباروكة وشهر زاد ، وأن يأخذ الأديب محمد أفندى البحر كساعده له ويعلمه الموسيقى والتلحين ... يا شيخ زكريا بدلا من أن تعلمه ، تعلم أنت ا ، ولما ذهبت لمقابلة نقولا أفندى الملا ، جرى الحديث بينى وبينه أقطف منه هذه الأجزاء على سبيل الفكاهة لا غير ..

هو : اسمح يا بنى الت صديق البحر فعليك بنصيحة ، قل « لا تثق بالشيخ يونس فكلامه مجرد كلام وبين له فوائد اتفاه مع الشيخ زكريا . تعرف يا بنى ده الشيخ زكريا سيفع مبلغا عظيما لنا لروايتى الباروكة وشهر زاد دول ستن جنيه مش لعبة ...

أنا : أستاذ يا خواجه .. عال جدا ، سعيدة يا سيو .

ثم انصرفت جاريا ...

اذن الشيخ زكريا سارق بدون شك ولكن سرقاته لا يعرفها

التقليد لذلك فالأنا على أن أذكره بالمسروقات ليعلم أننا نميز بين هان ولنا بجاهلين وليكون الجمهور على بينة .. في رواية مبورة لحن مسروق من الشيخ سيد .. وفي رواية الغول ، من مبدئه الى منتهاه مسروق أيضا .. والغريب المدهش من يا أن يجعل اللحن الأول من روايته مسروقا بحذافيره ، أليس أن يسمى الموسيقى النافذة ... / هل يعترف الشيخ زكريا كه أم تضطر الى انتسية وعمل أشياء أخرى . ملاحظة : ليعلم يخ زكريا أن كلامي يجمع بين رأي صديقي الحميم البحر ورأى ر على نفسه تحمل الرد على شخصين فليجب اجابة شفوية بدة » .

ونمضي المرح فتقول :

« وصلنا بعد هذا الى حد يجب أن يتكلم معه الشيخ زكريا .. الأديب محمد أنندى البحر فقد فعل كل ما يستطيع في سبيل فظة على سمعة والده ، ودعم آثاره ومخلفاته ، وأما الشيخ يا فلم يصنع شيئا غير قوله « انثروا النوتة » ...

بقيت المسألة الثانية التي جاء بكشفها الأديب دواره في رسالته ، صحت كما رولها فهي سبة في حق الشيخ زكريا بل هي ح سقوطه الأدبي والفني أيضا إذ أنها تعد اقرارا منه بالتشيل جهة ، وبأن كل ما أسند اليه من التهم صحيح لا شك فيه .. فماذا يقول الشيخ زكريا .. ان كان يعتقد أن الممت منجاة له مغطى لأن الممت لا يصلح وسيلة لرد المجهوم في كل لان . لو كانت التهم الموجهة اليه شخصيا لأقررتاه على

صته .. أما وهى نهم فى صميم عمله ولم توجه اليه اعتباطا واما قامت واستندت على أدلة وبراهين فلا محل للسكوت .. اذن وللمرة الرابعة فليتكلم الشيخ زكريا .

وفى عدد ٦ سبتمبر ١٩٢٦ نشرت المسرح أيضا تحت عنوان « أنصار الشيخ زكريا كيف يدافعون عنه » كل الناس يعرفون الشيخ حامد مطرب فرقة الماجستيك ولكن قليلون من يعرفون أخلاقه وحقيقة نفسه ، والحديث جرى بين حامد ومحمد البحر وصديق له :

حامد : ايه يا ابنى الضجة اللي انت عاملها ضد الشيخ زكريا ؟
البحر : ضجة هيه (باستهزاء) مش حاجات حقيقية كلها ...
حامد : أيوه أنا معاك فى مسألة أرخى الستارة حتى تمام زى نفعة « هيس يا بوعفان » اللي عملها أبوك .

الصديق : طيب ولحن « آدى وقت البرنيطة » ما هو برضه على نفعة « شوف بختك فى مراتك » .

حامد : (متلحلا) ولكن الشيخ زكريا يحلف انه ماشافش رواية البروكة أبدا .

البحر : (محتدا) كذاب ونسعين كذاب ...
حامد : لكن قوللى بفتحك مش الضجة دى اللي أنت عاملها دى مصدرها واللى ذلك عليها هو الشيخ يونس القاضى ... ؟

البحر : أبدا وانه العظيم
وفى عدد ١٣ سبتمبر ١٩٢٦ من المسرح يكتب الشيخ يونس

لعت عنوان « الشيخ زكريا في الميزان » يتمنى كثيرا بأننى عدوت
على الشيخ زكريا مع انه صاحب عزيز علىّ وكلهم أصدقائي ،
وكلهم أغزاء على ومع ذلك لا أملك لهم قعاً ولا ضراً اذن المسألة
مسألة اتهام ودفاع والاتهام قوى .. والدفاع ضعيف لذن فقد
سقط الشيخ زكريا وهوى ... » .

وتنشر المرح رسالة بتوقيع ع . عامر قال فيها :

« ان الشيخ يونس القاضي قد ثر سهام كنانة أصدقائه بين
يديه وعجم عيادها فأخذ منها أليها عودا وأسلها مكسراً فشر
صحيفته على الناس ، وقد كانوا عنها غافلين ولست أدري ما الذى
حمل الشيخ يونس على أن يتناسى معرفته القديسة للشيخ زكريا
وما قد كان بينهما من صلة ورابطة لا يمكننى الحكم على مداها .
وما الذى جعله اليوم ، يهجم عليه فيمطره وابلاً من أمر سهام
النقد ، ثم لا يكتفى بكل ذلك فينبش قبور الماضى من تراها جيفة
قدرة بضمها على المشرحة ليحللها أو فى المرأة ليخرج منها صورة
حقيقية .. » .

ويبقى صاحب الرسالة فيقول :

« لست أدري متى ولا كيف صار الشيخ زكريا ملحناً
أموسيقاراً ، فلقد عهدناه فى الماضى القريب لا يعرف غير القصة
النبوية الشريفة وقراءة البردة والذكر الحكيم .. ثم لم نلبث أن
أراه يخرج بنفس هذا العمل الشريف الى ميدان الفن فيخرج لنا من
الألحان ما عافته الأهس لكثرة سماعه » .

ثم ينهى صاحب الرسالة رسالته بقوله :

« اما أنت يا عزيزي يونس فالضرب في الميت حرام » ثم راع حقوق الصداقة ثانيا ... » .

ومضى الخصوم يكتبون من المقالات ويختلفون من الروايات ما يشاءون وشاء لهم تكتيكهم أن ينقلوا المعركة الى مكان آخر ، له عند زكريا أحمد قدسيته .

ولم يترددوا في اللجوء الى هذه الطريقة لقد تنسوا صورة للشيخ زكريا واحدى الفئات في وضع غرامى ...

ومضى خصوم الشيخ زكريا يهاجمونه في ميادين كثيرة متعددة، كل ذلك رغبة في القضاء عليه أدبيا ، وماديا ، وفنيا ، وعائليا . ولكن مهمة القضاء على زكريا أحمد لم تكن سهلة ولا ميسورة ، وكما اتخذ خصوم زكريا أحمد مجلة المرح لتكون أرضا للمعركة ، اتخذ أنصار زكريا أحمد مجلة « ألف صنف » لتكون أرضا للدفاع عن زكريا أحمد ...

وكما أبلى الشيخ يونس القاضي في معركة الهجوم أبلى الأستاذ بديع خيرى في معركة الدفاع ونشرت مجلة « ألف صنف » في ٢٠ برابو سنة ١٩٢٦ . تحت عنوان « الفن بهان » ما يلي

« جاءتنا كلمة بالمضاء محمد محمود دوارة يتهم فيها الأستاذ الموسيقار النابغة الشيخ زكريا أحمد بأنه سطا على لحن المرحوم الشيخ سيد درويش في رواية البروكة . وقد كان الواجب الصحفي يحتم علينا نشر الرسالة لولا ان حضرة مرسلها يقول في آخرها « واليوم نكتفى بهذا القدر على أن نعود أو لا نعود .. » .

« ونحن لازلنا نحفظ بحقه في نشر كلمته متى وعد بأنه مستعد للمواجهة الجدل والمناقشة بشأها .. واحضار كلام ونوطة القطعة المفروضة سرقته حتى يقتنع هو أو يلزم الشيخ زكريا الحجة بأنه سرق هذا اللحن .. واما أن يصفه بهذه التهمة ثم يتولى هاربا من الميدان ، فهذا ظلم واقتراء وليس من العدل أن يعول عليه .. » .
 وخصت مجلة ألف صنف بعض صفحاتها للدفاع عن فن الشيخ زكريا أحمد ، وكبت مرة تحت عنوان « الى خصوم الأستاذ زكريا أحمد » .. للأستاذ هولا الملا :

« أسمع ضجة تحدث حول الأستاذ زكريا أحمد فاسبين اليه سرقات مزعومة والحملة مدبرة نحو رجل كالأستاذ يعمل للفن بما أوتي من قوة في هدوء وسكون ولست أحاول دفاعا عن الأستاذ وانما كلمة الحق هي التي تنطق لسانى اليوم . وأنا أحد الهواة الذين يستشقون هذا الفن الجميل ويتعلمون أصوله .. » .
 وينهى صاحب المقال كلمته مرجعا الحديث الى انسان أرادته هو ولم يضح عنه « حاسب ضميرك واذا كان بيتك من زجاج فلا ترم الناس بالحجارة » .

وكتب محمد فاضل في مجلة ألف صنف عدد ١١ سبتمبر سنة ١٩٢٦ ، يقول :

« قرأت في مجلة المسرح جملة مقالات في أعداد مختلفة ان الشيخ زكريا أحمد الملحن المعروف سارق العاذ المرحوم الأستاذ الشيخ سيد درويش ، ويدعيها لنفسه مثل « أرخى السارة الى في ريعنا » على قد « ألقين حمد الله على سلامتك » ولحن

« أدى وقت البرنيطة » على قد « شوف بختك » في رواية البروكة .. وبعد ذلك قرأت ردا من الشيخ زكريا طلب نشر النوتة حتى ينشر هو أيضا نوته والحكم للجمهور ، فما كان من « المسرح » الا أنه علق على خطاب الشيخ زكريا قائلا : هذا دفاع واه مع العلم بأن هذا الدفاع أعظم دفاع لأنه محسوس جدا والحقيقة فيه تكاد تكون محسوسة ، فانتظرت لأكون متوجها الى النهاية وظهرت الحقيقة ظهور الشمس فهم يريدون مهاجمة الشيخ زكريا أحمد وتشويه سمعته لا سمح الله — وخصوصا بعد ما كتب الأديب يونس القاضى عن الشيخ زكريا أحمد والذي يناقض نفسه بنفسه ، لأنه قال عن الشيخ سيد درويش انه وجد صوت الشيخ زكريا غير حسن ولا يليق وجوده في جوقة الملحنين في تلحين رواية شهرزاد ولم يتمكن الشيخ زكريا أن يحفظ شطرة من لحن الشيخ سيد في أربع ساعات .. وفي مقال آخر يكتب انه سارق من الشيخ سيد درويش . ومن البديهي أن كل سارق يقط أو نيه جدا ، وهذا يتنافى مع ما قاله الشيخ يونس من أن الشيخ زكريا غبى لدرجة عدم حفظه شطرة من لحن في أربع ساعات .

وأخيرا قرأت العدد الأخير من مجلة المسرح حيث جاء في كلام الشيخ يونس :

« الشيخ زكريا سارق لحن » مصطفاكى « وعمله لحن » تركى افندى « وموجود اسطواناته في محل كالدرون ، فذهبت الى محل كالدرون من باب العلم واشتريت اسطوانة

الشيخ زكريا وقارنت بين الاثنين ولم أجد غير الافتراء من
 لأديب يونس ، وبما انى من هواة الفن وأعزف على العود ،
 وكنت من تلاميذ المرحوم محمود افندى الجرمكنى والشيخ
 يونس وأنصاره ، لم يكونوا على شئ من الفن الموسيقى مطلقا
 فأقرر انتصارا للحقيقة ان ما يقوله الشيخ يونس من ان الشيخ
 زكريا أحمد سارق لألحان الشيخ سيد درويش هو باطل ، ويستم
 منه رائحة العداوة للأستاذ الشيخ ، وأقول للأديب من باب
 الاقتراح ان يتعلم الموسيقى أولا ثم يكتب عن الموسيقى ثانيا ،
 لانه غلط غلطة كبيرة مدهشة من مقارنته للقطعتين « مصطفىاكي »
 و « تركى افندى » ، والغلطة هي ان لحن مصطفىاكي نعم نهاوند
 ولحن تركى افندى نغمة حجازكار « والفرق بين الاثنين كالفرق
 بين الليل والنهار » .. وينهى السيد محمد فاضل مقاله بقوله
 مخاطبا الشيخ زكريا :

« سر لى طريقك ولا يهلك غير كلام الموسيقيين ، وما دمت
 على الحق فافه معك أينما كنت وانما يعرف الفضل من الناس
 بخبره .. » .

وبدأت حللات الافك والتضليل ، يصيها الضعف والهزال ..
 وزاجمت مجلة المسرح الى حد ما ونشرت للسيد قولاً الملا
 من أشد أنصار الشيخ زكريا أحمد ، رسالة بحث بها اليها ردا
 على بعض عبارات قلت على لسانه قال السيد قولاً .. :

« عهدي بالمسرح لا يسرف في القول ، وعهدي بصاحبه
 لا ينشر الا الحقيقة ناصعة ، ولست أدري ما الذى غير تلك الحال

فأصبح المسرح مرتعا خصيا لأقلام صيانية يحركها حب الظهور ،
أقول هذا وقد تلوت والعهشة تمرؤنى ما خطه يراع الأديب
محمد دواره وما لبه الى من حديث ملفق ، وقد كان أوى
بحضرته وهو تليذ لا يجتاز الغامسة عشرة إلا يعود نفسه على
الكذب مدفوعا أو غير مدفوع على انى سأنشر للملا ما حدث
تاركا للجمهور عامة ولصاحب المسرح خاصة تحكيم ضائرهم
وانى لأرضى بهم حكما عدولا . حضر الى معلى يوما فتى راجيا
إياى أن أمهد له السيل لمقابلة الأستاذ الشيخ زكريا أحمد ،
فقلت له ان الأستاذ غير موجود بالاسكندرية ، وقد بلغتني من
أحد أصدقائه بأنه سيحضر قريبا ، فما الذى تبغى من الأستاذ ؟
فأجاب الفتى بأنه يريد التحدث الى الأستاذ فيما يختص بالألحان
التي يدعيها لنفسه وهى منقولة من ألحان المرحوم سيد درويش ،
فقلت للفتى من أنت ؟ وهل لك المام بعلم الموسيقى ؟ فقال بأنه
يدعى دواره ، وأنه لا يدرى شيئا من علم الموسيقى ، فقلت له
وقد تعد صبرى : اذهب يا بنى والتفت الى دروسك ولا تتداخل
فيما لا يمينك ولا تسمع كلام الناس لأنه يضرك .. » .

« هذه هى الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان ، وانى لأقسم غير
حاث بأنه لم يصلنى خطابات مطلقا من الأستاذ الشيخ زكريا
أحمد منذ عام تقريبا ، فهل يا ترى الأديب رأى الخطاب فى المنام
أم حركته أيد خفية تعمل من وراء الستار ؟ » .

وتراجعت « المسرح » بسرعة ، فطلب رئيس تحريرها وصاحبها
من الشيخ يونس القاضى أن يتوقف عن كتابته التى بهاجم فيها

الشيخ زكريا ثم أعلن اعتقال باب الجدل في هذا الموضوع ..
واخذت المسرح تعاود الحديث عن الشيخ زكريا بلهجة جديدة
وتعنه بأنه امام اللحنين .. !!

واعترف الأستاذ محمد دواره بأن الحلة كانت ظالة وان
اللحنين لم يكونا مقببين ولا مروقين وان كلا من سيد
درويش وزكريا أحدهما له طابعه الخاص وأسلوبه الخاص .. وان
زكريا أحمد هو الامتداد الطبيعي الأصل لمدرسة سيد
درويش ..

وانتهت مجلة « لاف صنف » في عددها الصادر في ٣٠ نوفمبر
سنة ١٩٢٦ الحركة بمقارنتها بين سيد درويش وزكريا أحمد
فقال :

« أجل لقد تشابهت نشأتها تشابها تاما ، بدعو الى التفكير
وامتزجت نفسيتهما ، وأرواحهما لدرجة أخطأ تفرقا المحررون
من الذين أكل الحقد قلوبهم فاتهموا الشيخ زكريا بالسطو على
مخلفات المرحوم الشيخ سيد درويش ، ولم يقف هذا التشابه
عند حد ، الفن وحده ، ولكنهما تشابها كثيرا في اعتبارات أخرى
فكلاهما تمنق الموسيقى وبنع فيها بعد أن قضى شطرا من حياته
في قراءة القرآن وترتيله ، وتشابها في استبدال العمامة بالطربوش ،
وفي كثرة الحساد والخصوم الذين بهرفون عنهما بما لا يعلمون ،
وها هو الشيخ زكريا اليوم يتألب عليه حساده محاولين النيل من
فته وكرامته فيفعلون كمن ينطح برأسه الصخر ليوهته .. ولقد
تسم المرحوم سيد في حياته ذروة المجد الفني وان الأستاذ

زكريا وهو لا يزال في شباب قته ، قد بلغ مبلغا لا يتناول اليه
في عصره ملحن آخر . ولئن أطال الله حياته وهو ما نرجوه لرأينا
من عبقرية الفياضة ونبوغه ما يسمو بالفن الى السماكين ..
فنعم الخلف لخير سلف ، ورحمة الله على سيد درويش وسلام
على زكريا أحمد .. » .

ولكن لماذا هذه الامالة في الحديث عن معركة صحفية مضى
عليها اكثر من ثلاثين عاما ؟ والجواب اننى ارى ان هذه الحملة
المفرضة التى اريد بها تحطيم زكريا ، هى بنفسها التى مهدت له
طريق المجد والشهرة .

أم كلثوم وزكريا

(معا على عصابات المجد)

ما الر وراء اهتمام زكريا أحمد بأم كلثوم ، لقد ذهب إليها في طمأى الزهايرة : وهى فتاة مغفورة لا يظن الى موهبتها الفنية أحد ، واستمع إليها . وقدم لها لعنا من أحب ألحانه ، ثم أقنعها بالمجيء الى القاهرة لتكون قريبة من منابع الفن والشهرة ، وأجهد نفسه شهورا طويلة في تنظيم حفلات لها ولتعريف الجمهور القاهري بها في السيدة زينب والحسين والموسكى ، وبركة الرطل و .. و ..

وسافر أكثر من مرة الى المحلة الكبرى ، وقلوب وشبرا و .. و .. ليكون الى جوارها ، وهى تغنى وتشد المواويل والموشحات والمصائد الدينية ثم كان لها لفترة تزيد على الثلاثين عاما ، نعم الأخ ، والصديق والزميل .. ووضع خلال هذه الفترة الطويلة عن طيب خاطر ، موهبته ، وفنه ، وإخلاصه وجهده وأحاييه بين يديها .. حتى استطاعت أن تبرع على عرش المجد ، وتعلو قمة الغناء ..

وعندما حاول الكثيرون من الخصوم القضاء على أم كلثوم ،

ونصرة غيرها عليها بالباطل ، كان ذكرها الى جانب أم كلثوم دائما
يرد عنها سهام الخصوم ، ويحل لها راية الدعاية السليمة المنتجة ،
وكان دواما — حتى بعد أن اختلف واياها — يرى ان قصة
كفاحها يجب أن تدرس في المدارس ، ويجب أن تؤلف عنها
الكتب ، ويجب أن تكون موضوعا لافلام سينمائية .. فهي
الموهبة القليلة النادرة ، التي لا مثيل لها في تاريخنا الحديث ، وهي
الجوهرة السليمة النقية ، التي لا يعود بها الزمان الا في القليل
النادر .. وهي الذخر الذي تبقى لموسيقانا العربية بعد أن تعرضت
لموجات عنيفة من التنكر والاقباس من الغرب ..

وقصة أم كلثوم التي كان يراها جديرة بأن تدرس في المدارس
كما ذكرتها أم كلثوم ذات مرة : « بدأت أغنى وعمرى ثمانى
سنوات وكان ذلك عند مأذون بلدتنا طماي ، وغنيت يوما :
أقول لذات حسن ودعنى بنار الوجد طول العصر آه
ولم تقاض مليا واحدا ، فقد كان شرقا لنا أن نغنى عند
المأذون ، وسمعى أهل القرية المدعوون وقالوا : « ان صوتي
جميل » ..

وفي اليوم التالي دعيت لفرح خفير نظامي في عزبة الحوال
بقرب قرنتنا ، وقد غنيت هناك الى الصباح ، وفي تلك الليلة
تقاضيت أول أجر في حياتي وكان عشرة قروش ، ولم يكن هذا
نصيبى وحدي ، وانما كان أجرة الفرقة المكونة من والدى وأخى
خالد وأنا .. وبدأت القرية نسم باسمي .. وبعد ذلك بخسة

ام اقام الحاج يوسف تاجر الفلاّ بالسبلاوين ليلة ودعانا
أحيائها ، وغيت في تلك الليلة أغنية :

حسى الله من جميع الأعادى وعليه توكلى واعتمداى
وبقيت أغنى من الساعة التاسعة ماء الى الساعة الثانية
صباحا بغير انقطاع ..

وكم كان سرورنا عندما دس صاحب الفرح يده في جيبه
واعطانا أجرنا الضخم ، وكان في ذلك الوقت خمسة وعشرين
لرشا ، سررنا كل السرور واعتبرنا أنفسنا بهذا المبلغ من الأغنياء ..
وبعد ذلك فكر حسن افندى حلى التاجر بمحطة أبو الشقوق
في اقامة ليلة يكون الدخول فيها بأجر .. وكان أجر الدخول خمسة
لروش في الدرجة الأولى وثلاثة قروش في الدرجة الثانية وبلاش
في الدرجة الثالثة .. أى يقف المتفرج من وراء الخيمة .

ونجحت الليلة نجاحا لم يخطر لنا على بال .. فقد حضرها
متفرجون من البلاد المجاورة ، وكان من بين هؤلاء بعض أهالي
المنصورة فأقبلوا يحنوننى .

ولم أعرف أنتى نجحت الا عندما أعطانا صاحب الليلة جنيها
ونصف ، ونظرت الى الجنيه في دهشة ، فقد كان أول جنيه أراه
في حياتى .. ودعانا عبد المطلب افندى الموثق بدائرة المرحوم
كشواوى باشا في الأسبوع التالى لاقامة فرح أخيه في كفر بدماس
ببندر المنصورة بأجر قدره جنيه ونصف في الليلة بما في ذلك
مصاريف الانتقال . وبدأت أشعر بأننى استقلت من مطربة محطية
الى مطربة « عالمية » ذلك انى دعيت بعد ذلك الى الغناء في مركز

اجا .. ثم وجدت نفسي أتقل من مديرية الى مديرية فغيت لي
كمر صقر .

وفي سنة ١٩١٥ كنت أركب حمارا ويسير أبى وأخى على
أقدامهما ..

وفي سنة ١٩١٦ زاد إيرادنا فكنا نركب نحن الثلاثة حميرا ..
ومن الطريف ان أهل الفرح كانوا يحضرون لنا العمير لنذهب
الى الفرح ، وبعد انتهاء الفرح يتركوتا نعود الى بيتنا مشيا على
الأقدام ..

وحتى سنة ١٩١٩ كنت أركب الدرجة الثالثة في قطار السكة
الحديد وفي سنة ١٩١٩ ارتفع أجرى بارتفاع سعر القطن فوصل
الى ثمانية جنيهات ، ثم قفز الى عشرة جنيهات .

وكنا نجلس في الدرجة الثانية وأغنى للكسارى وفي مقابل
هذا يسمح ببقائنا في الدرجة الثانية بتذاكر الدرجة الثالثة ، فقد
كنت أغنى لهذا الكسارى طول الطريق ولا أقف في المحطات .
وتذكر أم كلثوم قصة فرح كانت قد دعت لاجائه فتقول :

« اتفق أحدهم على أن نحى له فرحا بالقرب من نبروه ،
ولا أزال أذكر صبيحة يوم الترح حين أخذنا القطار من السبلاوين
الى المنصورة ثم عبرا النيل الى طلخا وركبنا قطار الدلتا الى
نبروه . ووصلنا اليها أخيرا لنجد مفاجأة تنتظرنا ، فان أصحاب
الفرح قد نسوا أن يبعثوا بالركائب لتحملنا الى قريتهم البعيدة عن
الطريق ، واحترنا بعض الوقت ثم ردد والذى احدى حكمه التى
يلقيها في المناسبات قائلا : « المشغول لا يشغل » ، وأخذ هو

يدبر أمر الركائب فاستأجرنا عددا منها ، واتجهنا الى القرية وكانت هناك مفاجأة أخرى ، كانت القرية خالية من معالم الفرح . وسألنا من بيت أصحابه الذين تعاقدوا معنا واستعلمنا بمجهود شاق أن نصل الى بيتهم وندق بابه المفلق ، وخرج صاحب البيت فاطل من بابه وهو نصف منفلق ونظر إلينا في فضول وقال :

— خير ؟

وقال والدى :

— خير أن شاء الله ، أنت من متفق معنا على أن نحى عندك الليلة فرحا ؟ ..

وقال الرجل وهو لا يزال واقفا في فتحة الباب :

— ما أجلتنا ؟!

فدهش والدى وقال :

— أجلتوه لكنكم لم تقولوا لنا !

ورد الرجل في برود :

— أقول إيه ؟ ما هي البلد كلها عارفة !

ثم صاح بجاره وكان واقفا على باب منزله المجاور :

— ألا يعق يا محمد موش احنا أجلتنا الفرح ؟

ورد محمد في بلادة منيرة :

— آه !

وكانت أعجب « آه » سمعتها في حياة مليئة بالآهات .

ودعينا مرة أخرى الى حلة في إحدى القرى ووصلنا الى

القصرية ونزلنا بمنزل صاحب الحفلة نتنظر مجيء الليل لنبدأ الأفراح ..

وجاءنا صاحب الحفل قرب العصر وقال ألا تريدون أن تشاهدوا مكان الاحتفال ، وقلنا هيا بنا ، فنزلنا الى حيث كان الاستعداد على قدم وساق ، ولما وصلنا الى حيث كان يجب أن أقف لأغنى ، ربت الرجل على كفى في ملية قائلا :

-- اسمى يا بنتى ، حين ترين هذا الفانوس قد كسر فانزلى واختبئى تحت المنصة !

وسأله والدى في دهشة :

— ليه ؟

وقال الرجل في صراحة ما زلت أحسده عليها :

— أصل بقى بالعق ..

ثم أخذ يروى لنا كيف انهم احضرونا لاقامة هذه الحفلة لكي يدعوا اليها أهل القرية المجاورة لينصبوا لهم كميناً أثناء الحفلة ويضربوهم .. وبدأت ركبتى تهتز وأسنانى تصطك وجاء موعد الحفلة وبدأت الجموع تهد الى السرايق ودخلت قاعتين المنصة وأنا أنظر الى حيث يجب أن أهرب عندما يكسر الفانوس .

ثم نظرت الى الفانوس وهو يهتز وقلبي يهتز معه وأنا أغنى « سبحان من أرسله رحمة » ، ولم أحس في حياتى بأنتى أغنى بوجودانى ومشاعرى كما كنت أغنى للفانوس ، وأنا أخاطبه نائفة اليه من خلال الدموع « سبحان من أرسله رحمة » وفجأة تحطم الفانوس ، وكنت أسرع من البرق في الاختفاء تحت المنصة .

ويبدو اننى لم اكن اكثر الناس خوفا ، بل ان صاحب الفرح نفسه هو الذى كان يرتعد رعبا .. فقد اكتشف بعد فوات الأوان ان أهل القرية الأخرى جاءوا وهم أيضا يفسرون العدوان ، وجاءوا في ليثهم ان يلبوا الفرح مانا ، وكانت مفاجأة لصاحب الفرح ان يكتشف ان ضيوفه كانوا اكثر استمدادا وقوة من الكمين الذى نصب لهم ودارت الدائرة عليه : وما صدقنا ان خرجنا من القرية في اليوم التالي ، وأنا أردد من قلبي بإيمان منقطع النظر « سبحان من أرسله رحمة » .

« ما قصة مجئنا الى القاهرة لأول مرة فترو بها أم كلثوم نفسها فتقول :

« وصلت الى القاهرة ولا أذكر عنها غير الكراملة التى اشتراها أحدهم لى من بوفيه بجوار محطة باب اللوق ، وكانت هذه الكراملة هى كل ما جئنى فى القاهرة ، فجعلت ألتهمها واحدة واحدة حتى وصلت الى حلوان . ودخلنا الى المنزل . ولما شاهدنى « البك » وجهها لوجه ، تسلم بكلمات تينتها بنباهتى قال : « ايه لعب العيال ده » . وسأل : « هى البنت دى ائلى حتفى ؟ » قلت : « آيوه » . فآفلزوني مع والدى وأخى الى بدروم المنزل ، وأرسل « البك » يستدعى « العصيت القديم » الشيخ اسماعيل سكر لاقاذا ما يمكن اقاذاه من سمعة السمرة . ولم أشعر بأية اهانة لهذه المعاملة ، نظرا لصفى سنى .. وحضر الشيخ اسماعيل سكر ، فجلس فى الصالة الكبرى للدار وأخذ فى الانشاد . وعند منتصف الليل عرض عز الدين بك على أسدقائه ومدعوبه فكرة استدعائى

ولو للتجربة لعل وعسى ، فقبلوا الفكرة ، وصعدت الى الدار
مسرعة من فرط السرور ، وظهرت أخيرا على وش الدنيا ، وما ان
وصلت حتى وقفت على الكنية استمدادا للفناء .. غابت بكل جراءة
وانطلق صونى متدفقا في ردهات الدار ، ولا أحب أن أصف
ما تمطك الناس من طرب في تلك الليلة ويكفى ان الشيخ اسماعيل
سكر الذى جاء لانتقاد الليلة ، كان الواسطة لدى في اجابة طلبات
« أعد وكان » . كانت أول ليلة غيبتها في القاهرة أو في منطقة
القاهرة ، ولم أكن أشعر بخوف أو خجل ، أو أحس بالمسئولية
التي أحس بها الآن ..

ويروى زكريا أحمد قصة لقائه الأول بأم كلثوم — فيقول :
« كان ذلك في عام ١٩١٩ كنت قد ذهبت الى السنبلاوين
بصحبة المرحوم الشيخ أبو العلاء محمد القرى والمغنى الشهير .
لأحياء ليلة من ليالى رمضان ، وكان وجود القوم يحتفلون بهذا
الشهر المبارك احتفالا كبيرا ، ويمدون له من وسائل السرور
اللطيف ما يحيى القلوب وينمى النفوس .

واستقبلنا على بك أبو العينين صاحب السهرة بالترحيب
الكبير ، وقدم لنا المرحوم محمد افندى عمر القانونجي الذى كان
كثير التردد عليه . وقامت بينى وبين عمر افندى الألفة ، وأخبرنى
أثناء حديثه معي بأن هناك فتاة صغيرة السن ، جميلة الصوت تدعى
أم كلثوم ، ولو تعلمت أصول الغناء لأصبحت مطربة عظيمة .
ولم يسعدنى الحظ في هذه الليلة برؤية هذه الفتاة الصغيرة .
ولم تمر الا أيام معدودة ، ودعيت مرة أخرى الى السهر ،

في هذه الليلة قابلتها ، وكانت بصحبة والدها وشقيقها ، واستمروا لي واستمعت اليها ، ففرحت بها وتبأت لها بالمستقبل الكبير ، ونشأت بيننا صداقة وطيدة دفعتني الى ان اهدي اليها موشحاً مططوقة .

ودعوتها الى القاهرة في حفل ضم مجموعة مختارة من أبناء العائلات ورجال الفن ومن بينهم المرحومان الشيخ أبو العلاء محمد والشيخ علي محمود .. وقد صادفت أم كلثوم في هذه الحفلة نجاحاً كبيراً .

وتعرفت أم كلثوم في هذه الليلة بالأستاذ القصبي والدكتور محمد صبري الذي اشتهر بحبه للتلعين ، كما كانت هذه الحفلة سبباً في أن يبدأ الحاج صديق أحمد متمد الحفلات المشهور في تنظيم حفلات لها ، في فترات الاستراحة بين فصول روايات الأستاذ علي الكسار ، وكان يقوم بتلعين المقطوعات لها الأستاذة أبو العلاء والدكتور صبري ومحمد القصبي .

وكنت في هذا الوقت أقوم بتلعين روايات الكسار فلدعتني أم كلثوم الى تلعين بعض أغانيها وذلك بمناسبة تسجيل عدة اسطوانات لها . وكان أول ما لحت لها مططوقة « اللي حبك يا هناء » من تأليف أحمد رامي ، « وهو ده يخلص من الله » تأليف بديع خيرى ، وكان ذلك نحو سنة ١٩٢٥ .

كما قام الشيخ أبو العلاء بتلعين « أفديه ان حفظ الهوى » و « حقت أنت النى والطب » .

وأخذنا : القمصجي ودادود حسنى وأنا نلحن لها حتى قدم لها
مسيو بارو مدير شركة أوديون الأستاذ رياض النباطى .
ومنذ هذا اليوم أصبح ملحنو أم كلثوم هم النباطى
والقمصجي وأنا ..
وأم كلثوم المطربة الفنانة صاحبة صوت لم أسمع مثله منذ
ولدت .

ونغرق في المذكرات والذكريات والمخلفات ، واتصل بالكثيرين
من أصدقاء زكريا وأم كلثوم ، واسترجع ما سبق أن رواه لى
زكريا في فترات متباعدة عن صله بأم كلثوم . وأعجابه بأم كلثوم .
وسعيه المتواصل ، لاسترضاء أم كلثوم ، ومن هذا كله نرى
الحقائق التالية :

لم يكن زكريا لأم كلثوم في بداية عهدها بالفناء ملحنًا فقط .
بل كان صديقًا وزميلًا ، وأخا تربطه بها وبالأسرة كلها . خاصة
والدها ، وشقيقها خالد — يرحمها الله — كل أواصر الحب والود
والأخوة والصدق .. وزكريا أحمد كتلة وفاء تتحرك ، عندما
تمرض هي أو يمرض أحد من أقاربها يكون دائما بجانبهم .
وعندما تسافر إلى بلدة قريبة أو بعيدة لآحياء بعض الحفلات .
يحرص زكريا على أن يكون بجوارها حتى تجد دواما صديقًا
يفهمها وتفهمه ويخلص لها الود وتخلص له ..

والذين عاشوا الفترة الأولى ، من حياة أم كلثوم يذكرون أن
طريقها إلى المجد ، لم يكن مفروشًا بالورود والرياحين ، بل كان
ملبثًا بالأشواك والحدود ، والقيود ..

وقد تعرضت الفنانة الشابّة لأعنف الحلات ، وأقسى الممارك ،
وقد اطلعت على بعض المقالات التي كتبها عام ١٩٢٦ مجلة
« المسرح » — نعم مجلة المسرح بالذات التي تخصصت في
الهجوم على ذكرى أحمد ، وكتب عنه خمس مقالات من أعنف
المقالات -- ملنا في أم كلثوم ، وكانت هذه الحملات تستهدف
الى الحيلولة بين أم كلثوم وبين الانطلاق الى القمة .

كما انها كانت تستهدف في الوقت ذاته الى ابقاء لواء الزعامة
الفنية معقودا للفنانة منيرة المهدي .. ومنيرة المهدي . لها هموزها
الجبار ، حتى لقد كان يجتمع في بيتها مجلس الوزراء ، واذا غضب
منها أحد رؤساء الوزراء ، كانت تصاحبه بأغنية « تعالى يا شاطر
روح القناطر » ، ويصطحب رئيس الوزراء ويذهب الى القناطر .
وحضر أحد رؤساء مجلس الشيوخ الى حفلة لمنيرة المهدي ،
وتباهى بأنه « أنطونيو .. وأنطونيو هو » أما أم كلثوم فانها
لا تلك ذهابا ولا فضا ، ولا جاها ، ولا سالونا ، اللهم الا العقال
والكوفية ، وموهبة فنية رائعة ، وتعصب لها من بعض الأصدقاء .

وتغلب الصداقة والموهبة ، على السلطان ، والجاه ، والمحف
المنرضة ، ويكتب لأم كلثوم السيطرة على الجو الفني .. وتتعاقد
أم كلثوم مع شركة للاسطوانات كانت قد أوشكت على الافلاس ،
فتقذها من الافلاس ، بالرغم من أن العقد بين هذه الشركة وبين
أم كلثوم كان في صالح أم كلثوم ، حيث كانت الشركة تعطى
أم كلثوم عن الاسطوانة الواحدة خمسين جنيها وهو مبلغ لم يعرف
حتى عام ١٩٢٧ ، ولم يصل اليه سلامة حجازي والميلاني ..

وكان أجر صالح عبد الحى على ملء الاسطوانة اثني عشر جنيها ..
وعبد الوهاب عشرة جنيهات .

وقد نشرت الصحف خبر الاتفاق مع أم كلثوم على خمسين
جنيها للاسطوانة الواحدة في صفحة كاملة ، وأضافت انه قد بيع
١٥ ألف اسطوانة في ثلاثة أشهر ، أى بواقع ١٧ اسطوانة يوميا ،
وهو رقم قياسى في ذلك الزمن ، وكانت غالبية هذه الاسطوانات
التي أحرزت شهرة رائعة من تلحين زكريا أحمد . لقد لحن زكريا
أحمد لأم كلثوم في هذه المرحلة « جمالك ربنا يزيد » و « قالوا لى
أمن قلبك » و « الليل يطول ويكيدنى » و « مالك يا قلبى حزين »
و « العزول فايق ورايق » و « اكون سعيد » و « اللى حبك
يا هناء » .

وقد روى لى الأستاذ حسن لاشين أقدم أصدقاء زكريا أحمد
وأكثرهم صلة به « ان التنافس كان قائما دائما بين أم كلثوم
وعبد الوهاب ، وعندما لحن زكريا أحمد أغنية « اللى حبك
يا هناء » وشاع في الوسط الفنى ان هذه الأغنية ستكون قبلة
الموسم وان زكريا أحمد قد بذل المستحيل لتكون هذه الأغنية
حدثا فنيا جديدا . حاول محمد عبد الوهاب — والمهدة هنا على
حسن لاشين — أن يتعرف على اللحن الجديد قبل أن يظهر في
الجو الفنى ، ودعا عبد الوهاب ثلاثة من أصدقاء الشيخ زكريا
الى تناول الشاي في محل صولت ودفع هو الحساب ، وعندما
خرجت الشلة من المحل طالبها عبد الوهاب بأن تغنى اللحن
الجديد ، وغنت الشلة اللحن مأخوذة بدعوة الشاي من

بعد الوهاب ، وقال عبد الوهاب بعد أن سمع الجزء الأول من
« اللحن : « اللحن دروينى خالص » .. وقال حسن لاشين ضاحكا :
« ما احنا كلنا دراوينى يا سى محمد » .

ويقول الفنان أمين فهمى عن هذا اللحن ما يلى :
« وفى غناء الطقطوقة بالذات كان الشائع عندنا فى مصر ،
وفى أنحاء الوطن العربى كلها ، أن يتم تلحينها على نمط بدائى
بسيط ، فتبدأ بمذهب من احدى النغمات ، تلوه أغصان ثلاثة
أو أربعة كويليات ، من النغمة نفسها . وكل غصن منها صورة
طبق الأصل من بقية الأغصان ، وبقي الأمر كذلك حتى سنة ١٩٣٠
حينما لحن زكريا لأم كلثوم طقطوقة « اللى حبك يا هناء » فجمع
فيها لأول مرة — بين عدة نغمات مختلفة ، تبدأ احداها فى المذهب
وتنتهى بها الأغنية ، وفيما بين المذهب والختام تتعاقب النغمات
متعددة بتعدد الأغصان . وبهذا التجديد قضى زكريا على الروتين
الذى استحكمت قيوده فى هذا اللون من الغناء العربى الشعبى
عشرات السنين . وتخلصت الطقطوقة من الرقابة المملة والسير على
ونيرة واحدة فى لحنها من أوله الى منتهاه . وارتفعت بذلك مرتبتها
بين ألوان الفن الغنائى الى حد كبير ملحوظ » .

ويقول ماهر فرج « من أصدقاء زكريا » — عن قصة مولد
لحن الزنجيران ، ومطلعه « هو دا يخلص من الله القوى بذل
الضعيف » . قضى زكريا ثلاثة أشهر وهو يعد هذا اللحن ، وكان
يجلس فوق السطوح ويقضى ساعات طويلة من الفجر الى مغرب
اليوم التالى سارحا فى اللحن الجديد . وحدث أن اتابه المرض

أكثر من مرة في هذه الأشهر الثلاثة . ولكنه كان يتعجل ، ويستمر في التلحين ، وفي كل ليلة كان يركب هو وزملاؤه عربة حنطور ويأمرون السائق بأن يشي « زى ما هو عاوز » ، ويسر بهم السائق في الأماكن التي يريدونها حتى صباح اليوم التالي ، وهم يرددون اللحن .. وتعود الشلة الى بيوتها .. وفي أذهانهم وقلوبهم ما تم من اللحن الجديد . وعندما انتهى زكريا منه وأصبح راضيا عنه وأصبحت الشلة أيضا مسحورة به وعاشقة له ، ذهب به الى أم كلثوم ..

وانتقل اللحن من قبة زكريا أحمد في التلحين الى قبة أم كلثوم في الغناء : وكان حدثا فنيا رائعا ، ظلت الصحف تتحدث عنه أياما طويلة : اذ كان تطورا للأغنية العربية .

وأعود الى رأى زكريا أحمد في أم كلثوم .. يقول زكريا :
تمتاز أم كلثوم على غيرها من المغنيات بثلاثة أشياء : أولا
إنه وهبها صوتا لا مثيل له من ناحية القوة والجمال ، والثاني
أنها بحكم حفظها وتجويدنا للقرآن الكريم قد اكتسبت خبرة
تجعلها قديرة على إعطاء كل كلمة وكل حرف ما ينبغي للنطق
الصحيح وبحكم العادة ، وببعض المدة أصبح ذلك في طبيعتها
وسلمت مغارج الحروف عندها بحيث تبين سامعها كل كلمة
تغنيها بوضوح تام .. والثىء الثالث هو أنها دقيقة الحس عظيمة
الذكاء ، كثيرة الاطلاع ، فهي تجيد فهم كل أغنية وتحس كل
المعاني التي تتضمنها أو تشير اليها كل كلمة من الأغنية ، وكثيرا
ما يفتح الله عليها فتتمتع في فهم الأغنية وفي الاحساس باللحن

الموضوع لها فتضيف الى المعانى التى يريد بها المؤلف والملحن ،
معانى أخرى متولدة منها شديدة الشبه بها تغلب لباب السامعين
دون أن تخرج عن المقصود فى التأليف والتلحين ومن هنا كانت
لم كلثوم أحسن المطربات لأن صوتها وأداءها يصدران عن فهم
وأحاسيس .. ولا عجب فإن التى تجيد تأدية كلام الله وبرز فيه
جديرة بأن تؤدى كلام الناس والحنانهم أحسن الأداء .

إن المؤلفين الذين يكتبون لأم كلثوم يرون أن فنانتنا العظيمة
لا يمجها العجب ولا الصيام فى رجب ، والملحنون الذين يلحنون
للفنانة العبقريّة يعترفون بأنها غالباً متعبة ، بضم الميم وكسر العين ..
وأم كلثوم فى الواقع ينطبق عليها ما وصفها به المؤثّمون
والملحنون . فأم كلثوم ذواقة للأدب ، ذواقة للفن ، متسكنة كل
التمكن من نفسها ، ومن فنّها ، وهى عندما تختار أغانيها ، أو ألحان
هذه الأغاني ، تكون كالصائغ الذى يستخدم دواماً صدق
المعايير للكشف عن الجواهر الكريمة النادرة . ولهذا فإن مئات
من القصائد والأزجال ، والقطايع ترسل الى أم كلثوم فتقروّها
بأهمية وتختار ما يلائمها ، وما يلائم الجمهور ، وما يلائم الزمن
الحالى والأزمان اللاحقة ، وهى عندما تجلس الى ملحن أغانيها
أو يجلس إليها ، لا تكفى بأن يقدم لها لحناً واحداً أو اثنين
أو ثلاثة .. وإنما هى تريد أكثر من ذلك .. وقد تطلب من الملحن
أن يلحن الكوبليه الواحد مرات متعددة ، وتظاهر بعدم قبول
هذه الألحان وتظاهر بعد أن تختار واحداً من الألحان المقدمة
بنياناً ما قدم للأغنية الواحدة من ألحان .. وتجدد فى معظم

الأغاني بالعان جديدة ، تبدو للسمع الجديد أنها وليدة الساعة ،
وان كانت مخزونة في أعماق ذاكرتها من زمن بعيد .

وفات مرة قدمت لها أغنية بمثابة العان مختلفة ، وذلك
لأنح لها فرصة الاختيار في الوقت المناسب أو في الأوقات
المناسبة ، اننى اعتبر ان أم كلثوم « أسطى » من خيرة « أسطوات »
الفن وصائفة من مهر صائفات الفناء .. انها لا تختار الا الجيد ،
ولا تقدم الا الجميل ، وهى أقدر الناس على تذوق الفن الجميل
وعلى امتاع الناس بالفن الجميل .

ولهذا فقد اختصتها بأكثر من ستين لحنا ليس فيها لحن
يشبه الآخر في أسلوب تلحينه .

ومرة أخرى لنا عودة الى أم كلثوم وزكريا .. الى ذروة المجد
في حياة أم كلثوم وزكريا .. !!

أعماله الفنية المتنوعة

ظاهرتان هامتان امتازت بهما المرحلة المتوسطة من حياة زكريا أحمد ، أولاها وقد كانت أصيلة فيه ، ولاصقة به ، ومعتمدة كل الاعتماد على موهبة خارقة ، لازمته حتى أخريات أيامه . والثانية لم تتكرر الا مرتين أو ثلاث مرات وبمدها انقطعت عنه ، وانقطع عنها ، لأنها كانت عارضة ومؤقتة ، وقد ساقها اليه وساقه اليها المصادفة البحتة ، والظاهرة الأولى نتيجة من نتائج مدرسة الحياة التي تخرج منها زكريا أحمد ، والتي علته ان الفنان الأصيل يجب ألا يعتمد على موهبته فقط ، بل يجب أن يتسلح بالعلم ، والأدب ، والخلق ، وقد كان زكريا أحمد من هواة القراءة ، بل من مدمنها لو جاز هذا التعبير . وكان قادرا على أن يتذوق بقدرة وسرعة كل ما يقرؤه . وكان في الوقت ذاته قادرا على الاستفادة من كل ما يتذوقه ويقرؤه .. ولقد كانت دواوين الشعراء وكتب الأدب ، والنحو والصرف والبلاغة تحتل الجزء الأكبر من مكتبته المتواضعة .. ولما كان زكريا قد رأى بعيني رأسه شعلة ثورة ١٩١٩ وهي تكاد تنطفئ ورأى بعض قادة هذه الثورة وقد تنكروا للمبادئ والقيم التي استمدت الثورة منها وجودها وكيانها .. ورأى الخلاقات الشخصية العنيفة وهي تدب في صفوف القوى

النائرة المناهضة للاستعمار والاستغلال وتكاد تهمي على مكاسب
 الشعب وأهدافه ، ورأى المنافع الخاصة ، والاستغلال البع وقد
 أعمى الى حد كبير أعين من في أيديهم الأمور — أو بعضهم على
 الأقل — فلم يعودوا يفكرون في تحقيق الأهداف الوطنية الكبرى
 اننى تعود على الوطن وعليهم كأبناء لهذا الوطن ، بالخير والتقدم ،
 بقدر ما يفكرون في تحقيق أهدافهم الشخصية الصغرى ، التى
 تعود عليهم وعليهم وحدهم بالجاء ، والمال ، والشهرة الكاذبة ..
 ورأى زكريا أحمد ، البلاد وقد انقسمت شيئا واحزابا تتقاتل
 وتتناكر ، وتتبادل التهم والخيانات كما تتبادل السعى التواصل
 لمرقطة الجهود والكفايات .. ورأى زكريا ذلك كله وقد ألحق
 بالوطن أضرارا جسيمة كان لها صداها في دنيا السياسة والصحافة
 والاقتصاد والأدب والفن ، واذا بأسلحة المعركة التى خاضها
 الشعب تنقلب الى أسلحة تستخدم ضد هذا الشعب .. فالأغاني
 - مثلا - التى كانت لهيما قد أذكى نيران الثورة ، قد
 فقدت حرارتها ، وأصبحت تأخذ دورها المرسوم لها في افساد
 الأطفال والشيوخ والشباب .. حتى لينحرف زكريا نفسه .. صاحب
 النزعة الدينية .. والذى تربى في بيت يبعد كثيرا وكثيرا جدا عن
 مغريات الانحلال .. واذا به وهو « الصيت » الذى ذاع اسمه
 كمقرئ ، للسيرة النبوية والتواشيح الدينية يلحن بعض الأغاني
 الخليعة المائعة التى لعبت دورا هاما في افساد الشعب .. وفكر
 زكريا في أن يتخذ نفسه من هذا التيار وينأى بفته أن يكون أداة
 طيبة من أدوات الفساد والانحلال .. والانحراف . وقرر أن

يؤلف الأغاني بنفسه ، وأن يلحنها بنفسه ، وأن يغنيها أو يوزعها على أصدقائه ومعارفه من يرون رأيه الجديد هذا .. ولما كان ذكرها أحد لا يؤمن بالخطرة وأن كان يؤمن بالتدرج ، فقد أثر أن يتدرج في أغانيه التي يؤلفها ولم يطرق ميدان الحب وما فيه من دلال ووصال وهجر ولقاء ، ولم يتخلف الا قليلا عن وصف الأفراح والليالي الملاح ، وبما ميت ندامة على اللي حب ولا طالني .. ولكن وسط ذلك كله قد ألف بعض الأغنيات الوطنية ، والاجتماعية التي تعالج بعض مشاكل الأسرة .

أما الأغاني التي ألّفها زكريا أحمد في هذه الفترة : « لو كان عزولي » و « ناحت عيوني » و « ضيقت عمري » و « ليلتك سيدة » و « عروستا يا لله » وقد غنتها كلها نعيمة المصرية ، و « لا تقول لي كاني ولا ماني » وقد غنتها فاطمة قدرى و « للساعة اثنين مستتية » وغناها زكي مراد « ما يصحش تعاكسي » و « قد ده وده » وغناها صالح عبد الحى ، « ولو انه مش زى الاول » وغنتها ليلى مراد . كما وضع زكريا أحمد بعض الأغاني ، التي قام بفنائها بنفسه ، ومنها « بقى بالشرف يرصه » و « مايل وخايب » و « حيرتنى وحيرتها » و « كان ليه يا قلبى » و « بدى آجى معاك » التي نشر كلماتها :

بدى آجى معاك فى الفسحة داهيه بالبرنيطة
تفتح فحة خفــــــــــــافى ونعمل زينة
والنسى بالإلا

بابا كان مرته وانا فونو .. خدنى وياه
 ودانى تيارو وكازينو .. ولايش لسياه
 وكماد فونتا على كوبرى قصر النيل .. والكوبرى اياه
 والنبي ياللا تنفع
 يا عينى ع البحر وموجه .. ودهياته
 وخفافاته ومناظره الحلوة ومنزهاه
 وهواه اللى يشغى المضى من عسلاته
 والنبي ياللا
 ومن اغانيه التى كتبها ، ولحنها اغنية « عروستا » التى تعرض
 على الزواج ..

عروستا باللا نحبها .. ياما هى هدية
 كل حلاوة الدنيا فيها .. ياما هى لقيه
 يا بختك باللى ح تقيها

تمخطر بقوامها العالى فرحانة بريسها الفالى
 والتاج الالمانى يلالى بسبى الارواح .. بجان ففاح

دا عريسها ياما لف ودور طول عمره عايش متحير
 مين قدده لقي بدر منور بدعها يا سلام حاجة حلوة تمام

ومن اغانى زكريا احمد التى تدعو الى الحب الهادى :
 ولو ان طبعه غير الاول وف كل وقت يتحول

لما غاب عني وطــول

الدمعة فرت من عيني .. وصعب عليه

ميت ندامة ع اللي حب ولا طالتني

ودوخه الحب والمحبوب ولا قال شي

ومن أغانيه التي حفلت بالعظات الاجتماعية :

قـــــدر دا وده ياما ناس كماء عدد

وان قلنا كده قالوا اظلموا م البلد

ختك رزقتك والناس اجناس والحب اشكال والسوان

يدين تنباس وايدى تنداس والبخت مالوش امان

. كنت صريح . العقل مليح . والعشق جنان في جنان ..

ايش جاب ده لده

. كان عندك ود واخلاص قلبك ما ياعش اتنين

كن دلوقت الموده خلاص القلب يساع اتنين

لنكته كمان . تحلف ايمان . والكذب مالوش رجلين .

تعشق ده والا ده والأشيا ندا

ومنها أيضا :

لا تقولى كانى ولا مانى ولا نمنب ابدانى

بيك دا آخر ده يعيب ده

ومن أغاني زكريا أحمد التي تعالج بعراحة ووضوح مشاكل

امرة وقلق الزوجة لغياب زوجها عن البيت ، وادمانه على

سراب :

للساعة اثنين مستببة وعد عليه شاهدين عليه ؟
وعملت عليه ميت جمعية وخمسة هـ أسكت له إيه ؟
يخرج من البيت الصباحية . ملوى عليه . يرجع سكران الضميرية .
خيته قوية يشغل في . وبشتم فيه . كبدي عليه .
ولا يسألناش اتعذبوا إيه ؟

ياخذ صيغتي يهلكها . وبفرتكها . ولوازم يته بتركها . ويلكلكها
ولوازم الحانة يسبكها . وبحبكها . له ماشفناش العقل ده إيه ؟

ايش حال او كانش متعلم . يا سلام سلم . راح بره يتنور . ولا يظلم
جانا مبلم وباريته يسمع ويسلم . الا بصم . ولا يعذرناش أبدا يريه

النبي تهديه ونصلح حاله . لجمل عيانه . دعوة مظلومة ودعيتها له
ومحتاجاله وأنسوفه عال زى أمثاله . وأعقبها له . ماتخيناش
واسترها عليه

• • •

وقد قام زكريا أحمد -- كؤلف -- بدور كبير في محاربة
المخدرات ، وخاصة مادة الكوكايين ، التي انتشرت انتشارا مخيفاً
في أعقاب ثورة ١٩١٩ .

وبكون زعمى لى نبى لو كنت أطول ماوى
وابطل النـمـ

الكوكابين بالشرق ما فيهن نسير الأرف
 لو قام مزاجي انصرف
 اتقى انجيه انصرف وانجسم بنهم
 من قبل ما اكون واتملم المصفده
 كان سحتي جيدة
 وافهم بدون اكدة وبحالي مهم
 دلوفت حالي تلف بعد الفتى باستلف
 والحظ واخر حلف
 انه ما عباد ياتلف اسكتني وانلم
 الجيب قد ع الخلا واهى بانت البهدة
 والعقل بقى باللا
 والجسم داب وانلا ع الشم باعم
 والله ماني شارب ولا يقيت متعاليه
 وان كنت واد ذوق نيه
 تبطسه وتزدره ومعايا تنفسم
 ومن الأغاني الوطنية التي ألغتها نعمة المصرية :
 ضيقت عمرك هدر وادي انت شفت العبر
 يا للمعجب
 يا معري قوم يا جدع واهتم بكفالك دلسم
 والباب كالونه اتخلم وانا لقيت في السودع
 انك في غاية الخطر
 ايه البب

الجوزة بصمينك والخمرة بتلخفك
والكوكابين جنك والهوراين كنفك
زى اللى حالك أثر

يا ابن العرب

مش عيب عليك والنبي انك تنوف أجنى
ونفون دا خد مكبى وانت السب يا غبى
الله يمك هر
ما تقول وجب

دى مصر دى والدتك وانت ابنها حفرتك
شغل لها فكرتك والب لها لمبتك
هو انت قلبك حجر

ولا شك ان هذه الأغاني — رغم ما يتصف به بعضها بالميوعة
والسطحية — اذا قيت بغيرها من الأغاني التى امتلات بها
الاسطوانات فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، تعتبر خطوة لا بأس
بها فى تطور أغنيتنا العربية .. وقد ظل زكريا يراول تأليف الأغاني
الى آخر أيامه ، وان لم يحاول ان ينشر هذه الأغاني ، او يلحنها ،
وقد كان يحدث تغيرات جوهرية فى كثير من الأغاني التى كانت
تقدم اليه لتلحينها ، وقليلون جدا هم الذين يعرفون ان زكريا أحمد
كان زجالا بارعا وكان يرسل أصدقاؤه ومعارفه بالزجل ، بل كان
يكتب بعض تلفرافات التهنئة بالزجل أيضا .. أبرق ذات مرة الى
صديقه حين عسكر ، فى مصلحة البريد منه بترقيته الى درجة

راقب عام ، وذلك أثناء حركة التطهير التي جرت بين المؤسسين في
وائل أيام الثورة .. قال زكريا يشير الى وزير المواصلات :
رف يختار . رجل طيب ، ما يتعيب ، ولا يغيب في فعل الخير
بشفقة تار ، على ذمت حار ، ومع الأبرار ، وم الأظفار بدون تطهير ..
صيل وشريف ، وعرضه نضيف ، كريم وعفيف . ودمه خفيف ، وعظله كبير
جل أسطى مالوش واسطة ، مدير بوسة ، من الواسطى لأبو كبير
لام ختام ، لأخ همام ، وكلها عام مراقب عام وبعده مدير ..
وكتب الى المهندس صلاح عامر ، يقول بمناسبة ترقبته :

كل الجباب قلوبهم أفراح
لما الاله نساء ، وخلي نجم سعدك لاح
والله قلوب الأعمى الملائين ازراح
لما شافوك الملالي ، أصبحوا في نواح
وانت الكريم المسامح ، والكريم مساح
سلم وخير ومؤمن والايهان دا سلاح
يتقتل به صف الحود الغادر السفاح
الله يعلى مراتبك من فلاح لنجاح ..
وتعيش واشوفك ، بعيني تكسب المرماح ..
والله الوزارة ما هي كثير عليك يا صلاح ..

رحلته إلى الخارج

وبعد هذا الاستعداد في حياة الزجان زكريا أحمد ، فعود إلى وصل ما اقتطع بنا من حياته ، بعد أن انتصر في معركة الكبرى ضد جريدة المسرح وكوكب الشرق ، ومن لف لفها من الهجوم على الشيخ .. وسأدع للأستاذ بديع خيرى صديق زكريا بروى هذه الفترة من حياته .. وعندما يتحدث بديع عن زكريا يكون كمن يقرأ في لوح مسطور أمامه .. لقد كانت صداقة الاثنى عشرة سنة . ودامت أكثر من ٣٥ عاما لم تشبها مرة واحدة شائبة .. قال بديع :

« تمب زكريا من النجاح والدفاع عن نفسه وفكر في أن يتبرج .. قال لى : خلاص انا نعت : عاوز أشوف بلد ثانية اتفتح فيها .. تصور انا عمرى ما خرجت من الاسكندرية . عمرى ما شفت بلاد بره . »



ومصادفت فكرة السفر إلى الخارج هوى في نفسى واخترت زكريا لرحلتنا ... وأعددتنا كل شيء للسفر ، كما حددنا يوما له ، وجاءنى زكريا أحمد قبل ساعات من قيام الباخرة يقول لى والأسف قطع نياط قلبه :

— تصور يا بديع أنا مش ح أقدر أسافر مكان ؟

ووقعت في « حيص بيص » .. كيف أسافر وحدي .. وقد
اعتمدت على رفقة زكريا .. ورحت أتساءل : ما الأسباب التي
حملت زكريا أحمد على عدم السفر ، هل هناك حملة جديدة
ضده : أم ماذا .. ؟

وكان اعتذار زكريا أحمد عن السفر الى تركيا بسبب وصول
للمهندس الألماني المختص في تبة الاسطوانات .. لأنه لا بد من بقاء
زكريا أحمد في القاهرة أياما حيث يجب أن يشرف — كما ينص
المقد بينه وبين شركة كالدرون — على تسجيل اسطواناته واتفقا
— بديع وزكريا — على أن يسافر الأول ويلحقه الثاني فيما بعد ..
وكانت المشكلة الرئيسية في سفر زكريا أحمد وحده أنه لا يعرف
لغات أجنبية ، كما أنه يسافر للمرة الأولى خارج البلاد .. وقال
بديع خيري ، لزكريا أحمد :

— علشان انت ما تعرفش لغات ولا دياولو فعندك توفيق
مليكه ، يوصلك لحد ما تركب المركب في الاسكندرية وأنا أستلك
من ميناء تركيا ، زى ما تكون طرد بوسة .
وقال زكريا :

— ياسى بديع حطك أنا ما اعرفش لغات ، وما اقدرش اركب،
مركب ما اضمنش الاقى فيها واحد يعرف عربى ..
ورد بديع قائلا :

— يا أخى من ضرورى هو انت حتتفل ترجان أدى انت

بتكلم عربى من هنا لاسكندرية ، وتوفيق حيحطك فى المركب ،
واذا صادف فيها واحد ابن عرب يكون من بختك ..
وسأل زكريا :

— وان طلعوا كلهم أجانب اعمل ايه .. ؟
وقال بديع بلهجة الساخرة :

— يا أخى اعمل اخرس يومين ثلاثة لحد ما توصل واشوف
وشك فى استابول .

وسافر بديع الى استابول وهو يضحك من كل قلبه ،
لما سيحدث لذكربا أحد فى سفره وحده وقال :
— أهو يمكن يحصل بعض مفاجآت تنفعنا فى رواية جديدة
ان شاء الله !!

ومرت الباخرة التى تقل بديع خيرى بميناء يبره ، ونصحه
أحد الركاب بالنزول فى ميناء يبره ، ومشاهدة بعض الآثار
اليونانية فقد لا يتمكن من زيارتها مرة أخرى .

ونزل بديع الى الميناء مسلحا بما يعرف جيدا من اللغات :
العربية والفرنسية والانجليزية والتركية وطرطيش اللغة اليونانية ،
وزار بعض المعارف والأصدقاء ، واشترى بعض المور والمجلات
وتعب من اللف والدوران فآثر أن يعود فى الساعة الرابعة مساء
قبل أن تبهر (المركب) بساعتين ليتمكن أن ينام قليلا ..

وفى الميناء تطلع اليه الموظف المختص بحفظ جوازات السفر
للكاب « الترانيت » وقال له بعنف :
— كنت فىن ؟

قال بديع :

— كنت باتسح في البلد !

وقال الرجل اليوناني :

— تنسح !! المركب قام من ساعة .. !!

وضرب بديع كما على كف :

— ازاي .. دامعاده الساعة ٦ مساء .

وقال المؤلف :

— لا يا خبيبي معاد قيام الوابور الساعة ثلاثة نام ..

وحتى في هذا الوقت المعيب بالنسبة لبديع خيرى ، لم يجد
من أن يسأل نفسه :

— أمال زكريا أحمد ، جيعمل إيه .. ؟

وقال المؤلف اليوناني :

— إذا لم تجد باخرة تنقلك خارج الميناء في طرف أربعة
ساعات فسوف تدخل السجن لأنك لا تحل « فيزا » .. «
وعاد بديع خيرى الى المدينة مرة أخرى ، واشترى بيجامة
تنفعه في سجنه ، وراح يمر على كل شركات النقل البحرية
يجد « وابورا » ينقله الى استامبول ، وبذلك لا يدخل

جن ..

وبعد جهد وجد الوابور وكان وابور بضاعة ، وكان مكان
فوق صناديق البضاعة في الهواء الطلق .. ولم تكن المدة
يقطع فيها الوابور المسافة من بيريه الى استامبول ستا وثلاثين
دقيقة كالمعتاد ، وانما كانت سبعة أيام بلياليها ..

وقبل بديع خيرى السفر حتى لا يدخل السجن ..
ويقول زكريا في مذكراته عن هذه الرحلة :

« وصادفت بعض المصريين على ظهر الباخرة ، ولكنهم كانوا بالدرجة الأولى أما نحن من احتوتهم الدرجة الثانية والثالثة ، فكذبوا خليطاً من الأروام ، والأجانب ، وكنت اتفاهم مع خديم الباخرة بالإشارة لجهلى بلغتهم ، وقد حدث لى من جراه ذلك مضايقات لعدم استطاعتى افهامهم ما أريد بالإشارة .. وظللت طول مدة السفر وحيداً لا أجد من أتحدث اليه حتى استامبول ، وكاد يسنى جنون القرح عندما رأيت الميناء التركى لأول وهلة ونزات من الباخرة ، أبحت عن بديع ولكنى لم أجده « لا فى سلقط ولا فى ملقط » فلم أهتم لذلك اذ كنت أحتفظ بعنوانه فناديت تاكسى ، وأمرت السائق بالذهاب بى الى « أوتيل لكسبرج » وكان الأوتيل كما علت فيا بعد قريباً جداً من الميناء ، كالمسافة بين المحطة وشارع عماد الدين عندنا ، ولكن السائق التركى « استغفلنى » واتهمز فرصة جهلى باللغة التركية وبالبلد فأخذ يطوف بى البلد كلها لا مرة واحدة بل عدة مرات ، ولحظت ذلك حين مررت فى شارع اسمه « ييوغلى » سبع أو ثمانى مرات ، وكنت الفيط فى تقصى ، حتى وجدت رجلاً من رجال البوليس فناديت « بوليس » فأشار الجندى على السائق بالوقوف ، فقلت له « أونيل لكسبرج » وكانت هذه الكلمات هى كل ما أعرفه من اللغة التركية ، وفهم الجندى ما أريد فوثب على سلم السيارة وأمر السائق بالسير فإذا نحن فى طرفه عين أمام الأوتيل المنشود ،

وانصرف الجندي وطلب السائق أجره وكان يعادل ٩١ قرشا
فدفعت صاغرا وأنا اشكر الله على سلامة الوصول وسرت الى
داخل الفندق وأنا أحمل هم التفاهم مع عماله .

ونوقعت اننى سأقابل بلغة غريبة وإشارات مضحكة يقوم
بتحليلها « أنا طرف أول » وعامل الفندق طريف ثان ، ولند
لما دهشت حين كلمنى صاحب الفندق بلغة عربية سليمة ، اذ قال :
— أهلا وسهلا ، حضرتك عاوز الأستاذ بديع خيرى ، لقد
سافر منذ ساعتين عائدا الى الاسكندرية .

فقلت للرجل :

— ليه هو الأستاذ بديع ماجالوش تلفراف هنا ؟ ..
تلفرافك وصل بعد أن سافر بساعة ..

وضاقت الدنيا فى وجهى ، ولكن كرم القوم سرى عنى الضيق ،
وقمت أنظر من النافذة لأبصر اعلانا ملصقا فى مواجهة النافذة عن
تياترو ، فسارعت الى النزول ، وسألت صاحب الفندق عن هذا
التياترو وهل رواياته من نوع الكوميديا ، أو الدراما .. فأفهمنى
انهم فى التياترو يمثلون رواية « فاطمة هانم » فذهبت لمشاهدتها
وأدهننى فى التمثيل حسن الصوت وصفاءه وإتقان التمثيل
والإخراج ، والموسيقى التى تكاد تنطق ولقد كان الأوركسترا من
آنسات فقط ، وكدت أجن من الطرب لدرجة اننى صرخت من
الطرب صرخة دوت فى أرجاء الملهى ، فأدار المتفرجون ابصارهم
الىّ فخجلت ولزمت الصمت بمدىها : وكان من بين المتفرجين
الأستاذ مصطفى بك رضا فعرفته ولكنه لم يعرفنى ، فلما انتهت

الرواية سارعت اليه فدهنى لرؤيتي دهشة السرور ، فآلت به
على استخدام الآنسات بدلا من الرجال في الأوركسترا فأفهمي
ان هذا الملهى بمثلته وفنائه وموسيقية انما يقوم على الهواة ،
فقط دون المحترفين ، وان آنسات الأوركسترا هن بنات الوزراء
السابقين وقد ساهمن في هذه الحفلة الخيرية .. وقضيت مع
الأستاذ رضا بك وقتا طويلا انصرفت شاكرة بعد ان أخفت من
— بالطبع — عنوانه ، وفي اليوم التالى أردت ان أقوم بجولة في
نواحي المدينة على ان تكون وسيلتى في الجولة الترام ،
لا التاكسى : توخيا للاقتصاد ، فكلت أركب الترام من أول الخط
الى آخره .. وفي آخر جولة من جولاتى وبينما أنا أقف في
حى كوبرى « غلطة » الموصل بين المدينة وبين الجهة الأخرى
التى بها جامع أيا صوفيا (جامع السلطان أحمد) تقدم منى رجل
طويل القامة عربض اكتفين وقال لى بلهجة الأمر ..
— حسنة ..

فتعلمت عدم سماع كلمته ، فكررها بصوت أجش ، أنه
من المرة الأولى وجهت أطراف شجاعتى وقلت له :
— اتفه كريم !!
فما كان منه الا ان تقدم نحوى حتى لامست اتفه اتقى وصرخ
في وجهى قائلا :

— أين العسنة .. !!
وكاننى به يريد ان ينقض على " بلكمة فلم أربدا من منحه
شيئا وذلك خوفا منه ، فبحثت في جيبى عن فكة ، ولكننى لم أجد

لا ريالاً مجيداً ، والريال يساوي ثمانية قروش صاغ ، وصلدا
ولحدا فان انا اعطيته الصلدي فربما لا يرضيه فتكون النتيجة
بلوا بصيني منه ، وان اعطيته ريالاً كان المبلغ جسيماً على
لنعاذ مثله ..

ونهاية اعطيته الريال وانا صاغر وكنت اعتقد انه سينكرني
ويطعنني بعد ان منحه هذا المبلغ الجسيم . ولكنه خيب ظني
حين « تش » مني الريال بشدة ، ومضى يسبى بالتركية ..
« خريس ادبيس » الى آخر هذه اللعنات والنموت ،
« انا انصنع الطرش .. » وتابعت سيمى الى كوبرى (غلطة)
ونظرت ورائى خلسة فوجدت الشحاذ مكانه لم يزل يسب ويطعن
ولم يرد الا ان يشيعنى بنظراته النارية وكلماته البذيئة وانا اشكر
الله الذى خلصنى من يد عزرائيل استامبول وعמיד شحاذيها .
« وصلت الى الكوبرى ، وما كنت اطاه بقمى اريد العبور حتى
رايت شخصين يستوقفانى ويدان الى ايديهما الأربع .. ففهمت
انهما يريدان « فلوس » ففقت ذرعاً لكثرة الشحاذين فى
استامبول ، وحنقت وصحت فى وجه الرجلين « افه كريم » ،
ولم اكده انطق بجملتى هذه حتى قهقها عاليا وهما يشيران الى :
« اشتد حنقى على هذين الشحاذين اللذين يضحكان على ردى
لهما بكلمة « افه كريم » وكأنى بهما يضحكان منى لجهلى بتقاليد
الشحاذة وهو ادعائى لأمريها .. » ورايت أحد المارة يفرز شخصاً
يرتدى مثل زهما بفلوس فيعطيه تذكرة تبيح له المرور على
الكوبرى ، ففهمت انها يطلبان الفلوس لا الشحاذة وانها يطلبان

لنا لتذكرة المرور ، فدفعت ما ارادا واخذت تذكرة المرور وعبر
الكوبرى ..

وبعد ان كلت قدمائى من السير لجأت الى الترام فركب
أول قطار صادفنى حتى آخر محطة له .. ونزلت منه لأعود اليه
على قدمي ثانية ، وظلت أهول حتى وصلت الى ضاحية جميلة
هادئة فمرت في أرجائها الفسيحة في عالم المنى والأحلام ، واد
بصوت أجش يتردد من خلفي فذعرت واستدرت لأرى مصدره
فرايت رجلين يدل مظهرهما الخشن على القضاة وسوء النية ..
وقد شعر كل منهما في يده خنجرا ماضى الحد .. وتلفت حولي
لأرى أحدا يفيثني فظنا اني أبني الفرار فكشرا أحدهما عن أسنانه
صفراء ، ولكزني بالخنجر الذي بيده فتراجعت الى الوراء ،
وتحسست لأرى موضع الخنجر ورفعت يدي الى وجهي لأرى
هل هناك أثر للدم فيه .. وضحك الرجل الثاني وخاطب زميله
ثم جذبني اليه بشدة وطلق ينظر الى من قمة رأسي حتى أخسر
قدمي . ثم عمد الى تفتيش جيبى وسلب كل ما فيهما من مال ..
وهو كل ما أحضرته معي من مصر ، ثم أشار على بلطف لكي أدخل
سترنى فترددت وأنا أرجوه وأتوسل اليه أن يدعني أحفظ بهما
ولكن زميله القبط الغليظ القلب أمسك بياكسي يريد التأكد من
نوعهما ، فخلعتما ثم أردت الانصراف الا أنه قبض على معصبي
ونظر الى الساعة الذهبية التي بيدي ثم انتزعها وحل بها معصبي
ثم رفعها الى أذنه كمن يستوثق من أنها في حالة جيدة .
ورجعت الى الفندق بعد أن تورمت قدمائى من بعد الشقة

وطول الطريق ، واستقبلني صاحب الفندق ضاحكا معجبا بروحي
الأسبور اذ رأي بالقميص والبنتلون فقط وقال لي :
.. يا سلام يا أستاذ زكريا نخرج كده ، صحيح انت سبور !
وتركه دون أن أرد عليه وذهبت الى غرفتي حيث وضعت
واسي المثقلة بين كفي أفكر في أمري بعد أن فقدت تقودي وساعتي .
لذا لو كنت فقدت النقود فحسب لرهنت الساعة أو بعثتها ، ولكن
الأمر هينا ..

ومضى الوقت دون أن أشعر بمروره ونمت من الجلسة الملهة
والتفكير العميق بلا جدوى فقلت في نفسي « وبعدين يا واد ، اينى
حايبيدك م التفكير ، قوم اخرج اسمى يمكن ربنا بيعت لك واحد
مصرى يسلفك قرشين » .

وقمت الى حقيبتي استخرج منها جاكete أخرى ولبستها
وامتعت يدي الى جيوبها كمعاداتي عندما ألبس ملابسى ، فعثرت
على أوراق مهيلة أخذت أفتش فيها وأمزق ما ليس منه فائدة ..
ووقمت يدي فجأة عند ورقة من الأوراق وتجمدت مرة
واحدة .. فقد عثرت على ورقة من فئة العشر جنيهات كانت من
المزروكات المنيات ..

ونزلت على هذه الورقة ، كما ينزل النيت من السموات ..
ونزلت فرحا جذلا ، بل كدت أطير من الفرحه والابتهاج وقلت
لصاحب الفندق :
— حاج !
قال :

— نعم يا أستاذ زكريا .

قلت :

— أنا مسافر غدا ان شاء الله ..

— ازاي يا مولانا هو احنا له تمتعنا بك .

قلت له :

— لكن يا أخى أنا تمتع باستامبول تمتع جدا جدا ..

قال لى :

— على فين ان شاء الله ؟

قلت :

— « ولله لا أعرف ، اسكندرية ، بيروت ، اليونان ، اى

واحدة من دول » وتركى الرجل وهو يقول فى صوت خافت

لا يكاد يسمع الا بشق النفس .

— أما صحيح فنان ..

وعاد يسأل معاويله :

— « الجماعة القنايين دول كلهم يبنى » ، وأشار بيده ،

اشارة لا يفهمها الا أبناء البلد فى مصر ، معناها يبنى «مناخوليا» ..

وجمعت ملابسى ووضع الحجاب وكل حاجياتى .. وخرجت

لاودع الأصدقاء الذين عرفتهم فى استامبول ..

وفى مساء اليوم التالى حملت حقائى على كفى ، وذهبت

الى ميناء استامبول وأخذت أفكر فى الجهة التى أقصدها

واستبعدت فكرة العودة الى القاهرة لأن الأصدقاء « مينبوتنى

تريقة » واستبعدت أيضا أثينا لأننى بطبيعة الحال لا أعرف كلمة

واحدة من اللغة اليونانية ، ولم تمد لى بطبيعة الحال من جهة
أقصد إليها ، الا بيروت ، وقررت السفر الى بيروت وودعنى
وأنا أغادر استامبول المدينة التى دخلتها ولم أكن أعرف فيها أى
مخلوق خلاف صالح مظهر شقيق حسن مظهر — سكرتير سفارتنا
بأنقرة ، وابن خاله على بك راضى ، ومحمد بك فولاد حاكمدار
الدقهلية وعبد العزيز بك القاضى مأمور مركز منوف . وفى
١٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ وصلنا صباحا روديس وهى جزيرة جميلة
فى وسط البحر ، ثم وصلنا بعد يومين الى بلد اضايا وشكلها
كالعمادى ، وان كانت تختلف عنها فى الارتماع والانخفاض والمناظر
الباهرة جدا .. ثم وصلنا الى مرسين .. وفى يوم الثلاثاء
١٣ أغسطس وصلنا الى الاسكندرية ووجدت شعبها متطفا تماما
بسورية والعروبة وفى اليوم التالى كنا فى طرابلس الشام وبعدها
كنا فى بيروت ..

وأول ما ذهبت اليه فى بيروت مقهى كوكب الشرق لصاحبه
وديع خطاب حيث سمعت ليلة هناك ، ثم اتجهت الى فندق
دار السرور خلف الجامع الكبير لساحة البرج .. وقضيت فيه
مساء يوم ٢٢ أغسطس ، وفى صباح اليوم اتالى ٢٣
أغسطس ١٩٢٧ ، فوجئنا بوفاة سعد زغلول ، ووجدت الوجوم
يخيم على معظم سكان بيروت ، وذهبنا : أمين حسين
وأمين عطا الله ورياض السباطى ، وأنا الى رأس بيروت ، ومنها
الى مقهى كوكب الشرق حيث سمعنا مارى جبران .

وواصلنا السفر الى حيفا وغزة .. والقنطرة .. ووصلت الى
أرض الوطن الحبيب في ٢٦ أغسطس سنة ١٩٢٧ .
وبدا زكريا أحمد — ولما يفيض على وصوله الى القاهرة بضعة
أشهر — يفكر في السفر من جديد الى سورية ولبنان وفلسطين ..
وكانت السفرة الجديدة ، تختلف عن سفرته السابقة ، الأولى
كانت بقصد الفسحة ، والثانية كانت بقصد العمل .. العمل لرقعة
شأن الموسيقى العربية .



قال لي زكريا أحمد ، ذات ليلة وهو يحاول أن يكون جادا .
اتعرف ما الفرق بين الموسيقى العربية والموسيقى الغربية ؟
قلت : لا .. قال : « تماما كالفرق بين السن البلدى والسن
الصناعى » . وراح يتحدث عن « اصالة موسيقانا التى بدأت في
الجزيرة العربية ، قبل أن تبرز شمس الاسلام ، وكيف كان
الشاعر في البداية مغنيا وكيف أبقي الاسلام على الموسيقى ..
وكيف أصبحت الموسيقى العربية جزءا مكملًا للحياة الاجتماعية
العربية .. وروى كيف هوى عبد الله بن مروان ٦٧٥ — ٧٠٥
صناعة التلحين وان تظاهر بمكس ذلك عندما آل اليه الحكم .
وتحدث عن التطور الذى لازم الفناء والموسيقى ، وكيف أصبح
المغنون والمغنيات متبحرين في النحو والشر والفقه والفلسفة
والهندسة والموسيقى حتى قيل ان اسم عالم — وجمعه عوالم —
جاء بسبب التبحر في العلم ، لا بسبب آخر .
وروى زكريا أحمد ما قاله الخليفة المأمون عن اسحاق الموصلى

موسيقى بلاطه الأول : « لولا ما سبق على ألسنة الناس وشهر به عندهم من الغناء لوليت القضاة فما أعرف مثله فقها وحسنا وغنة وثقة » واقاض الشيخ ضويلا في الكلام عن موسيقانا وكيف انتمت ميادينها فلبست ثوبا دينيا فاصما يوم سرت تلاوة القرآن بالصوت الجميل ويوم اهتم المسلمون بالأذان وصلاة الميدين ، ويوم لعبت الموسيقى العربية في الأندلس دورها الخطير في جميع الممالك الأوروبية ولا سيما جنوب أوروبا ، وكيف انتشرت الآلات الموسيقية الحربية كالعود والجنار والنقارة والدف والرباب والنجار والطبل ، وكيف احتفظت هذه الآلات بأسائها الحربية ، وكيف خلت أوروبا تحت تأثير الموسيقى الشرقية وآلاتها عدة قرون الى ان قضى عليها في أوروبا ذبوع اليانو . وسكت زكريا أحمد بركة ثم قال : « هذا ما دفعني الى ان أقوم برحلات فنية في البلاد العربية لنأخذ ما بين شعبها العربي من صلات عن طريق الموسيقى العربية والغناء العربي » ..

وعندما يسافر زكريا أحمد الى بلد عربي للعمل ، لا يسافر فقط كزائر ولكنه يحب أن يسافر « كابن بلد » يعرف تمام المعرفة لهجة البلد الذي يسافر اليه ويلتقي في القاهرة بأصدقائه وأحبابه — وهم كثيرون — من أبناء سوريا ولبنان وفلسطين ويحفظ الكلمات الدارجة عندهم من أول « ايش لونك » الى الاواعي يعنى « الملابس » ومن كلمة « التوقيف » يعنى « الحجز » الى كلمة شحطورة يعنى مركب .. ويضع هذه الكلمات في قاموس يصنعه بنفسه ويحفظه عن ظهر قلب ، ثم يحاول أن يستخدم

كلماته في أحاديثه مع أصدقائه ومعارفه من أبناء الوطن العربي -
 وتلقى من صديقه أمين حنين وكان قد سبقه الى القيام
 برحلات فنية الى البلاد العربية رسالة يقول فيها : « ان انجوس مهدي
 لرحلته وان أبناء الشام وفلسطين على أحر من الجمر لاستقباله ،
 وانهم جميعا ذواقة للموسيقى العربية ، متعصبون لها وان
 الانتماء لم ينجح في محاربتها لها ، وتكونت الفرقة الفنية - كما
 تقول الاعلانات التي وزعت بكثرة في سوريا ولبنان وفلسطين
 » من المطرب المشهور وصاحب الصوت الملوكي النجدي
 الأستاذ الشيخ أمين حنين والموسيقار اغناز الكبير الشيخ زكريا
 أحمد والممثل القانوني المبدع أحمد افندي شريف ، والرقاق
 البارع عبده افندي المصري والكنجاتي البارع المشهور ادوارد
 قدحجي تلميذ سامي شوا وكاميل شامير » وما جاء في هذه
 الاعلانات : « يشهد العالم العربي لأول مرة في عالم الغناء عالم
 تراه عين ولم تسمع له أذن من خيال انتلحين الرائع وجمال
 الصوت الساحر الى عذوبة الموسيقى وجلال الفن » .
 واستقبل الشعب العربي في فلسطين وسوريا ولبنان هذه
 الفرقة استقبالا رائعا ، ونزلت الفرقة اول ما نزلت في صباح
 ١١ يوليو ١٩٢٨ ببيافا ، وبعد ثلاثة أيام انتقلت الى القدس .. ومن
 القدس الى طرابلس .. الى حيفا الى عكا الى صيدا .. الى ..
 كافة المدن السورية واللبنانية والفلسطينية !

وفي هذه الرحلة لا تفارق زكريا أحمد طبيعته فهو يقيم في
 فندق صغير جدا ، فاذا ما أعجبه الفندق أقام به حفلة غنائية

مجانية .. وقد يركب سيارة تاكسى ويجلس الى جوار السائق ، ويتجاذب وياه أطراف الحديث ويعلم ان السائق سوف يتزوج أو يزوج ابنته أو ابنه ، فيصر على أن يبنى في فرح هذا السائق أو فرح ابنه أو ابنته ، وفي الوقت الذى يرفض طلبا بل ورجاء من أمير من الأمراء أو عينا من الأعيان يرغب في أن يقيم حفلة غنائية للتلية أو لشيء آخر غير التلية .

وهو في رحلته فنان من صباحه الى مساءه .. يبنى عندما يريد ولا يبنى عندما لا يواتيه مزاجه ولو اجتمع أهل الأرض أمامه .. وهو لا يفكر أبدا في ربح مادي ، فهو — مثلا — يشترط على المتعهدين أن تكون الأسعار ضئيلة جدا لا تزيد في سورية عن عشرة قروش سورية يبنى قرش صاغ واحد .

ويأسر زكريا أحمد كل من يقابله ببساطته وحيوته واخلامه في عمله .. ظل يبنى في حفلة افتتاح قهوة منتزه حديقة الترقى عشر ليل متتالية من الساعة السادسة الى الصباح بالرغم من أن تذاكر الحفلة كانت تعدد الوقت من الساعة السادسة الى الساعة التاسعة مساء .. وفي قهوة « أبو شاكوش » في يافا ، وقد أعجبه اسم القهوة غنى ليلة مجانا ..

ويروى زكريا أحمد أخرج مواقفه في هذه الرحلة فيقول : « كانت ليلتنا الأولى في هذه الرحلة في يافا وقد استعد لها المتعهد استعدادا لا مثيل له .. وجاء الناس من كل صوب وحلب لسماعنا .. وكنت متعبا لدخلت سريري ونمت وحاول المتعهد بثتى الوسائل إيقاظي دون جدوى ، فلقد كنت بحاجة الى النوم ، وكانت

حالى لا نسمع بالغناء وأنا لا أغنى الا عندما اكون فى حالة
تقسية صالحة .. وبينى وبين المتعهد قلت له كم ستكسب من هذه
الليلة ، قال عشرة جنيهات ، قلت له تفضل .. واطركنى انام .. واخذ
المبلغ وتركنى انام ..

وعندما تلقينا دعوة للاحتفال بتجديد المسجد الأقصى ، طلبوا
من واحد منا أن يقرأ القرآن وكان فى حالة غير طبيعية ، وكان
غير متوضئ ، وبدأ يقرأ قراءة لم تعجبني .. ولم تكن الآيات التى
قرأها مناسبة للمقام ، فذهبت الى حيث يجلس وهمت فى اذنه
طالباً منه أن يترك المكان فوراً ، ويذهب الى دورة المياه بحجه
أن عنده اسهالا .. وبدأت أقرأ بعض الآيات المناسبة كقوله تعالى :
« انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر » وقرأت سورة
الكهف كلها .. وأذنت لصلاة الجمعة ، وكنت فعلاً فى حالة تجلجلى ..
ولم اكن احس بأن فى المسجد ائاماً .. بل كنت كمن خاطب الله ..
ورسوله .. وكان أعظم والذ نجاح احرزته فى حياتى » ..

ومرة اخرى يعود زكريا أحمد الى مصر وكانما تفتحت أمامه
طاقات جديدة للعمل ، فهو يعمل فى وقت واحد مع الريحانى ومع
الكسار ، ومع فاطمة رشدى ، وهو يلحن لأم كلثوم ومنيرة المهدية
ولصالح عبد الحى .. وهو فى الوقت ذاته يلحن للجامعة الأمريكية
ويحى حفلة مدرسة المهندسخانة .. ويحى مع رياض النباطى
— مثلاً — حفلة ختان ابن الشيخ غانم .. ثم فجأة يصبح المؤلف
والملحن والصييت زكريا أحمد .. نجما سينمائيا .. !!



ولم تغل قصة اشتغال زكريا أحمد بالسينما من طرفة وقد سمعته يرويها عشرات المرات .. وهذه هي القصة نقلا عن رواية من هذه الروايات :

« كانت الاستعدادات قد تمت لاعداد فيلم مصرى رائع يترك في بطولته جورج ابيض وعبد الرحمن رشدي المحامي الذي ظلمه هوب الحمامة ليشغل ممثلا .. وكان شاعر القطرين خليل مطران قد وضع للفيلم الحوار ، والقصائد ، وكان كل شيء قد تم لسفر الممثلين والممثلات الى باريس وذلك لتسجيل أغاني الفيلم .. وجاء منتج الفيلم أو أحد أقربائه والعاملين معه يتفاوض معي حول لجبر التلحين .. قال المنتج « الموضوع بسيط جدا ثلاث نقات » .. يعني ثلاث أغنيات صغيرة ، ورجبت بالعرض ..

وسألني المنتج : « نحب تاخذ كام يا شيخ زكريا ؟ »

قلت : الى انت تقول عليه ..

قال المنتج : اربعمائة كفاية عليك ؟

قلت : كفاية قوى والحمد لله على كده ..

قال المنتج : انا قصدي اربعمائة قرش صاغ مش اربعمائة

جنيه زى ما فكرت ..

وهجمت على الرجل فقد أحسنت أنه يريد الاستهزاء بي ..

وكانت معركة شديدا مخرج الفيلم فأعجب جدا بي كمثلي وفكر في أن يسند الى دور القتي الشرير في الرواية : خاصة بعد اعتذار استغاث روستي ، عن السفر الى باريس لأسباب خاصة ..

واستعددت للسفر الى باريس ليس كطحن فقط وانما كمثلي

يقوم بثلاثة أدوار مختلفة في فيلم واحد .. وكانت مشكلة من أعقد المشاكل بالنسبة لى فأنا لا أعرف كلمة واحدة من اللغة الفرنسية ، وذهبت الى متتارى بديع خيرى ، أشكو اليه قلقى من هذه الناحية ، فقال لى بديع خيرى : يا أخى ولا يهلك أهى فرصة نعمل عبيط .. وأضاف بديع قائلا : « استخدم أيديك فى الأحاديث مش فى الضرب ياسى زكريا » ..

وقامت الباخرة حلوان تعمل أبطال الفيلم وبطلاته والكيمارس أيضا وحملوا معهم الأدوات اللازمة للتصوير وللإخراج ويبلغ من حرصهم انهم حملوا معهم يانوس — كان باريس بجلالة قدرها ليس فيها يانوس — وحملت معى « سبت » به شوية قرأتين ويغنى وزيتون ، وأقيمت على ظهر الباخرة فى الليلة الأولى خضاة ساهرة غنيت فيها .. — يا نحيف القوام — التجافى حرام :
واسقنى من ابدك لايدك

سیدی اقه یزیدک وتکید عولذنت
وغنیت ایضا بعض الأغانی التى ستغنیها نادرة وذلك لایبج
لها فرصة المراز ومنها :

المزول فايق ورايق	عمره ما ذاق الفرام
قلبه ما يرحمى عاشق	بس شاطر فى الملام
قلبي لو مال يوم لغيرك	يقي من هجرك غريب
وانت لو تسأل ضميرك	متلاقيش غيرى حبيب
حب مغرم وانت عارف	فيك متيم وانت شايف
بس خايف م الكلام	

وفي اليوم التالي هبت عاصفة وأوشك الجميع على الفرق ،
 بأمر القبطان بتوزيع أحزمة النجاة على الركاب ، وعندما جاء
 دوري رففت قائلاً : المر واحد والرب واحد . وجلست على
 ظهر السفينة في مكاني المفضل وإذا بي أجد السفينة وكأنها قشرة
 لب في مهب الريح ، وإذا بي أجد نفسي قد انزلت الى داخل
 السفينة ولم يبق بيني وبين القاع أكثر من نصف متر وحاولت
 أن احتفظ بتوازني فلم أستطع .. ولما أفتت من دوار البحر
 كانت معدني قد أصبحت خالية ، وأحسيت بجوع شديد ، فطلبت
 العشاء في وقت غير وقته ، فلم يسمح لي به : وكانت زوجتي قد
 أعطتني « السبت » إياه به منين وحلاوة وجبة رومي . من كل
 صنف ، وأخذت أنسلي بما في « السبت » حتى الصباح ، حتى
 تغيب عليه ..

وحاولت في الصباح أن ارتدى قميصي ، فلم أستطع لأن
 جسمي قد نما وازداد ونضاعف وزنه وحجمه .



وصل زكريا أحمد الى مرسيليا بعد بضعة أيام ، ثم اتجه
 والفرقة الى باريس ، وهناك بهرته باريس .. وراح يتسكع في
 المقاهي .. وقضى ليلة في مسرح كازينو دي باري .. حيث رأى
 - كما قال - المدهشات من الموسيقى والرقص .. وأخذ بالراقصة
 المشهورة ميتانجيت ، وتبنى لو أنها زارت مصر ، لتلقى دروساً
 في الرقص الذي لا يعتمد على الجلوس .. وكان زكريا ينتقل من

مكان الى مكان .. من البيجال - حى المرايا - الى الحى
اللاتينى ، حيث تكثر علب الليل ، ومن الشازليزيه - انى
ضواحي باريس ، كل ذلك بعثا عن بيرم اتونسى .. والتقى ببعض
الطلبة المصريين الذين يدرسون الموسيقى هناك . وسألهم عن
بيرم .. وقد اعانه هؤلاء على السير فى باريس ، وحلوا له الكثير
من مشاكله : كانت كارتته الكبرى عندما لا يكون أحدهم معه فى
تجواله . كان يذهب الى المطعم ، ويصف الضام الذى يريد قد
كان سكا اشار الى الماء والسباحة ، واذا كان يضا أشار الى
الدجاج وأصواته ، واذا لم يفهم الجرسون خذنه من يده الى
المضيق لينير انى النوع الذى يريد .

وخطر مشكلة واجهته فى باريس عندما قال له أحد أصدقائه :
« عندما تأتى الآنسة فلانة لتقدم لك فتجان الشاى : قل لها هذه
الكلمة ، وسأل زكريا عن معناها فقال له الصديق ان معناها أشكرك
كثيرا ، وقدمت الفتاة الشاى . وقال زكريا للفتاة نفس الكلمة
وذهلت الفتاة ، فاز الشاب الوديع ، الهادى الذى أعجبت به بد
انقلب الى شاب مستهزئ ، ولم تكن الكلمة أشكرك كثيرا ، واسا
كانت أعطى قبلة .. والطريف ان زكريا أحمد أراد أن يعتذر فى
اليوم التالى فتقدم من الفتاة وقال لها « لا . اعطينى قبلة » .. وكان
بعض ان وضع كلمة لا فى مقدمة الكلمة ، بمعنى تغيير المعنى ، وبد
ضحكت الفتاة بعدما عرفت ان زكريا كان ضحية « مقلب » من
أحد الأصدقاء .. وغضب زكريا وأصر على أن يحفظ فى نفس

الليلة أكثر من مائة كلمة فرنسية .. وذهب الى القندق وحس
تسه فيه الى أن تمكن من أن يحفظ المائة كلمة ..

وانتهى زكريا بيرم ، وزكريا وبيرم صديقان منذ عام ١٩٢٠
وبالتقاءه ببيرم التحت كل مشاكله ، لقد زار مع بيرم كل متاحفها ،
وملاحيها وعلب الليل فيها .. وبدأ زكريا يلحن قطعة الموت وهي
من روائمه .. ثم بدأ يعمل في الاستديو ، كمثل ، وهناك رأى
مشاهير الممثلين والممثلات الفرنسيين ، والممثلات الفرنسيات
وهن بتفرجن على عبد الرحمن رشدي المعامي والممثل الذي كان
يرفض أن يضع قط « الفزلي » على وجهه ليمل الدموع ..
لقد كان قادرا على أن يذرف الدموع ، في أي وقت يريد ..
وبسرعة متناهية .. وكانت الدموع تنهمر من عينيه كالخمر ..

وابتدأ الفرنسيون ، والمصريون يهتمون بالممثل الملحن زكريا
أحمد ، وكان زكريا أحمد ، عندما يخلو لأصدقائه من أهل
الهوى ، يثل بنجاح دور الريحاني والبعة التي في صوت الريحاني
تشبه « البعة » التي في صوت زكريا أحمد .. وربما كان هذا
الى جانب حب زكريا لنجيب الريحاني في مقدمة أسباب نجاح
زكريا أحمد في القيام بدور الريحاني .. وزكريا مثل نجيب
الريحاني لا يمثل وانما هو أمام الكاميرا وأمام الجمهور ، هو هو
لا يتغير ولا يتبدل .. ولذلك فوجيء الكثيرون عندما راوا زكريا
يطرح النص جانبا ، ويرفض القيام بدوريات ثم يقوم بدوره في
« الرواية » وكأننا يقوم بدوره تماما في الحياة ..

ولابد من الإشارة الى فيلم أنشودة الفؤاد الذي اشترك فيه

زكريا احمد كنموذج لأسلافنا منذ ثلاثين عاما .. قصة الفيلم تلخص في أن أمين باشا سامى أحد أصحاب الأطنان الموسرين في سوهاج . كان يزور القاهرة فأعجب براقصة أجنبية فأخذها معه الى سوهاج لتعيش معه هناك .. وأمين باشا يملك الى جانب أراضيه الواسعة « مطبخ قطن » يديره ابراهيم .. و ابراهيم هذا له أخت اسمها نادرة وزوج أخت اسمه حنى .. والتقى حنى هذا بالراقصة وأعجب بها ، وهجر من أجلها زوجته نادرة.. وذهبت نادرة الى بيت أخيها ابراهيم تشكو زوجها وتعتكف في بيته لتشد أنشودة القواد التى كانت تغنى بها في الأيام الأولى من زواجها بحنى ، حيث كانا في قصة حب عيف ..

واتتهز الفرصة ، أحد أشرار المدينة ، واسمه عمر ، وكان يتحرش دائما بنادرة ، وحدث ذات مرة أن أراد معاقبتها بالقوة فظلمته على وجهه .. وأراد عمر الانتقام من نادرة فأطلعها على قصة غرام زوجها بالراقصة الأجنبية .. ولما علم ابراهيم شقيق نادرة بقصة زوج أخته والراقصة ، حاول علاج الموضوع بالحسنى والتقى بالراقصة في مكانها راجيا منها الابتعاد عن زوج أخته .. واحتدمت المناقشة بين ابراهيم وزوج أخته حنى وفي أثناء احتدام المناقشة انطلقت رصاصة أصابت ابراهيم في عينه ، فارتب حنى وانتقل ليعتنى بالجرح فتلوث يده بالدم .. وكان الشرير عمر قد وضع بندقية حنى في مكان الراقصة ليثبت عليه محاولة القتل .. وهرب حنى ، في اللحظة التى كانت زوجته تضع فيها مولودة اسمها ليلى .. ثم قبض على حنى بتحريض

من عمر .. وتأثرت نادرة بإصابة أخيها واتهام زوجها باقتل فماتت لساعتها !!!

ومضت ست عشرة سنة ، قضتها الطفلة ليلى في ضيافة أمين باشا .. وكان للباشا ولد يدعى أحمد انضم في أوروبا دراسة جراحة العين وعند عودته من الخارج كان والده أمين باشا وليلى في انتظاره .. وهام أحمد بليلى من أول نظرة ووافق الباشا على أن يتزوج أحمد ليلى .. وفي ليلة الزفاف وبينما أضواء الفرح تتلألأ والموسيقى تمزف طوحت الأقدار برجل فقير يطلب من أهل المروس صدقة .. ورأته ليلى فاشفت عليه ، دون أن تدرك سببا لهذا الاشفاق .. وأوكلت أمر الشحاذ الى خالها ابراهيم الذي اكتشف أن المتسول ليس الا حنى والد ليلى .. وأصر حنى على ابقاء الأمر سرا حتى لا يعكر صفو عرس ابنته .. واشتد وخز ضمير عمر وباح قبل أن يموت بالسر ، سر اعتدائه على ابراهيم .. وتسنى لحنى بعد هذا الاعتراف أن يحضر عرس ابنته ليلى وأن يراها في ثياب العرس ، بثياب تماثل ما كانت ترتديه أمها نادرة في ليلة عرسها ، وتغنى أنشودة القولا ، التى غنتها أمها من قبل في الأيام الأولى من زواجها بحسن والد ليلى .

ومثل جورج أبيض دور ابراهيم ، وعبد الرحمن رشدى دور حنى ، ومحمد عبد الله دور أحمد ، وزكريا أحمد مثل دور الشرير عمر ..

وعرض الفيلم في القاهرة ، ونجح نجاحا باهرا .. وتحدثت

المصحف عن زكريا الملحن وزكريا الممثل ، وتوات العروض على
المؤلف الملحن الممثل ..

وفكر زكريا في احتراف التمثيل .. ولم يطل به التفكير ..
لقد رفض العروض المغربية .. !!
وفضل أن يكون موسيقارا .. وموسيقارا فقط ..

مع زكريا في يومياته

عشت مع زكريا أحمد في يومياته ، فترة غير قصيرة : شعرت فيها بقدر بالغ من السعادة والغبطة اذ شعرت للوهلة الأولى عندما بدأت قراءة هذه اليوميات اتى اكتشاف دنيا جديدة ، على قمتها انسان كبير ، يكتب لنفسه ولنفسه فقط ، لا يسجل الا الحق ، والصدق ، لا يتطرق انكذب أو النفاق أو المجاملة بتاتا الى حرف واحد مما يكتبه ، أو يسجله ، أو يحميه من تصرفاته وتصرفات غيره من الناس ، دون أن يبدى رأيا معينا ، في هذه التصرفات ، أو هذه التسجيلات .

مرة واحدة رأيت فيها زكريا يشذ عن الخطة التي اختطها لنفسه في يومياته لقد وصف فناثا معروفا يعمل في جهة حكومية بأشنع الأوصاف ، وانزعجت لذلك الذي قرأته ، وأخذت أبحث عن السر وسرعان ما وجدته .. لقد كان زكريا يرى في هذا الانسان المدو الوحيد لرزق عياله .

وبالرغم من أن أصدقاء زكريا رووا الى الكثير عما قطعه هذا الفنان بزكريا ، ولقمة العيش التي يعرض زكريا على أن يحصل عليها بكرامته ، الا أنه لم يعاود أبدا — بعد هذه المرة — الكتابة عن هذا الشخص بسنن هذه القسوة .. وهذا العنف !

ويوميات زكريا أحمد بدأ كتابتها عام ١٩١٦ ولم يتخلف عن مواصلة تسجيل الأحداث التي مرت به يوما واحدا ، حتى نلت الأيام التي انتدنت عليه فيها وطأة المرض ، سجلها بعد أن مرت به الأزمة .. وطريقة زكريا في تسجيل يومياته طريقة عجيبة غريبة ، تكاد تكون الأولى من نوعها في كتابة اليوميات ، انه يحرص كل الحرص على أن يسجل كل التفاصيل بدقة متناهية ، وتشر وأن تقرأ هذه التفاصيل للمرة الأولى ، بتفاتها .. وفي أحيان كثيرة كان يتركنى الملل أو الغضب وأنا أقرأها ولكن بعد فترة قصيرة استطاعت هذه التفاصيل ذاتها أن تلقى أضواء كثيرة على زكريا أحمد كإنسان وكفنان ، فهو مثلا يهتم بتبييض شفته الجديدة ومراحل عملية التبييض ، وأجور العمال الذين اشتركوا في عملية التبييض ، ثم هو يهتم بتسجيل ما اشتراه من مواد غذائية كالكنافة وزيت الزيتون والقلفل والبهارات التي جاء بها من تحت الربع ، وقناطير الزبدة ، وبلايص الحسل الأسود ، وعدد وابور الغاز .. البرموس الأصلي ، التي استطاع بمجهود شاق العثور عليها من شارع الأزهر قرب العتبة الخضراء .

وكما يسجل زكريا المواد الغذائية التي يشتريها يسجل أيضا ما اشتراه من ملابس له ولأولاده ولأصدقائه ، ولعارفه كالمناديل ، والأقمصة والأحذية والشرابات والملابس الداخلية ، ولا يكتفى زكريا بتقيد أسماء المشتريات ، بل يكتب الى جانب كل صنف ثمنه ، ونوعه ، واسم المحل الذي اشتراه .. ومن كان معه وقت

عملية الشراء .. واذا تصادف ولم تعجب هذه الأصناف أحدا
فأعادها الى البائع وسجل الواقعة وما دار فيها .

واذا كانت يوميات زكريا قاموسا حيا للأحداث الكبرى في
ميلاد كذكرى سيد درويش ، وطلعت حرب ، وعبد الحمولي ،
فإنها في الوقت ذاته قاموس أكثر حياة للأحداث الخاصة بأسرته ،
أسرات أقاربه ، وأصدقائه ، ومعارفه ، تواريخ الميلاد وذكرى
الربيع ، والذكرى السنوية ومواعيد حفلات التأبين ، وحفلات
الختان . والزفاف ، وكتب الكتاب تحت أمكنة هامة من يوميات
زكريا أحد .. يضاف الى ذلك كله أسماء الذين رافقوه الى هذه
الحفلات ، وأسماء الذين اعتذروا عن الذهاب معه .. وأسماء
الذين وجدهم — من معارفه هناك — ثم أسماء الذين شاركوا
صاحب الحفلة — أو صاحبها — بقراءة آى الذكر الحكيم ،
أو السيرة النبوية الشريفة ، أو الذين اشتركوا بالخطب
أو الموسيقى ، أو الرقص ، أو الغناء أو الفكاهة .

وزكريا لا يغفل أن يذكر في يومياته لحظة الرأس والقصة
بالكوارع التي أكلها عند « طفل » أمام مسجد سيدنا الحسين ،
وبالبصرة المذينة التي ملا بها بطنه في ذهنية زكى عكاشة ، والجبن
والخيار والعيش القرمش الذي تعشى به في محل الخواجه كوستي
بالمرايى في شارع التجالة !!

ولا ينسى زكريا في يومياته ، أن يسجل سهراته ، وبروفات ،
عمله ، من أول أم كلثوم ، الى الشيخة عزيزة المصرية وفاطمة
البطية وكذلك لا ينسى تسجيل أسماء أولئك الذين سهروا معه ،

والذين اعتذروا عن السهر معه ، والذين طلبوه في البيت — وهو في اليب -- والذين اتصلوا به تليفونيا وهو خارج البيت ، نو أسماء الذين أرسل اليهم -- وأرسلوا اليه -- بطاقات التهنئة أو التبرية وأسماء الأفلام التي رآها وأبطال هذه الأفلام الى جانب أسماء الكتب التي استعارها ، أو التي اشتراها مع ثمن كل كتاب ، واسم المؤلف .. وكذلك أسماء الكتب التي أهداها الى أصدقائه ، ومعارقه أو التي أعارها لهم .. مع أسماء المؤلفين أيضا .

ولا يترك زكريا شاردة ولا واردة مما يتعلق به الا سجلها في مذكراته فن حلقه شعر الرأس بالموسى ومن تناونه شربة ملح انجليزي الى علاج السنن التي انكسرت وتأخير الأوتوييس ، وعدم استطاعته الذهاب الى معهد الموسيقى ، لالتقاء درسه الأسبوعي .. !!

ونجد في اليوميات اهتماما لا حد له بالضرائب . كل ما دفعه بالتفصيل وكل ما يجب أن يدفعه بالمليم ، الى جانب تواريع الخطابات التي أرسلها الى مصلحة الضرائب ، وأرقام المسجل منها . وأسماء الشخصيات الكبيرة التي وسطها لدى المسئولين في مصلحة الضرائب -- التي كان يخشاها كثيرا ، بل التي كان يعتبرها عدوه رقم ١ -- لعلها تنجح في تخفيف جزء من أعباء الضرائب ، التي كانت تثقل كاهله .. والتي دفعته الى أن يضع بندا في كل عقد من عقود تعامله مع الآخرين ، وينص هذا البند على أن يدفع الطرف الثاني — غير زكريا — الضرائب ، لمصلحة الضرائب .

ومسألة أخرى حرص زكريا كل الحرص على أن يعطيها

الأهمية التي لمصلحة الفرائب ، وأغنى مسألة النقود .. لقد كان زكريا حريصا — وحريصا جدا — على أن يسجل بدقة كل ما يدخل جيبه وكل ما يخرج من جيبه — وجيبه فقط — لا بالجنيحات ولا بالقروش ، وإنما إذا اقتضى الأمر ، بالملايم .. سجل ذات مرة أنه تلقى من الإذاعة شيكا يبلغ ١٦٨ جنيها و ٨٤٥ مليا ، واكتشف أن قيمة الشيك تنقص عشرة قروش ، واتصل بقلم العقود في الإذاعة ينبه إلى هذا الخطأ .. ثم تكرر الخطأ في شيك آخر يتعلق بتلحين أغنية أخرى ، فلم يكف بالكوى إلى قلم العقود ، وإنما اشتكى — شغورا وكتايا — إلى وكيل الإذاعة .. وتكون النتيجة كما جاء في اليوميات . انهم في الإذاعة لم يخصوا عشرة قروش فقط من الشيك الثالث وإنما خصوا خمسة وخمسين قرشا بالتام .



وأخيرا — وليس آخر — أجد ميزة في يوميات زكريا قل أن توجد في يوميات أخرى ، بل في يومياته هو بالذات قبل عام ١٩٦١ .. لقد مات زكريا في ١٤ فبراير سنة ١٩٦١ ولم تنته يومياته — كالعادة — بوفاته ، وإنما استمرت بعد هذه الوفاة بعشرة أشهر ونصف .. لقد تعود زكريا في بداية عام ١٩٦١ — وفي هذا العام فقط ، دون غيره من الأعوام السابقة أن يسجل الأجنحة بالأحداث التي وقعت من قبل ، فمثلا يكتب في المكان المخصص ليوم ٢٠ مايو من أجنحة عام ١٩٦١ :

« في مثل هذا اليوم قابلت ص . م أ ، وقد حرصت ألا أذكر

الاسم كما كتبه هو اذ كان رحمة الله عليه ، لا يكتب الا الاسماء
كاملة ، ولم يحدث أن أغفل كتابة اسم ما أو أشار الى حروف
الأولى ولو مرة واحدة — وحكى له موضوع القضية ، وقال
ساعمل ، ولم يعمل .. » .

وكتب في المكان المخصص ليوم ٢ يونيو من أجنحة عام ١٩٦١ :
« في مثل هذا اليوم من عام ١٩٥٩ مات حسين عسكر ، ونادية
فهي » ، وبمثل الطريقة كتب في مكان أول يوليو : « في مثل هذا
اليوم من عام ١٩٥٩ حضرت أم كلثوم للغزاة في يعقوب » .
ويكون آخر ما سجله ذكرها في يومياته ، بل في الأيام التي
لم يمهله القدر ليرى مرها وحلوها ، في المكان المخصص ليوم
٢١ ديسمبر من أجنحة عام ١٩٦١ :

« مثل هذا اليوم من عام ١٩٦٠ قامت مناقشة بيني وبين
عبد الحميد عبد الرحمن في جريدة المساء .. » .
وبهذه الكلمات القصيرة العريضة الواضحة أنهى ذكرها
بوميانه . بل أنهى ما كتبه عن أيام لم يقدر له أن يراها ..
واتسائل : أتراها كانت المصادفة البحتة التي جعلته يغتار
عام ١٩٦١ — آخر أعوامه — ليسجل فيه ما تم من أحداث في
الأعوام السابقة على نحو لم يفعل من قبل خلال ٤٥ عاما ، أم انه
كان يشعر بدلو أجله فأثر ألا يدع مكانا خاليا من أجنحة
عام ١٩٦١ دون أن يملأه بالكتابة .. أم انه التقدر أراد بهذه اللقطة
القصيرة أن يضحك منا ، ومن ذكرها أحمد في وقت واحد ..
لست أدري ؟

ولا أحد — حتى ولا زكريا نفسه — يدري !!
نرى من الغير تسجيل الأيام الأخيرة لزكريا أحمد كما جاءت
لي يومياته .

فقد كتب يقول ...

أول يناير : ذهبت لبروفة يوم القيامة بمسرح الجمهورية ،
سنة ١٩٦١ وكان معي احسان وأعطينا الصورة لنصار ، وكلمت
أم كلثوم وقالت لي : بلاش البروفة اليوم نجعلها
يوم الأحد القادم ١١ صباحا .. أجلت قضية
الآهات الى ١٥ يناير وقضية الاذاعة أجلت الى
١٩ فبراير ١٩٦١ .

٢ يناير : حضرت بروفة يوم القيامة أنا واحسان وروحنا ،
ومنا بدرى وقابلنى جعفر ، الذى رآنى عندما
كنت أشرب جزرا أنا واحسان فى أول أرض شريف
أمام عمر افندى وروحنا ، وقابلنى محمد على حماد
فى تياترو الجمهورية الذى حضر خصيصا لزيارتي
وذهبا للتليفزيون وتكلمنا فى سيدى منجد .

٣ يناير : زرت فاضل صباحا .. حضرت البروفة الجنرال
ليوم القيامة ، بمسرح الجمهورية وجميع عائلتي
وحضر الوزير والوكيل ولم أرهم لحضوري
بمدهم .. وروحت ماء الساعة ١١ .

٤ يناير : افتتح مسرح الجمهورية برواية يوم القيامة ،
قابلت وزير الارشاد والوكيل ، وبديع ، وعلام ،

ومحمد فتحى المستشار ومأمور عابدين وأبور
أحمد ، والدكتور على الراعى ، وخورشيد الذى
قال سنزورك باكر .. استلمت من جمعية المؤلفين
توزيع أكتوبر سنة ١٩٦٠ مبلغ ٢٥٠٦٠٥ جنيها
خصموا قرشين دفعة والباقي ٢٥٠٥٨٥ جيبها
استلمتهم ولم يخصوا ٥٪ .

٥ يناير : ٨ مساء موعده محمود حسن اسماعيل بمكتبه ،
أجلته الى السبت ، كلمنى حماد ووعدته أكله
يوم الأحد القادم مساء أو الاثنين لنجتمع أنا وهو
والقصاص ، لأحدثهم عن عصر النيل لاوى
وعبد الحى حلى .. عبده محمد صالح ، صليح لى
القلم .. زارنى خورشيد وعلى الراعى ومحمد
عشان وسهرتا نسع أم كننوم وقول الحار
دوايات .

٦ يناير : نوفى الى رحمة الله الأخ محموم بيرم التونسى .
وشيعناه الى ضريح السيدة زينب أنا وبديع وشهاب
وكل من يعرفه ، ووصلنى بديع للمنزل ، وجلسنا
بمنزلى ساعة نسمع حكايات من شهاب ، ومغنا
عمود طاهر الدين ومساء سهرت مع مصطفى محمد .

٧ يناير : قابلت محمود اسماعيل ٨ مساء بمكتبه : كلمنى
المسئولون فى التلفزيون لأتكلّم عن غبطة محمود
بيرم رحمه الله . وخرجت مع الدكنى لشترى غطاء

رأس ، سهرت مع محمود اساعيل وعبد القتاح
منى ، وعبد الله شمس الدين الشاعر ، عند صديق
لهم بمصر الجديدة اسمه حسنى .

٨ يناير : عملنا بروفة أم كلثوم صباحا .. اتفقنا على وجود
عبد صالح ليحفظ .. وقالت أم كلثوم : سأفعل
بمبدى صالح ليخبرك بموعد البروفة .

٩ يناير : توفى الى رحمة الله أنور منسى ، وعزينا فيه بصارة
الأوقاف وقابلت عيسى أحمد ، وأنا خارج من الماتم
وأعطاني كارت باسمه ووثيقت مدير العلاقات
العامة .

١١ يناير : كلمنى محمد صادق « البنك » وكفانى .. قرأنا
رواية سيدنى منجد أنا والأخ بديع للأستاذ محمد
على حماد كطلبة للتليفزيون .. زرت واحسان
خالد ، لأعزمه باكر فى عيد ميلادى .

١٢ يناير : أحيا أولادى عيد ميلادى وحضر الحفلة منصور
وعائلة محمد عثمان الذى أرسل لنا خروفا
وهيموا ، ورقصوا وغنوا وبعد خروجهم حضر
الفيشاوى وعائلته واتمشوا وروحوا ٢ صباحا
وكنت قد ذهبت فى هذا اليوم للتليفزيون
أنا ورشدى صالح ، وصالح جودت ، لتجبل
معلوماتنا عن يرم ولم نعمل شيئا .. لتأجيل الموعد ..
١٣ يناير : ذهبت الى محمد على حماد الساعة ١١ صباحا ،

لم يكن أحد بالمنزل ، زرت ناظم وتكلمنا في ايجاد
تليفون للمحل .

١٤ يناير : عيد ميلاد شمس الدين مأمور باب الشرية ، سهرت
في عيد الميلاد ، وكان عبده صالح معنا .. أهداني
سعد جليل حلقة مفاتيح ومفكرة كبيرة — كلمني
محمد فوزي لأقابله باكر ، لتكلم في تسجيل
« هو صحيح الهوى غلاب » لأم كلثوم ..

١٥ يناير : أجلت قضية الآهات ليوم ٥ فبراير .

١٦ يناير : قابلت محمد فوزي وقلت له فيما يتعلق بالمادة أنا
اخترتك حكما .. فقال : سأرد عليك .

١٨ يناير : تليفزيون مابرو لتسجيل موضوع يرم ، صالح
جودت وأنا انتظرنا ساعتين ونصف ، وقالوا لنا
نعتذر لأسباب فنية وعن قريب سندعوكم ..

١٩ يناير : جلست مع يحيى بمنزله .. وقت روجت بدرى ..
٢٠ يناير : تناولت العشاء كفتة .. روجت ٣ صباحا ، ١٦ قرش
ركوب .

٢١ يناير : ماهر في البوسفور ٨ مساء . حضر ناس كثيرين في
السهرة منهم عائشة حسن وقمنا ٢ صباحا ..

٢٢ يناير : جلست نهارا مع الدكنى .. نمت ١١ مساء .

٢٣ يناير : أنا واحسان ذهبنا للمؤسسة المسرح ، وقرأت عقد
يوم القيامة ، لم أرض عن بعض مواده ، أجلنا
توقيع العقد الى ما بعد مقابلة الدكتور الراعى .:

سهرت مع نازم في المحل واكلت كبده ، وروح
الواحدة صباحا .

٢٤ يناير : محمد سالم المخرج بالتليفزيون كلمنى وقال عاوزين
تتق . قابلت الدكتور على الراعى ، وصححنا
العقد الخاص يوم القيامة على ان تكون مدة العقد
خمس سنوات وبعد المدة تكون ملكى .

٢٥ يناير : آخر غدى مع ام كلثوم بـ ٣ قطع . بدأ العقد في
العام الماضى . ليلة عيد ميلاد «س» احيتها ونمت
اوصلنى خليل حمدى الحامى ..

٢٦ يناير : سهرت أنا ومحمد فرج عند الحاج مصطفى
النظاراتى بمنزله ، وكان الحاج فى ملوى
وقالوا لى : هو سيحضر الليلة ولم يحضر !!

٢٧ يناير : رأينا « بين القصرين » ماتينه والذى احضر البنوار
أنور أحمد .

٢٨ يناير : قابلت الدكنى واتعشيت عند نازم . تكلم شهاب
وقال انه سيحضر ولم يحضر ، وكان عيد ميلاد
لحان .

٢٩ يناير : الساعة ١٢ سجلت أنا وصالح جودت بتوديو
رقم ١ بـاسبيرو حلقة عن ذكرى يرم ، حضر محمد
سالم مخرج البيانو الأبيض .. قابلنا البحر أمام
مطعم صوفر وبعد الغذاء وصلونى للمنزل وشربنا

شاي وقهوة ، وتكلمنا في تحضير « يا حبيبي
يا رسول الله » للتلفزيون من أجل رمضان .

٣٠ يناير : جئت « بالكشاكيل » من عند عمه صالح ، من
مكتبته ووصلني للمنزل وشرب قهوة ومشى وأنا
أكلت عند ليلى البقالة وكان لها ٦٢ قرشا أعطيتها
لها وروحت ماء وكلمت شهاب بالأهرام واتفقنا
على أن نتقابل عند قطة يوم الأحد القادم .

٣١ يناير : لم أخرج من المنزل لكي أكتب چيو كندا ..

أول فبراير : ذهبنا الى منزل الأخ على الصياد لرؤية التلفزيون
.. شاهدنا الحلقة التي سجلتها أنا وصالح جودت
عن يرم .

٢ فبراير : استلمت شيكا رقم ١٨١٥٤٣ بمبلغ ١١٩٢ر٥٩٠
جنيه من بنك الجمهورية من مؤسسة فنون المسرح
والموسيقى أجر رواية يوم القيامة ، أحضر الشيك
من المؤسسة ولدى احسان ، سمعت أم كلثوم عند
تلطم .

٣ فبراير : سهرت عند محمد زايد وسمعت ابنته هدى ، بنت
فردوس البطية ، وكان ماسك لها العود عادل
مامون المطرب .

٤ فبراير : سجلت مناقشة عن الموسيقى في الاذاعة ، سجل
المناقشة صلاح مبروك .

٥ فبراير : قضية الآهات اليوم .. موعد بديع الساعة ٨ ماء ،

لأعطيه رواية سيدى منجد وقابله وشكنا وخطينا
في الرواية .

فبراير : توفي الى رحمة الله عبد العزيز قطرة اليوم .. كان
موعد تسجيل التلفزيون الساعة مساء مع الترقية
الماضية سجلت الورد جميل ويا صلاة الزين ..
كلنى محمد سالم المخرج لنزور باكر صالح
جودت لمرضه ، ولكى تكلم فى برنامج رمضان .

فبراير : أنا ومحمد سالم فى الساعة ١١ صباحا بمنزل صالح
جودت .. زوانه لمرضه وكان قد وقع من سلم
منزله نكلنا فى لحن « يا حبيبى يا رسول الله » ،
وامكان تقديمه فى رمضان .. كلمت سيد المياوى
وعزته فى المرحوم قطرة وتواعدنا على الذهاب الى
السينما ٨ مساء ، لم أخرج مساء من المنزل لكثرة
الزوابع .

فبراير : الآنة سماء العاصى ، دعنى أنا وبديع خيرى
ورشدى صالح ، وصالح جودت وصلاح جاهين ،
ويرم التونسى لتحدث عن يرم .. ووصلنى بديع
للنزل الساعة ٣ صباحا .. اشترت من مكتبة
الغانكى « تبر وتراب » لايلىا أبو ماضى
ب ٣٣ قرشا .

فبراير : طلبت من شهاب أن يذهب لحرم المرحوم عبد العزيز
قطرة .. ذهبت أنا وحرمتى للمزاء ..

١٠ فبراير : كلمت بديع خيرى .. كان محمد الصباحى يزور
صالح جودت ، وكان عيد ميلاد ابن الصباحى
الليلة ، حضرت ولم أغن وقت مع قدرى ، ورخا
ومرسى الشافعى .. سألت عن صالح جودت فقالوا
ان صحته تحسنت .

١١ فبراير : ذهبنا الى الروضة وسهرنا هناك للساعة الواحدة
والنصف وصلت الموسيقى الهاوى عبد القادر
الساكن بمنزل سيد رمضان بشارع فاروق .
التاكسى عمل بـ ٤٢ قرشا ، سمعت الفلاحة الللى قال
عليها الحاج مصطفى عند محمد نوح .. تركت كلام
رواية سيدى منجد بديع خيرى في شباك التذاكر
بالمشرح ..

١٢ فبراير : استلمت من الاذاعة مبلغ ٧١٣ قرشا بعد خصم
٣٧ قرشا للضرائب ، وذلك قيمة اشتراكى في ندوة
الفكر ، استلم المبلغ احسان ولدى بتوكيل منى ..
موجود عندهم ..

١٣ فبراير : ذهبت الى ملجأ العميان فى الزيتون لأسمع
صوتا جديدا قيل انه معجزة !! كانت الليلة ، ليلة
الأربعين للمرحوم بيرم التونسى رحمه الله وغفر له
ولنا جميعا 77

وهكذا تنتهى يوميات زكريا احمد .

صانع الروائع

من صاحب الفضل الأول في نجاح الأغنية : أهو المؤلف الذي صاغ كلماتها ؟ أم هو الملحن الذي وضع موسيقاها ؟ أم هو المطرب الذي غناها بصوته ؟ أسئلة دارت في ذهني وأنا أتأهب لكتابة هذا الفصل ، وآثرت أن أشرك في الرد عليها بعض من أعرف من النقاد ، والمؤرخين ، والملحنين ، والمطربين . ولم أجد إلا ردودا مختلفة جدا ، بعضهم يقول ان الفضل الأول في نجاح الأغنية يعود الى المؤلف خالق البناء الفني ، الذي زينه ، وزخرفه ، الملحن والمطرب ، وبعضهم أكد بأن الفضل انما يعود الى الملحن خالق الحياة في الأغنية التي لم تتكون الا من كلمات ميتة ، وآخرون أعطوا الفضل الأول للمطرب الذي أخرج العمل الفني ، في صورته الأخيرة التي أثارت إعجاب الجماهير .. وإلى جانب هذه الآراء المتضاربة وجد رأي آخر ساوى في الفضل وفي الأهمية بين المؤلف والملحن والمطرب وقال ان العمل الفني الناجح يشمل مثلنا متساوي الأضلاع لا قيمة لقطع واحد بدون الضلعين الآخرين . وأكد أصحاب هذا الرأي وهم الغالية بأن مؤلف الأغنية — بدون جهد الملحن والمطرب — لا يستطيع الا أن يخلق قصيدة جميلة ، كذلك التي يتلى بها دواوين الشعر والتي

لا يهتم بها الا خاصة الغاصة ، وكذلك للملحن — بدون
 جهد المؤلف والمطرب — لا يستطيع الا أن يخلق قطعة موسيقية
 مجردة لا يتغنى بها الناس ومكانها في المكتبات الموسيقية
 — وكذلك للمطرب — دون جهد الملحن والمؤلف — لا يستطيع
 الا أن يخلق نبرات جميلة ، لا تستطيع أن ترتقى الى أكثر من
 شفتى المطرب .. وقد سنل ذات مرة زكريا أحمد ، مثل هذا
 السؤال فقال : « ان الفضل يرجع الى الثلاثة معا — المؤلف ،
 الملحن ، المطرب — وان كانت مهمة الملحن أشق وأعنف وأكثر
 جهدا وعرقا .. » .

وبالرغم من أنني كما قلت أكثر من مرة في هذا الكتاب اعتبر
 قننى متوقفا على اتقن وأهله فاتنى أرى — لو جاز لئلى أن
 يكون له رأى — مثل ما ارتأه زكريا أحمد ، اذ أن رابطة العمل
 القننى ، ووحدته ، وتكامله — تقتضى أن يبدل كل طرف من
 الأطراف الثلاثة جهده وعبقريته فى انجاح العمل القننى .. واذا
 لم يتم أى طرف من الأطراف الثلاثة ، يواجه نجاه هذا العمل
 القننى ، كسب السقوط لهذا العمل مهما بذل الطرفان الآخران ؟
 وأعود بعد إثارة هذه المشكلة التى أرجو — مخلصا — أن
 تنال المزيد من عناية الكتاب والنقاد الى الحديث عن زكريا أحمد
 الموسيقار ، مؤكدا أننى لن أندخل فى التفاصيل فى أعماله الفنية .
 ولن أحاول تقسيمها من وجهة نظرى ، انا أحاول جاهدا أن أعطى
 صورة — ولو فى إطار ضيق — للأجواء وللظروف والإمكانات

اتى ساعدت على خلق هذه الروائع الفنية ، والتي جعلتها تنال
التقدير والاعجاب .. !!

وفي بداية هذا الفصل أحب أن أشير الى مناقشة جرت بيني
وبين زكريا أحمد ذات ليلة ، كنا قد خصصناها للكلام عن التلحين
والملحين . بدأ زكريا المناقشة بقوله : أنت ملحن ، قلت له : أرجوك
لا تنكث .. قال بل ومطرب أيضا .. وراح زكريا يذكرني بأيام
الطغولة ، عندما كنا نحاول أن نحفظ جدول الضرب بطريقة
النغمات الموسيقية ، فنقول $9 \times 9 = 81$. قولها في نغمات
موسيقية أو شبه موسيقية ، وكذلك ذكرني بما كنا نفعله ونحن
سفار عندما نحفظ دروس الجغرافيا أو التاريخ مثلا ، قسم
الدرس الى جبل صغيرة ، نردها بصوت عال في نغمات
موسيقية .. ثم راح يشرح لماذا يبعد الانسان في لعظات سروره
أو اتقاده بنفسه الى الغناء بالرغم من أن صوته قد يكون قبيحا
جدا .. ولماذا يبعد الانسان عندما يدخل الحمام ، الى الغناء
بصوت مرتفع .

وكان مما قاله زكريا أحمد : ان كل فرد في هذا العالم ، يجمع
بين صفتين أصليتين في نفسه ، أولاهما : التلحين ، وثانيهما :
الغناء . وهاتان الصفتان ، يسهل تمييزهما منذ الصغر ، والاستفادة
منهما عند الكبر . وقص على كيف استطاع الاستفادة من هاتين
الصفتين خاصة وانه نشأ في أسرة فنية ، فالأب ، يعشق الفن ويهوى
مجاله ويعرض على أن يغني بصوته ما يسمعه من أغاني
حديثة ، وما اخترته في ذهنه من أغاني القبيلة .. والأم تعرض

— في غياب زوجها — على أن تغنى بعض الأغاني التركية العزينة
 اتى كانت تسلل الى قلبه ، وتتركز فيه ولا تحاول أن تخرج منه .
 وبشكل زكريا القصة ، فيقول : لقد ولدت بأذنين موسيقتين
 قادرتين — حتى في فترة الطفولة — على التمييز بين الأصوات
 والألحان المختلفة ، كما انهما قادرتان على التقاط الأصوات
 والألحان بمجرد سماعها للمرة الأولى . ولقد كنت أهوى الموسيقى
 منذ الصغر . وكان الأطفال الصغار يهشون لمراى الشيكولاتة
 والحلوى ، أما أنا فكانت أهش لسامع الموسيقى في أى مكان
 ومن أى انسان !! وتطور هذا الحب والاعجاب الى أن أصبحت
 أحلامي الأولى ، أن أكون صيِّتا يقرأ القرآن والسيرة النبوية
 وبعض التواشيح في الأفراح والمآتم .. ثم تطورت هذه الأحلام
 وتغيرت ، وأصبح كل منى أن أغنى للناس وأن يكون لى تحت
 خاص . وأن أدمى لآحياء الحفلات الخاصة والعامة ، فلما تحقق لى
 هذا الحلم ، وكثر اقبال الناس على الحفلات التى أحييها ، فكرت
 في أن أعمل الى جانب الغناء بالتلحين ، ولم تكن صناعة التلحين
 وقتئذ بحاجة الى جهد ، ففى استطاعة أى فرد من الناس أن
 « يلطش » الحان أبة أغنية قديمة ويضعها لأغنية جديدة ، ويقدمها
 لا لمطرب واحد بل لثلاثة أو أربعة يرددونها في وقت واحد ،
 فلم تكن هناك قوانين تعترف بالملكية الأدبية أو الفنية !!

وطرق زكريا أحمد كل ميادين التلحين ، ففى بداية حياته
 الفنية نراه يكثر من تلحين التواشيح والاستغاثات الدينية وبعدها
 يبرع في تلحين الطقائيق الخفيفة ، ثم نراه فيما بعد يتخصص

أكثر من ثمانى سنوات فى تلحين الروايات المسرحية التى كانت
تقدمها فرق على الكسار والريحاني وفاطمة رشدى وعزيز عيد
ومنية المهدي ، فإذا ما ارتقت صناعة السينما فى مصر وأصبح
للأفلام العربية مكاتنها ، هرع المخرجون والمتجولون الى زكريا
أحمد يطالبونه بتلحين معظم أفلامهم ، ويصل زكريا فى هذا
الميدان الى القمة حتى ليضع بعض المخرجين والمتلحين اسم زكريا
أحمد فى اعلانات أفلامهم على أنه ملحن الأغاني — وهو ليس
كذلك — لكى يجذبوا الجمهور الى أفلامهم ، ثم يتخصص فى
تلحين الأغاني العاطفية ويقدم بالاشتراك مع يرم التونسى أجمل
الألحان لفنائة الشرق الأولى أم كلثوم ، وهنا يجلس زكريا على
قمة المجد الفنى ولا تستطيع أية قوة أن تزحزحه عن مكانه حتى
الموت نفسه لا يستطيع فتظل هذه الروائع باقية ما بقيت
الموسيقى العربية .

وفى السطور التالية أحاول أن أعطى صورة مجملية لمعظم
الأعمال الفنية التى لحنها زكريا أحمد والتى لا تزال كلها
— أو غالبيتها — تنطق الى اليوم بسوخته الموسيقى التى قل
أن وجود مثلها الزمان !!

لقد لحن زكريا أكثر من ثلاثين توشيحاً ألحها كبار المقربين ،
والمقربين على رأسهم الشيخ على محمود والشيخ محمد رفعت
ومن هذه التوشيح : « يا جريح الغرام » ، « يا هلال الساء » ،
« يا رشيقي القوام » ، « يا من يرجى » ، « ومولاي كبت رحمة
الناس عليك » ، « يا وردة وسط الرياض » ، « يا أبها الحادي

« استنى » ، « زارلى والليل حالك » ، « خليانى ولوعتى » ،
« يا نسيم الصبا » ، « يا بعيد الدار » ، « قد حركت أيدى
النسيم » ، « وعد العبيب » ، « وحياة أشواقى اليك » ،
« أخا الحب لب » ، « سلوا الندمان عن حبى » ، « يا نديسى
فه بآء .. » ، « حى أرض الحجاز » .. وغير ذلك من التواشيح
التي لا تزال حتى اليوم — وبعد أكثر من أربعين عاما — محتفظة
بحرها وجمالها .. وروعتها !!

ومن الروايات والأوبرات التي لحنها « دولة العظ »
(١٩٣٤) ، « القول » ، « ناظر الزراعة » ، « عثمان حيخش
دنيا » ، « والطنبورة » ، « والخانة الأمريكية » . « وابن
الراجا » (١٩٣٥) ، « ٢٨ يوم » ، « وأنوار » ، « وآخر
مودة » ، « نادى السر » ، « والكرهال » ، « وأبو زعيزع » ،
« والوارث » ، « وحكيم الزمان » ، وكلها لفرقة على الكسار ،
« وعلى بابا » ، « والأستاذ » لفرقة زكى عكاشة (١٩٣٦) ،
« والسنور » ، « والبرنس الصغير » ، « ملكة الجمال » ،
« وقفتك » ، « وابن فرعون » ، « زهرة » لعلى الكسار ،
« وأبو النوم » ، « والأميرة الهندية » لفرقة منيرة المهدي ،
« والحساب » لفرقة زكى عكاشة ثم « سالامبو » ، « وبدر
البدور » لفرقة عزيز عيد وقاطمة رشدي وكلها تمت في
سنة ١٩٣٧ ..

وفي عام ١٩٣٨ لحن زكريا « حلم ولا علم » ، « الساحر
أبر فصادة » ، « السكرتير » ، « غاية المنا » ، « خمسة مليون »

لفرقة عزيز عيد وفاطمة رشدي ، « وباسينة » لفرقة الريحاني ،
« والبلابل » ، « والكنوز » لفرقة علي الكسار ، وفي عام ١٩٢٩
لحن للكسار أيضا « العروسة » ، « والعيلة » ، « ومين فيهم »
« ومافيش منها » ، « وابن الأومباني » ، « وطاحونة الهوا » ،
« وملكة الغابة » ، بالإضافة الى رواياته قاضي الغرام التي لحنها
لفرقة صالح عبد الحى .

وفي بداية عام ١٩٣٠ لحن لفرقة صالح عبد الحى أيضا رواية
« عيد البشير » كما لحن « الهاوى » لفرقة يوسف وهبى ، وفي
عام ١٩٣٨ لحن « جيوكندا » ، « والأميرة روشنارا » لفرقة
منيرة المهديّة ، ولحن في نفس العام « أنا وانت » لفرقة الريحاني
كما لحن لهذه الفرقة أيضا « الدنيا جرى فيها ايه » عام ١٩٣٩ ..
وفي عام ١٩٤٠ لحن للفرقة القومية « يوم القيامة » ولحن في العام
التالى « سيدى منجد » للمعهد العالى للموسيقى . وكان آخر
ما لحن من روايات : « عزيزة وبونس » الفرقة القومية سنة ١٩٤٥ ،
وهذه الروايات كلها من تأليف بديع خيمى ، فيما عدا روايتى
« دولة العظ » ، « وناظر الزرلعة » ، فهما من تأليف أمين
صطفى ، « والطنبورة » ، « والنخالة الأمريكية » ، « و٢٨ يوم » ،
« ونادى السر » ، « والكرفال » ، « والسفور » ، « والبرلس
الصغير » ، « وأبو النوم » ، « والأميرة الهندية » ، « وملكة
الجمال » ، « وقشتك » ، « وزهرة الريح » ، « والساحر
أبو فصادة » ، « والكرنير والبلابل والحروسة والعيلة ومين فيهم
وابن الأومباني » ، وطاحونة الهوا ، وكلها لحامد السيد ، ورواية

حكيم الزمان تأليف جبرائيل أجنا ، وأحمد زكى ، ورواية
ابن فرعون لأحمد زكى ، وسالامبو لحبيب جاماتى ، وخمسة
مليون لتوفيق عبد الله ، والهاوى للشيخ عبد الله عفيفى ، وعزيرة
ويونس لبيهم التونسى .

وعدد ألحان هذه الروايات والأوبرات ٥٨٠ لحنا ، وتراوح
ألحان الرواية بين ثمانية ألحان ، واثنى عشر لحنا ما عدا دولة
الحظ ففيها سبعة ألحان وكلها تصور بنجاح قطاعا هاما من
قطاعات حياتنا فى الفترة ما بين سنة ١٩٢٣ وسنة ١٩٤٥ ، وهى
الفترة التى أخرجت فيها هذه الروايات .

وقد بلغ ذكرنا القمة فى تلحين الطقاطيق والأدوار التى بلغ
عدد ما سجل منها على اسطوانات وأشرطة ٣٣٥ قطعة ، منها
٢٨ قطعة لحت فى عام ١٩٢٣ ، ٤٠ قطعة فى عام ١٩٢٥ ،
و ٣٣ قطعة سنة ١٩٢٧ ، ١٨ قطعة عام ١٩٢٨ ، الخ .. الخ ..
وأول هذه الأدوار — بل وأشهرها — « ماتخافش على » ،
« ارخى الستارة » — وهى التى فرضت بسببها الرقابة على
الأغاني ، « وحزر قزر » ، « وكده برضه يغخلص » ، « وبلاش
مناهدة وطاوعينى » ، « ومنين زعلانة وتحاميله » ، وكلها من
كلمات يونس القاضى وغناء عبد اللطيف البنا الذى غنى فى
عام ١٩٢٣ ليحيى محمد : مايش أول ولا تانى ، أمان أمان ليه
كده ، يا ألف ماشافه علينا ، كما غنى زكى مراد — فى نفس العام
أيضا لنفس المؤلف : « شفاعة شه » ، « نار الوطنية فى القلب » ،
« الأيضانى والأسراني » كما غنى لحسن صبحى أيضا « يا بت

يا بتاعة الياسمين ، وفي عام ١٩٢٤ تفرغ زكريا للعمل في الفرق المسرحية ثم أخذته نوبة من النشاط في تلحين الأدوار والقطايق في عام ١٩٢٥ ، فلحن أغنيات عديدة أحرزت شهرة كبيرة منها « أبوها راضى » وقد غناها صالح عبد الحى ، وهى من كلمات يحيى محمد : « واوعى تكلمنى بابا جاى ورايا » ، لعبد الحميد كامل ، وغناه أمين حسين ، وعزيزة المصرية ومنها أيضا « تعالى يا شاطر لروح القناطر » لبديع خيرى وغناه نعيمة المصرية .

ولحن زكريا عام ١٩٢٦ لحامد مرسى ، كثيرا من الأغنيات منها « من حقه يشفع » ، « وتسرح وتروح » ، « وظالمنى والله » ، وكل هذه الأغاني وغيرها كثير وكثير من تأليف بديع خيرى .. أما في عام ١٩٢٧ فقد لحن زكريا كثيرا من الأغاني ، بالإضافة الى الروايات المديدة التى لحنها ، ومن هذه الأغاني ما غناه صالح عبد الحى ، ونعيمة المصرية ، وفرجس شوقى وزكى مراد ، وعديلة المنصورية وسامحة بغدادى ومنها ما غناه هو بنفسه مثل أغنية « أدى وقت البريطة » وقد أضاف زكريا الى هذه الأسماء منيرة المهديّة حيث لحن لها عام ١٩٢٨ . « الحلوة شافت صورتها » ، « أربع خطاب واقفين ع الباب » ، وغنت رتيبة أحمد « يانا يانت » ، « والله عليك » ، وكل هذه الأغاني من كلمات بديع خيرى ..

ومع مطلع عام ١٩٣١ ازداد عدد الأغاني التى لحنها لأم كلثوم ، فقد غنت له في هذا العام — « جمالك ربنا يزيد » ، « وليه عزز دسمى تذله » ، لحسين حبشى ، وقالوا لى « آمن قلبك »

لأحمد رامى ، « والليل يطول ويكيدنى » لحسين المنسترلى ،
 وفى عام ١٩٣٣ لحن زكريا لأم كلثوم من كلمات أحمد رامى
 « اللى حبك يا هناء » ، « ومالك يا قلبى حزين » ، كما لحن
 لها أيضا من كلمات حسن صبحى : « العزول فايق ورايق » ،
 « اكون سعيد » أما فى عام ١٩٣٦ فقد لحن لأم كلثوم من كلمات
 بديع خيرى « هو ده يخلص من الله » ، ومن كلمات يحيى محمد :
 « يا قلبى كان مالك » ، « وماكانش غلى » ، « امتى الهوى
 يجى سوا » ، وغنت أم كلثوم من كلمات أحمد رامى « يالى
 تشكى من الهوى » ، « وابتسام الزهر » لمر عارف القاضى ،
 « ومن اللى قال » لعبد الرحمن فياض ..

وقد غنت أم كلثوم من تلحين زكريا أحمد : آه يا سلام لحسن
 صبحى (١٩٣٣) و « عادت لىالى الهنا » (١٩٣٨) ، و « ياما
 أمر التفراق » (١٩٤٣) لأحمد رامى ..

وغنت أيضا أم كلثوم لبيرم ، وزكريا « كل الأحبة اتلين
 اتنين » (١٩٤٢) ، « وآه من لقاءك فى أول يوم » ، « وحبيى
 يسعد أوقاته » ، و « اكبلى من غير تأخير » ، و « ايه اسمى الحب
 ما اعرفش » ، « والبدر أهو نور » (١٩٤٣) ، « وانا ليه اتجاسر
 واعاتبك » ، « وانا فى انتظارك » ، « والأوله فى الغرام »
 (١٩٤٤) ، « وفى أوان الورد ابتدا حبى » (١٩٤٥) واهل الهوى
 « ويا قلبى ياما تيل بنظرة » ، « والأمل » ، « وحبيب القلب
 واقانى » (١٩٤٧) ، « والقلب يمشق كل جميل » (١٩٥٠) .
 ونستطيع أن نقول دون مبالغة أن زكريا أحمد قد لحن

لأكثر من ٩٠٪ من المطربين والمطربات على اختلاف درجات
 نجاحهم وشهرتهم فهو يلحن نشادة — مثلا — « اللى انت
 لا جال » من كلمات بديع خيرى و « من كتر نسياتك » لحسين
 الفناسترلى (١٩٣٢) « والحبيب بعد الرضا » من كلمات أحمد
 درامى (١٩٣٨) وهو يلحن لأسمهان « عاهدنى يا قلبى » كلمات
 محمود اسماعيل (١٩٣١) « وعذابى فى هواك » لأحمد المرشدى
 (١٩٣٨) ، وهو يلحن لفتحة أحمد « بعد ما فرحت عدائى »
 « بشارك » لأحمد الألقى عطية (١٩٣٢) « وكل انسان » لأحمد
 المرشدى (١٩٣٦) ، ويلحن أيضا لبديعة مصابنى من كلمات
 بديع خيرى « البدر طلع غنواله » (١٩٣٥) ، كما يلحن لمحمود
 شكوكو « بفلوسى آه » ، كلمات بيرم (١٩٤٨) « وصيد
 العصارى » لمحمود إبراهيم ، و « بنت البلد » ، لبيرم التونسي
 (١٩٤٩) وهو يلحن لمزور عثمان : « الفؤاد ليله نهاره » (١٩٣٧)
 « واحنا مش كنا اتفقنا » (١٩٣٨) « وصفالك زمانك » (١٩٤٣)
 وكلها من كلمات أحمد عطية و . و .

فإذا استقلنا بعد ذلك العرض السرح ، للأدوار والقطايق
 التى لعنها زكريا والتى اعتمدنا فى توارىخها وأسماء مؤلفيها
 وأسماء الذين قاموا بأدائها ، على مذكرة كتبها زكريا بخطه ، الى
 أغاني الأفلام التى قام زكريا بتلحينها ، تمررنا الدهشة اذ نجد
 أن عدد هذه الأفلام قد بلغ سبعة وثلاثين فيلما كان أولها : أنشودة
 الفؤاد (١٩٣٢) النائبان (١٩٣٤) وبسلامته عاوز يتجوز
 (١٩٣٥) ، ومبروك (١٩٣٧) وليلى بنت الرف ، وعاصفة على

الريف (١٩٤٠) والعريس الخامس والشريد (١٩٤١) ونداء القلب (١٩٤٣) و « البؤساء » و « أرض النيل » و « القلب له ولحد » ، ليلة العنق (١٩٤٤) و « الأنسة بوسة » و « أميرة الأحلام » و « ليلي بنت الفقراء » و « كازينو اللطافة » و « نور من السماء » (١٩٤٥) وانا ستوتة (١٩٤٧) ونرجس (١٩٤٨) وحييتي سوسو (١٩٥٠) والبنات شربات ، وآدم وحواه (١٩٥١) ومسمار جعا ، وانا وحدي ، وحكم قراقوش (١٩٥٢) .
هذا بالإضافة الى أفلام أم كلثوم ومنها : وداد (١٩٣٦) ، ودنانير (١٩٤٠) وعابدة (١٩٤٣) وسلامة (١٩٤٤) وفانسة (١٩٤٧) .

وقد بلغ مجموع أغاني هذه الأفلام ٩١ أغنية أحرزت غالبيتها — ان لم تكن كلها — نجاحا باهرا .
فاذا أضفنا الى ذلك كله ٤٣ أغنية تم تلحينها للاذاعة ، آما بأن الثروة الموسيقية الوفيرة التي خلفها ذكرها أحمد ، تعتبر من أئمن ، وأغزر ما خلف الموسيقيون في العالم كله .. ومن أغاني الأذلة : « أنا كل ما اشوف الورد » تأليف بيرم وغناء شافية أحمد ، « ويا حلاوة الدنيا » ، كلمات بيرم وغناء فتحية أحمد .
ثم « مرجا بالعيد » لمحمد الأسمر ، غناء فريدة كامل و « يا عبد الكل » غناء فادية فهمي وكلمات بيرم .. ونشيد « عرب الشرق سلاما » لصالح جودت ، وقد أدته المجموعة ، وكذلك نشيد « أنا العربي » ونشيد « الوحدة » لمحمد سعيد المزيان ..
و « يا رب يا رحمن » كلمات بيرم وغناء حورية حسن « وأنا كل

ما اتوب ، ليرم « وفادانى الليل » ، لحمد أحمد ، وقد غنتها
 نجاة الصغيرة وكذلك « فى أوان الورد » غناء أم كلثوم وكلكت
 بيرم .. ثم مسك الختام — ختام حياة زكريا أحمد ، ويرم « هو
 صحيح الهوى غلاب !! » .

واسأذن القارىء فى أن أهمل بعض نصوص الأعمال الفنية
 التى أخرجها زكريا أحمد ، لأنها فى رأى — وقد أكون مخطئا
 فى الرأى — تمثل جزءا هاما من تاريخنا الاجتماعى ، ونمطى
 صورة واضحة لأغائنا طوال الأربعين عاما الماضية ، فمن التواشيع
 التى لعنها زكريا أحمد :

قد حركت ايدى النسيم تلك الفصول المس
 فافضى وبادر يا نديم اى رياض السندس
 ومن المونولوجات والترالوجات التى لعنها زكريا أحمد ،
 وكتب كلماتها بديع خيرى :

أوكسو كير يا جورجى بوس مجنوناكس يا ليكيرييا
 اخنا للمتو القلوس من زنونا من ساريا
 واللاتينا بلاد جموس مخه عيان بالملارييا
 بغروا العيش والقموس فى الشمانه بتاع سقاريا

رومى فى المصرو غريب اقتو كاي جرسون كافيه
 اونه سوب ميه زيب بكره بوكر فريس
 اذا كان ما فيش خيب كلموا بقتيش يا ييه
 استطاع منى يجيب شاطر اتمى جنييه

خباصينو مفلسين كان زمان برهن يسوت
 مش يغلى عزبة طحين يسح خله صخون طوت
 اليومين دى مصرين فى الأونطة مش يغوت
 وطن خبرو وطنين من كده اخنا نموت
 وهذا المونولوج يصور احتلال الأجانب للاقتصاد المصرى
 وسيطرته على كافة انواحى الاقتصادية ، وبداية النهضة
 الاقتصادية الوطنية وكشف المصريين للمؤامرات الاستعمارية
 وتفضيلهم المصرى على الأجنبى !



وفى رواية « ياسينة » للريحانى نجد هذه الصورة الشعبية
 الجميلة :

شيخ : يا هاذيتى قربى جهتى بالفاكهة واعطى عطفا
 فكهاينة : يا لدامة يامه ع الشيخ حمه يبله بغمة تلهفه لها
 هو : من يدك البضة الفضة البضة

ينمض المشى عضا

هى : وانا وشك جاب لى الخضة

والى جميزك يا لهفى

هو : لباطة موزك يا شغفى

بيتك يستوى فى الرضة

هى : بالنبي انك كدا بالشرف

غلس قوى قوى جتك القرف

هو : يوسفك افندى أنا بدعى عندى سى يوسف يكا

هي : هنا دكان فاكمة مش شيء من دكها اتفه عليك
 هو : يا ليتني سبتا او قفلة
 عندك يا ابنتها الخفسة
 هي : يا لوح انجر فارقي
 احسن جسوزي يطلقني
 هو : زوجك هذا دقيه
 بالنسب واديسه
 ومن الغد لا تبقى
 وانا استبدل به
 زوجها : طب خد يا حاتوتي يا ابن القبحا
 هو : ويلاه نافوخي قد انبلحا آه .. آه ..
 زوجها : يا اخش انا اوزن لك بلحا
 اخرج الايك هنا منبلحا
 هي : طب وانا ايه ذنبي جتك كايه
 زوجها : هس اخرسي او عي نردى
 لا امك لك شمروخ وادي
 هي : تستجري تمد دراعك
 وانا وانبي اعض صباعك
 زوجها : اسفخص عليكي وعلى امك
 هو : دي بعرك او عي تبهدلها
 زوجها : ناس هم ف هم الله يمك
 على ففتها ف ملنت غيلها

وبالرغم من أن هذه المونولوجات والترالوجات — التي يلقبها ثلاثة أشخاص — قد مضت فترة طويلة على تأليفها وتلحينها إلا أنها ما تزال حتى هذه اللحظة محتفظة بجمالها وخفة دمها ، وما يزال الجمهور الذي سمعها منذ فترة غير قصيرة يجد السعادة والبهجة في أن يسمها اليوم مرات ومرات ..

ولنتقل بعد ذلك الى رواية « سلامته عاوز يتجوز » لنجيب الريحاني حيث هدف مبهرتين أمام لحن الماجين ، وفي هذا اللحن تبلغ السخرية بكش كش بك الذروة وهو يندد بما لاقاه بسبب نقافة ذمته ا

احنا الماجين قفشنا هنا وتمك منين ؟
ماخاشي خارجين ولا بعد سنة ولا بعد اتنين .
كش كش : حذفتي نقافة الذمة ورمتي مع المطايس .
جى اعمل صاحب همة قالوا لي شرف يا عرس .
الماجين : باب الكراكون اللي يخشه يتمشي لما يجيوا دافه
ويكلها علق اثني على وشه واثني على فاصية أم دماغه .
وفي هذه الرواية أيضا نستمع الى موال « على الساقية »
نذى كبه كما كب كل أزجال الرواية بديع خيرى :

يا للى انت بتسبك فجلة وبتاوه
ولا هم شايل ولا طمان في بقلواه
م العصر للعصر هادى السر متاوى
جار البهايم وحوالك القراخ بايضين

مرئان ولكن مع السلطان بتساوى

وان جئت بتثبكت فجلة وبتاوه

وقرب من هذا الموال ، ما كبه بديع خيرى فى فيلم « عاصفة

على الريف » وصور الحياة فى القرية : وقد قام بدور الفلاح
صالح عبد الحى :

الجميع : اصحى يا نايم واسمى لزلذك

وادعو لربك بظوص لية

قول يا مصبحها على عبادك

تجعلها فجرية هنية

هو : مغاليتك تتاديك واذان الديك

يحى النور وقت شروجه

والطير يلاغيك وحمام بناجيك

ويسبح لك جوه يروجه

هو : القلاح ينقمه ايه مرزوق وبهيمه بترعى

والبط داير حواليه عايم على وش التربة

وخديجة وقاطمة وشلية بلايص ولا زلح الشربات

والساقية يدورها عطية وحسين ع النورج والمحرات

وبسات الكفر مالهم يا ولد

بنات الكفر يا حلاوتهم فى جناين المشى

يعبوا بايسين ادهم

على نعمتهم والحامد يزيده ربه

وقناعة النفس فضيلة

واخنا النيل مالى غنيا

بركة مبعية جيلة

عطابا تحفظها علينا

وفى فيلم النريد ، كب يرم التونسى موالا آخرا ، سجله

زكريا أحمد بصوته وظهر فى افيلم وهو يغنيه :

يصب على الى ماله ضاع ومقامه

يات ذليل يفكر فى العز وأيامه

يشكى ولا من سمع شكواه وآلامه

الا السميع اعليم الواحد القيوم

من يقصده يعده فى الشدة قدامه

وفى رواية « مبروك » نجد صورة شعبية رائعة حيث نتقد

سيدة محبة بنات جنسها اللواتى خرجن الى الشارع سافرات :

تعالى اتخرجى ع الدنيا

وبقت لها تقاليع ثانية

فى ذراع سى الاقندى بتاعها

من غير شرابات وبلاوى

ولا ساءلة فى تقدير يتها

تلاغيه لغوة فرنساوى

زمن الحشمة والقيمة

من عز وهشة عظيمة

ولعل من أجل ما كب يرم التونسى ، ولعن زكريا أحمد

يا دى المدم يا ام امام

قال ايه ماشية لقدام

الت بتمشى ذراعها

والناس باصة لكوارعها

من فاضية الا لزهتها

واللى يحب بعهدتها

فين يا اختى زماننا اياه

مين شاف الى شفاه

مولد السيدة زينب ، من فيلم ليلي بنت الفقراء ، حيث يشد
جميع في البداية « الله أحد الله أحد » ، ثم تظهر على الشاشة
صراع بائني الحلوى ، والكحل وغيرهم وغيرهم ويجري هذا
حوار ، يبدأه بائع الحلوى :

قرب عليه قرب عليه

ع الحمصية والسمة

قرب عليه وشوف الرايس

وحط مهرك شلن وآيس

اجوزك واحدة م الناييس

تنفع عروسة ومهلية

قرب عليه قرب عليه

فضونا من الدربةكة ديا

أهو ده اللي يفوق وقتيا

بائع النشوق

نمال شم وفوق ده نشوق مدقوق

في ملق دسوق والمستودع في جامع برقوق

بائع حلاوة العصا : نمائل فنية يا ولاد من صنع لديه يا ولاد

توت عنخ آمون يا ولاد

وحصان وكانون يا ولاد

وبعد هذا الاستعراض الرائع نجد ميتا يقول :

يا نيا سميت بك الطياه وأضامت بنورك الظلماء

كيف ترقى رقيق الأنبياء ، يا سماء ما طاوتها سماء

ثم يقوم الجمهور بذكر الله : الله أحد ، الله أحد ، الله أحد :

يا ست نظيرة نظيرة يا ست
يا ست زينب نظيرة أبلغ بها آمالي
أنا هنا في الحضرة حول المقام العالي
مدد مدد يا سيدة

نورك ده هل علينا فوق الفرح والزينة
يا بنت بنت نينا واخت العسين العالي
مدد مدد يا سيدة

وكما بلغ يرم في استعراض مولد السيدة زينب الذروة يبلغ
في فيلم « سار جها » ما هو أعلى من الذروة ، يشد الجمهور
مطالباً بهدم الظلم ، قائلاً :

هد هد هد هد هد هد

آدى الحق وآدى الجدد ، وعهد الظلم خلاص العهد ..
ويطل البطل حماد من سجنه ليقول :

فاجر ظالم ، عامل حاكم يضرب خد تدور خد
لا هو من دنبا ولا ملتنا حقه قوام بالسيف ينصد
وتصرخ الجماهير :

سجن المجرم هد سجن الظالم هد
أدى الحق .. وادى الجدد

وقد بلغ في تصوير ظلم الحاكم ، واستبداده بالشعب الى
درجة لم يدانه فيها كثير من الأدباء في العالم كله ، لأن الصورة
كانت تنطبق على نظام الحكم قبل ثورتنا في ٢٣ يوليو تمام
الانطباق .

وقد كتبها بيرم ، ولعنها زكريا قبل ثورة ٢٣ يوليو بسة
لشهر ، فكانت بحق غصبة من غضبات شعب آمن بحقه في الحياة
وحقه في الحرية وحقه في الكرامة ، وحقه في أن يطرد كل دخيل ،
وأن يطرد كل ظالم ، وأن يكتب لنفسه صفحة جديدة من صفحات
الغفران

ومن الصور الجميلة التي كتبها بيرم ، ولعنها زكريا ، قطعة
بنت البلد التي غناها محمود شكوكو :

بنت البلد يا ولد على حلاوتها بنت البلد يا ولد على خفافتها
بنت البلد يا ولد على ككايتها

ولا يمكننا ونحن نتحدث عن الصور الشعبية الجميلة أن
نسى لحن المراكبي الذي كبه أحد شومان في فيلم « أرض
النيل » ومطلع هذا اللحن :

هو : على رزق عيالي شقيان

ولا أحد بعالي دريان

الدينا بتجري ووخداني

من قبلي لبحري وسابقاني

هـيلا .. هـيلا

هو : ياللي انت بتشكى وبتقاسى

راح يجي يوم يرناح قلبك

ده زمانك مهما كان آسى

اتوكل داينا على ربك

هـيلا .. هـيلا

وكثيرا ما كان زكريا يعمد الى عيون الشمر القديم والحديث
 فيختار بعض قصائده ليلعنها ، ويضفي عليها من فنه وعبقريته ،
 وقد لحن زكريا أحمد للبهاء زهير ، ولصفي الدين الحلي ،
 ولأبي العلاء المبري ، ولأحمد شوقي ، ومما لعنه للبهاء زهير
 وكثيرا ما كان يعلو له أن يغنيه :

مولاي كن لي وحدي فاني لك وحدك
 وكن بقلبك عندي فان قلبي عندهك
 لي فيك قصد جميل لا خيب الله قصدك
 حاشاك تؤثر بعدي ولست أؤثر بعديك
 أن تنسى عهدي فاني والله لم أنس عهدك
 أضعت ود محب ما زال يحفظ ودك
 مالي عليك اعتراض أدب كما شئت عبدك
 ومن الأناشيد الوطنية التي لعنها زكريا وغناها كارم محمود ،
 « يا ريتني من بور سعيد » ، وهي من كلمات اسماعيل الحبروك :
 ان عشت اسمي بطل وان مت اسمي شهيد
 الكل يتباهى بي والناس تتناور علي
 وتقول بطل بور سعيد
 وقف بصدري يدافع ويصد نار المدافع
 بأيدي يضرب بأيدي

ومن الأناشيد التي لعنها زكريا أحمد ، وألفها سعيد انريان :
 أنا العربي من أهلي رسول الله
 أنا العربي من جيران بيت الله

أنا العربي من لفتى كتاب الله
بحبال الله استطلى تعالى الله
أنا العربي

ومن هذه الأناشيد أيضا « يا ويل عدو الدار » كلمات عباس
شافعي وغناه محمد قنديل (١٩٥٦) :

يا ويل عدو الدار من ثورة الأحرار
دول بالعديد والنار وغزوة الجيـار
حاربوا الاستثمار

أنا عرب شجبان ما حد فينا جيان
بسلحتنا والابـان نحمي الحمى والدار
يا ويل عدو الدار

ومن هذه الأناشيد أيضا « حماة الحمى » لمصطفى صادق
الرافعي ، الذي سجلته الاذاعة عام ١٩٥٦ :

حماة الحمى يا حماة الحمى هلموا هلموا لمجد الزمن
فقد صرخت في المروق الدما نموت نموت ويحيا الوطن
وقد كب يريم التونسي ، « خلوا السيف يقول » ، وغناه
وكريا أحمد بصوته حيث. أذيع من القدس . وهذا هو نص
النشيد :

العرب : خلوا السيف يقول خلوا السيف يقول
وكريا : لا العيب يس العرض القتل يطل ويصبح فرض
يخلي الدم يروي الأرض ويجري عرض وطول
خلوا السيف يقول

ونتقل الى قطة أخيرة في هذا المضمار ، وهي الأغاني التي
 لحنها زكريا أحمد لأم كلثوم ، لقد بلغ زكريا في تلحين أغاني
 أم كلثوم ذروة المجد الفني ، وحقق للموسيقى العربية انتصارات
 باهرة ، رفعتها الى المستوى العالمي ، وكفى زكريا فخرا انه انتقل
 بنفسه ، وبأم كلثوم من : « أرخى الستارة التي في ريعنا »
 « وابوها راضى » « وبلاش المناهدة » وطاوعني الى أنا في انتظارك
 والأمل والآهات ، واهل الهوى ، واية أسى الحب ما عرفش ؟ ..
 ان أول أغنية لحنها زكريا أحمد لأم كلثوم وكانت إعجابا
 شعبيا لا مثيل له هي :

التي جبك يا هناء في نيمه أو شقاءه
 نور عيونك في فؤاده يضيء في ليلة سهاده
 وان دعيتي له وداده في بماده يا هناء
 وحلق زكريا ، وراسي ، ويريم مع أم كلثوم في أفلامها ، التي
 كانت سفيرة للضاد في شتى أنحاء العالم .

من روائع ألحان فيلم دنائير والكلمات لرامي :

بكره السفر بكره بكره السفر بكره
 بكره السفر ووبرق بالناس وافرح بقربك وانهنسا
 وان كنا نهجر أوطانتنا الحب بيني لنا أوطان
 ومن ألحان زكريا في فيلم « سلامة » وقد بلغ فيها القمة ،
 وتفوق فيها على نفسه وهي من كلمات يريم :

عن المنياق سالوني وانا في العشق لا افهم
 سمعناهم يقولوا المنق حلو وآخره علقم

د في الليل وويل على ويل وشيء منه المذاب ارحم
ن أعلن هـواه يتعب ومن خبي هـواه يعدم
لوالى مين من العاشقين وهب قلبه الى حبه ولم يندم
المشاق لا نال وخلينا بعيـد أـلم
ومن روائحه التى لعنها لأم كلثوم وغنتها في حفلاتها الشهيرة
ذاعة :

في انتظارك خلعت ناري في ضلوعي وحطيت
ي على خدي وعديت بالثانية غيابك ولا جيت
يا ربتي عمري ما جيت



ومنها أيضا :

الأوله في الغرام والحب شبكونى
والثانية بالامثال والصبر أمرونى
والثالثة من غير ميـعاد راحوا وفاتونى
الأوله في الغرام والحب شبكونى بنظرة عين
والثانية بالامثال والصبر أمرونى واجيه منى
والثالثة من غير ميـعاد راحوا وفاتونى قولوا لى فين
الأوله في الغرام والحب شبكونى بنظرة عين قادت لهيى
والثانية بالامثال والصبر أمرونى واجيه منى احـتار طـبيى
والثالثة من غير ميـعاد راحوا وفاتونى قولوا لى فين سافر حبيى



لقد سجل زكريا معظم الأغاني بصوته ، وكان يحلو له

أن يجدد في نفسنا ، بين حين وآخر ، وبالرغم من أن صوت
زكريا كان صوتا أجش الا أنك كنت تسمع منه أجمل الألحان
وأحلى الأغاني .. انى أذكر ليلة ، قضيناها في يته لمدة أربع
ساعات .. كان يغنى وحده على العود .. « الأمل » .. ولم نسمع
الا ونور الصباح يدخل علينا ، لشاركنا بهجتنا بزكريا ونرى
زكريا .. وعبقريه زكريا !

والآن تسأل ما رأى الناس في هذه الأعمال الفنية التى
قدمها زكريا أحمد ؟ .. فقط اختار لماذا من هذه الآراء !
في ١١ أكتوبر سنة ١٩٢٦ نشرت مجلة المسرح مقالا في
صفحتين عن رواية أبو زعيزع التى قدمتها فرقة على الكسار
ولحنها زكريا أحمد ، وكان كاتب المقال صاحبها محمد عبد المجيد
حلى . وجاء في هذا المقال عن الملحن « وملحن الرواية هو
صديقنا زكريا افندى أحمد وليعذرني الصديق اذا لم أستطع
أن أتحدث عنه طويلا .. كانت بيننا صداقة — لا أزال أنا اعتقد
بوجودها — وكانت هذه الصداقة تحملنى على محاباته الى حد
محدود ، في كثير من المواقف ولو اننى لم أكن أسايره الى النهاية
والآن بيننا عداة — كما يعتقد الشيخ زكريا — وأنا أخشى
الاطالة حتى لا تقلت منى كلمة يؤيد بها نهته اياى وادعائه على
ومن جهة أخرى فليس من العدل أن يتحدث مثلى عن الألحان
ولكن أحد الموسيقيين الملحنين حضر الرواية فعول انى رأيه في
الحانها .. وبغيل الى ان الشيخ زكريا يسير الى الشيخوخة بسرعة
متناهية ، فقد بدأ الضعف الشديد على الحانها ، فانت تسمع

الحالة من أولها الى آخرها فلا يجيبك منها الا احنان ، الفصل
 فيها الى قوة حنجره المنشد .. أما اللحن الأول فهو ختام الفصل
 الأول حيث وجد الشيخ حامد مرسى فرصة لاجاء الفصل وبث
 الحرارة في ثنياه من أوله الى آخره . واللعن الثاني هو اللحن
 الرابع ، ولو ان الشيخ زكريا بدؤه على قد لحن المرحوم الشيخ
 سيد درويش « أنا لا أنام » ولكنه أدرك فيه فأسرع يعدو
 تاركا الأصل الى ناحية أخرى قريبة منه بحيث ان نغمة الأصل
 وحلاوته باقية الى النهاية .

كُتبت مجلة « ١٠٠٠ صنف » التي يصدرها بديع خيرى مقالا
 عن هذه الرواية بالذات : وقالت عن اُحانها ما يجب ان اذكره
 « بنصه وقصه » ، للتدليل على ما يستطيع النقد الفنى ، وغير
 الفنى ان يصنع بالعمل الفنى والعمل غير الفنى من رفع الى
 السماء ، ومن ازال الى الأرض : قالت مجلة ألف صنف :

« الشيخ زكريا أحمد رجل موسيقى نابغة اعترف له خصومه
 بذلك أو لم يعترفوا وان من آيات نبوغه قيام هذه الضجة حول
 اسمه ، وترديد كل لسان لذكره واختلاف الآراء في شأنه ، فلو ان
 العنان كانت من سقط المتاع ما أثير حولها هذا المعجاج الذى
 لا بد منجل عن عظمة ومجد .. الشيخ زكريا رجل عمل لا يعبا
 كثيرا بالأقوال ولا يابيه لخصومة أشاح بوجهه عن القيل والقال ،
 واحتل أشد النبال برميها الى صميم قوائمه ، حتى أصدقاؤه
 الذين كانوا موضع سره ، ومحل ثقته ثم أوقف مجهوده الفنى
 على عمله وحده دافعا بالتى هى أحسن ، وها هو أخيرا قد أتتجت

قرصته اثني عشر لحنا كلها طرب ساحر وابداع ، فمن كان في شك من أمره فلي نظر « أبو زعزع » ثم ليحكم بمد ذلك له أو عليه ، ولكن عن معرفة واختيار .

وقالت مجلة « المصور » عن رواية « مين فيهم » :
« ان هذه الألحان المصرية تشهد للحنها زكريا أحمد فيما بلغه في عالم الموسيقى من مكانة ..

وقالت « المصور » عن رواية « أم البلايل » :
« لقد لازم التوفيق زكريا أحمد ، فلم يفلت لحن من زمام سيطرته الفنية وانما لقدرة أى قدرة » .
وقال نجيب الريحاني في مذكراته :

« وعادت بديعة مصابني الى الفرقة من جديد ، فأعدتنا رواية تكون هي بطلتها واهتمنا بوضع ألحان الرواية فاخترنا للتلحين موسيقيا بارعا هو الأستاذ زكريا أحمد الذي أبدع كل الابداع ووفق تمام التوفيق ، أما الرواية فكان اسمها « ياسمين » وأخرجنا عقب ياسمين رواية أخرى اسمها « أنا وانت » .

وكتب محمد عبد الوهاب في مجلة « آخر ساعة » ٨ أغسطس سنة ١٩٤٣ ، عندما تحدث عن شخصيات في عالم الفن :

« زكريا أحمد : هذا الرجل هو أصدق من يعبر عن رأيه بالطريقة التي يحبها وبمض شبان اليوم لا يضمنون هذه الطريقة ، ولكن الواقع أن زكريا يعبر عن طبيعة نفسه بصديق ، وفهم قادر الوجود .. في طبعه هو أيضا التحدي فهو يستطيع تلحين التانجو ، والرومبا والفوكس تروت ولكنه يعبر على تلحين ذلك النوع

الذى وصل الى مركزه في عالم التلحين عن طريقه ، وان كانت هذه الطريقة محلا للنقد .. « نحس في انحناء الشيخ زكريا طيبة قلبه » .

ويكتب محمد عبد الوهاب ايضا — ولكن في مجلة اهل الفن أغسطس ١٩٥٤ — أى بعد أحد عشر عاما — يقول :

« زكريا أحمد : اعتبره الوحيد في مصر ذا اللون الشرقى البحت الذى لا يدخل عليه أى تجديد .. وهو وان كان جيلا ومطربا ، الا أن هذا اللون كان يطن به الموسيقيون في عام ١٩٢٠ .

ومن مزايا هذا الرجل تميز انحناءه بالطرب الشرقى الذى يرجع سامعه الى « مجالات الأنس » .. بما فيها من خير وحب ورغد .. كما انه يمتاز بشخصية فنية .. فبمجرد استماعك الى لحن من ألحانه ، تحس باحساس معين يوحى اليك بمؤلفه .. الا اننى آخذ على الأستاذ زكريا انه يمتد عن التطور أو ادخال أى شيء جديد على فنه .. وربما كان هو أبعد نظرا منى في هذا .. فربما كان لونه الجميل هذا ينحصر في انحرص على لونه التقليدى الذى يحتفظ به .. ولكننى — على أى حال — أرى لزكريا أن يحاول التجديد في موسيقاه ، فربما استفاد الفن من عراقة الشرقية ان هى طعمت بألوان الفكر الجديد .. » .

ويقول رياض السنباطى .. في المدد نفسه ، وفي المكان نفسه من مجلة اهل الفن :

« زكريا أحمد : التلميذ المخلص للمدرسة الفنية القديمة ..
 وله طابعه الخاص الذي اشتهر به — الميال فيه دائما الى المرح
 حتى في الشكوى والأنين — فكانه « كالطير يرقص مذبوحا
 من الألم .. » وهذه ميزة .. وكما ان لزكريا طابعه الخاص ..
 فان له حظه الخاص ! .. فقد هضمت حقوقه .. ففعل عنها واندمج
 في نيار الوحدة ، والأجواء الخاصة .. وفي رأيي ان الحكومة
 لو شجعت نوع « الأوبرت » وصرفت عليه ، وعهدت الى زكريا
 بتلحين الأوبرت فيظهر لنا ألوانا من الموسيقى غير التي
 عهدناها . »

وكتب مجلة الجمهور اللبنانية مقالا عن زكريا أحمد ،
 قالت فيه :

« للشيخ زكريا أحمد عرش وتاج وصولجان .. عرش الفن
 الجميل الذي تربع عليه ، وتاج اللحن الذي اتقاد له برقة عاطفته
 وقوة ايمانه ، وصولجان سامعيه ومحبيه الذين يتصبون له
 ويتبارون في الاعجاب به .

عرش ، وتاج ، وصولجان ، أو قل قلب وعاطفة وروح !
 انها عدة الشيخ زكريا في كل ما يصدر عنه من ألحان مذابة من
 صميم حسه ووجدانه .. انك لتحس الخفقة المذابة في ألحانه
 وتستروح في أقطافها دفء الايمان ونعيم الطمأنينة والهدوء .
 وكان من الطبيعي أن يمتد هذا الفنان الملهم بفنه وبعمره
 وصولجانه أما ما بقي من نفسه فعنق مشاع للتواضع الجم والخلق
 المهذب الجميل . يبذله طائفا للبنى آدم من الناس .. اللهم

الا الذوات منهم .. فوات الأربع التى تحس وتفكر تفكير بعض
السائمة من الحيوانات .. ولهؤلاء الحساب العير مع الشيخ
زكريا فلا نواضع ولا صفاء ولا جمال بل دقة بدقة وصفة بصفة
والبادىء بالشر أظلم !

دعاه مرة أحد « الذوات » من الباشوات ليتفق معه على تلحين
بعض الأغاني لأحد الأفلام . ودخل الشيخ زكريا على الباشا
العظيم بروحه الشفافة وبتأجه وصولجانه الذى يحرص عليه دائما
وخامسة فى مثل هذه المقابلات ..

وما راعه سوى هذه الجلسة المتقطعة والتحية الباردة
المتقنبة التى قابله بها الباشا العظيم .. واستعان الشيخ زكريا
بالصبر ، ولكن الصبر لم يدم طويلا ، فقد ضغط الباشا صوته
الفخم وراح يربت على كرشه الأفخم قائلا منتفخا :

— اسمع يا زكريا .. احنا عايزين منك شوية العان لبعض
الأغاني .. فقل لى انت عايز تاخذ كام على اللحن ؟

وكان حذاء الباشا الفخم اللامع يزدهى فوق ركبته
بأرستقراطية لطيفة .. وحدق الشيخ زكريا طويلا الى الانعكاسات
النفية العجيبة التى كانت نيل من وجه الباشا العظيم ورفع
ساقا فوق ساق وهو يقول :

— المسألة بسيطة يا سعادة الباشا .. أنا حاخذ ٣ آلاف جنيه
على لحن الأغنية الواحدة بس عشان خاطر ك ا
ولم يتزحزح زكريا قيد ألمة عما طلبه من الباشا .
وقال الفنان أمين فهمى :

» ولقد بلغ الاتاج الفنى الذى خلفه الفنان الكبير زكريا أحمد ١٠٧٥ أغنية مختلفة الأنواع والألوان ، و ٥٦ أوبرا وأوبريت وقال الفنان المخضرم الكبير الأستاذ محمد حسى الشجاعي ، المستشار الفنى للموسيقى والفناء بالاذاعة : ان هذا المحصول الموسيقى العظيم لم يتوافر لآى فنان فى العالم العربى حتى وقتنا هذا ، كما ان هذا المحصول الوفير لم يسقط منه لحن واحد .

ان زكريا أحمد قد استطاع وحده أن يبرز معالم الموسيقى العربية فى ألحانه المديدة الخالدة ، وقد استعمل من الأوزان المختلفة عددا كبيرا . وفى سنة ١٩٣٢ ، طلع على الدوائر الفنية بمعجزة موسيقية باهرة اذ لحن أنشودة » بعد ما ضحيت حياتى فى الغرام » من أربعة أوزان مختلفة ، بدأها بوزن النوخت ، ثم الساعى الثقيل ، فالمصودى ، وأخيرا الفالس ، وغناها يومئذ المطرب المعروف الأستاذ صالح عبد الحى ، فكانت حدثا فنيا وتجديدا أثارت ضجة كبرى فى جميع الأوساط الفنية .

نعم ، ان زكريا أحمد كان دائرة معارف فنية جامعة ، وقد لحن مختلف الألوان وألحنها جميعا كل الاتقان ولم يكتف بالألحان المصرية وحدها ، بل ترك لنا بين تراثه الخالد كثيرا من الألحان البدوية واللبنانية والتونسية والمصرية وأغنيته الفوازير (جول لى ولا تغيش يا زين .. ايش تجول العين للعين) التى غنتها السيدة أم كلثوم تعتبر وحدها معجزة فى هذا اللون ولم يستطع أن يلحنها

أحد سوى ذكريا أحمد ، بذلك الاثنان الرائع للجملة الموسيقية والجملة الالتقائية المعبرة ، لأول مرة في تاريخ فننا .

هذا هو ذكريا الموسيقار الفنان ، كانت له طريقة فريدة في التلحين فهو يتفهم معاني الأغنية بدقة بالغة ، ثم يعطيها الوزن الموسيقي المطابق لوزن بحرها الشعري ، اذ كان رحمه الله ضليعا في علم العروض (أوزان الشعر) كما كان أديبا واسع الاطلاع وبذلك كان نجاح ألحانه منقطع النظير .

ومن مذكورة رفعت الى المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون عند التفكير في منحه جائزة الدولة التقديرية :

« الموسيقار ذكريا أحمد يعتبر أول فنان له محصول لا يستهان به في تاريخ حياته لم يصل اليه أي فنان لوقتنا هذا حتى بلغ محصوله الفني ١٠٧٠ أغنية جمعت شتى الألوان ، فكان دائرة معارف فنية ، اذ كان الملحن الوحيد الذي كان يصور الألحان البدوية والتونسية والمغربية ، وجميع هذه الألحان كانت ناجحة الى حد كبير لم يسقط منها أي لحن . وهذه مقدرة فنية فذة لم تتوفر لأي ملحن سابق ، علاوة على ٥٦ أوبرا وأوبريت وكلها ألحان فنية تعبر تعبيرا صادقا عن طابعنا القومي . »

« كان الموسيقار سيد درويش أول من انتقل بموسيقانا من التخت الى المسرح ، وكانت ألحانه رائجة في عهده وتصور بيئة معينة في وقتها ، ثم برز اسم الشيخ ذكريا أحمد ولقب بشيخ الملحنين لاهتاله جميع الألوان المسرحية والعاطفية والدينية والعماسية والكوميديية . »

امتازت الحان زكريا أحمد بأنها تصور يتنا على اختلاف
الميل والشاعر حتى انها ستظل تلب دورا كبيرا في جيلنا في
الحاضر والمستقبل .

امتاز زكريا أحمد بأنه تطور بالموسيقى ، فجعل لها طابعا
قوميا يستيفه الشعب فقد وضع الطابع القديم في اطار حديث
مشوق ، لم يقتبس أو يدخل على موسيقاه أى لون آخر لأن
موسيقاه كانت نابعة من روحه وقوميتنا العربية . وهذا لم يتوافر
في أى ملحن آخر حتى وصل بموسيقانا الى القمة .

استطاع أن يبرز معالم الموسيقى العربية الفنية في ألوانها
وأوزانها فاستعمل الأوزان المختلفة في ألحانه ، ولم يبقه أى
فنان في هذا المضمار .

جدد في طابع الموسيقى العربية ، فجعل من الأنشودة الصغيرة
(القطبوة) قطعة لها قيمتها الفنية ، فحطم القيود العتيقة التي
كانت تجعل موسيقانا على وتيرة ولحدة ، ثم جدد في الأوزان
والألوان ، ومن قبله كنا نسمع القطبوة المعروفة من نغمة واحدة
فتفتح مدرسة جديدة اذ جعل القطبوة من أوزان مختلفة وجعل
لكل مقطع منها (الكوبليه) نغمة خاصة تختلف عن نغمات المقاطع
الأخرى .

وكان زكريا أحمد ملما الماما تاما بعلم العروض فكان يعطى
الوزن المطابق للتأليف ، وهذه ناحية لم يلتفت اليها أحد من
القنانين لوقتنا هذا ، فكانت هذه الطريقة هي سبب نجاح ألحانه

الى أبعد حد ، فكان هو الملحن الوحيد الذى امتازت أنحائه
بالتصير الصادق .

كان الفنان زكريا أحمد يتوفر بنظرته الفلسفية العميقة للحياة
وابنائه باقة على خلق ألحانه الرائعة والعمل على توصيلها
للمستمعين من المواطنين العرب فى جميع أنحاء العالم عن طريق
محترفى الطرب والموسيقى والتواشيح ، فخلق باعتزاز ألحانا تتميز
بالجمال والروعة وتمتاز ألحانه بميزة قلما توفرت فى ملحن آخر ،
وهى محافظته على الروح الشرقية فى موسيقاه التى تدل دلالة
واضحة على مقدار تمكنه من فنه واعتزازه بكرامته ، بدليل
صموده العنيد أمام التيار الذى انشاق فيه غيره ، وكان دوره
كملحن مجيد ، فضلا عن خلق روائع النغم ، فقد كان يقوم بنفسه
بتدريب المطربين والمطربات والعازفين فى اناة وقعة وعبر ، حتى
تتم له تأدية ألحانه بالروح الشرقية الأصيلة التى امتازت بها
ألحانه .



ولكن كيف كان زكريا أحمد يخلق روائحه ؟

مثل زكريا أحمد ذلت مرة ، كيف تخرج العانك فقال :

« حسب الظروف ، أحيانا عندما أكون رائق البال بصرف
النظر عن الزمان والمكان ، وأحيانا عندما أكون تأثر الأعصاب
مشدود الأحاسيس ، قد خرجت — مثلا — من خناقة كبيرة
وقد عرف اولادى عنى ذلك فتراهم يقولون فى اعتقاب كل خناقة
لى معهم ، أو مع غيرهم » لازم الخناقة دى بعدها لحن

يا بابا ، ، وعندما يكون جو الاغنية غريبا اذهب بنفسى الى الجو
 الاصلى للاغنية لايعيش فيه . انتى احيانا اترك المجتمع الذى لعيش
 فيه قائما فى فراشه ثم امضى افشى فى نفسى عن شخصيات المنعنه
 والمؤتقين ، اقلب كلماتهم واقتر اوتار حناجرهم ثم اخلق من ذاتى
 ذات المنى وجوه ، ثم اعلم المنى اللحن ، واتركه يفتنى واصفق له
 اذا اجاد : انتى انمرى من شخصيتى هذه المريتة واروح البس
 شخصيات المثلين والمنعنه وغيرهم . ولا اعنى انتى اخضع لهم ،
 ولكن اعنى انتى مستودع من البشر ملوه باختلاف المواقف
 والقوى ، فكلما احتجت الى فرد من الافراد مددت يدي الى قلبى
 واخرجت منه نفمة تختلج ثم تدفق فى منافذ قلوب الناس .
 وصف نجيب محفوظ ، ليلة من الليالى التى لا تنسى
 فقال :

« ليلة عادية ، لا تميزها أحداث ، الا انها لم تكن ككل
 الليالى ، فقد استمتعت فيها بكل المباح من معنى وطرب وادب
 وفكاهة وحكايات ، كانت ليلة عيد كبير ، اجتمعنا فيها فى بيت
 شيخ الملحنين زكريا أحمد . كنا جبهة كبيرة من الأصدقاء ، منهم
 من يقرض الشعر ، ومن يرتجل الزجل ، ومنهم من يحترف التأليف
 ومن يشتغل بالموسيقى ، وكان هذا التباين مدعاة لاقامة لدوة
 أدبية فنية تحدث فيها الحاضرون عن كل شئ ، وشيخ الملحنين
 زكريا أحمد معروف بدعابته ، وكان لا يفتأ بين العين والآخر أن
 يقطع حديث المتحدثين بنكتة او دعابة يفحك لها الحاضرون ،
 ثم يتبعها بترديد بعض مقاطع أغانيه أو بعض « مقاطيق » من الفناء

القديم ، ثم بكت فجأة ، ليستأنف الشراء والزجالون القاه
أشعارهم وأزجالهم ارتجالا ، وهم يتبارون مرة في الهجاء ومرة
في المديح .

والشيء الوحيد الذي لا يزال ماثلا لي ذاكرتي من هذه
الليلة ، هو قدرة زكريا أحمد واندماجه في تلحين إحدى أغانيه
في هذا الجو العاصف ، ليلتها كان يلحن لأم كلثوم أغنية مطلعها :
يا أسى الحب ما عرفش دا بينه شيء ميوصفش
كان كلما يلحن « كوبيه » منها يسمعه لنا لتردده معه ،
واستمر على هذه الحال حتى مطلع الفجر حتى انتهى من تلحين
الأغنية كلها ، بل جعل لها نهايتين عرضهما علينا ، واختلف الحاضرون
على اختيار واحدة من النهايتين ، ولكن الشيخ زكريا انحاز لرأى
الأغنية ، وبدانا نردد الأغنية كاملة ونغنيها جماعة قبل أن نغنيها
أم كلثوم . وكنت أشعر بسرور زائد لأنني شهدت مولد أغنية
وعشت فيها بالأذن والعين ، وبعد عشرة أيام كاملة سمعت أم كلثوم
تغني اللحن فتذكرت هذه الليلة التي لن أنساها .

وقد أخذت « آخر ساعة » على عاتقها ذات مرة مهمة مرافقة
زكريا أحمد وهو يضع لنا لأغنية ليلي مراد ، وظلت آخر
ساعة ملاحقة زكريا من اللحظة التي أخذ فيها كلمات الأغنية إلى
اللحظة التي أصبحت فيها ليلي مراد قادرة على غنائها بالصورة
التي يرضيها زكريا أحمد — قالت مجلة « آخر ساعة » :
« ما هي الأدوار التي تمر بها الأغنية من تأليفها إلى أن تنتشر
على الجمهور ؟ تبعتها أغنية أعجبت بها المطربة ليلي مراد واختارت

لتلحينها الشيخ زكريا أحمد لأنها نعتز به منذ أن لحن أولى أغانيها « آه يا سلام زاد وجدى آه » .

والشيخ زكريا لا يلحن حين يطلب منه أن يلحن ، ولكنه يلحن على هواه لا يقيد نفسه بجو أو زمان أو مكان ولا بسوعد .. قد يضع اللحن بعد ساعة ، وقد تبقى القطعة مكتوبة في كراسته شهرا أو شهرين وأحيانا ثلاثة أشهر ، كما حدث في أغنية « يا ما أمر الفراق » ، فقد بقيت في جيبه حتى كاد أن ينساها .. ثم صادف في الطريق جنازة شاب فتأثر لحزن المشيعين وتذكر القطعة فأخرجها من جيبه واندس بين المشيعين وانهمك في صوغ العالها ، وفي الوقت الذي وورى فيه التقييد التراب انتهى الشيخ زكريا من اللحن ١١

ويقول الشيخ زكريا في وصف « الجور الملمم » بأن اللحن يرثد العداائق ويسير في الشوارع ويركب الترام وينصت الى « زمارة » الكسارى أو يتبع بائع ذرة مشوية يترنم بالاعلان عن بضاعته .. وعندما يقبض على مفتاح اللحن قد يمر به أصدقاؤه فلا يرد تحياتهم ، وقد تلتقى النظاره بأنظارهم فلا يراهم لأنه يفكر بقله وأعصابه ووجدانه في وضع لحن .. ١

وها هو ذا الشيخ زكريا يلتقى مصادفة بصاحب الجلالة « الالهام » الهابط على أغنية ليلي الجديدة انه لم يكن على موعد معه قبل أن يقابله على شاطئ النيل حيث الهواهقى والنسيم عليل والطبيعة في أجمل ثوب ..

بقى الشيخ زكريا في ذلك المكان ساعات لم يبرحه الا بعد

اتهامه من وضع اللحن ، وظل بقية يومه واليوم التالى يترنم بمولده الجديد فى حجرة نومه وعلى المائدة وفى الشارع وبين أصدقائه وقبيل نومه .. ثم أعلن بعد ذلك لليلى مراد اتهامه من تلحين الأغنية وأسمها إياها عدة مرات .
وانصرف الشيخ زكريا أحمد بعد أن أكد على ليلى بسرعة الحفظ .

ومر اليوم الأول دون أن تذكر المطربة نفا واحدا من اللحن .. ولكنها فى الصباح اليوم التالى نجحت فى ضبطه والقبض على ناصيته ، وأخذت « تدندن » أثناء تناول قهوة الصباح ، وظلت تردده بعد ذلك الى أن حضر الشيخ زكريا وأعاد غناؤه معها مرات حتى ثبت اللحن تماما .

ثم بدأ اللحن والمطربة خطوة أخيرة .. عملية الحفظ لأفراد التخت .. دعوة للبروفة بإشراف الملحن ومن بروفة الى أخرى حتى أعلن الشيخ زكريا رضاه عن المطربة والتخت معا « !!
ويروى أحمد كفاى — من أهل الفن أصدقاء زكريا — الكثير من قصص أغاني زكريا ، كيف ولدت ، ولّى أى مكان كان هذا الميلاد ، ومن من الأصدقاء ، شهد عملية « الولادة » أو ساهم فيها بصوته ، أو بانصاته على الأقل .. يقول كفاى :

« أن معظم أغاني زكريا أحمد التى أحرزت شهرة كبيرة ، قد ولدت فى الاسماعيلية والسويس والاسكندرية والقاهرة ، وخاصة فى حارة ققطان اغاسى ، حيث كان منزل عبد العزيز قطة ، الذى يمر وأنت ذاهب اليه بالكثير من الآثار القديمة وحيث تجد فيه :

عشرات من الآلات الموسيقية المتعددة الأشكال والأحجام ، وكذلك في منزل عبد السلام شهاب وبعض هذه الأغاني قد ولدت في طنطا وأبو النمرس ، وعزبة حسن لاشين ، أذكر ذات مرة جاء فيها زكريا الاسماعيليه ومعها كلمات أغنية « أنا وانت » التي ألغها يريم التونسى لأم كلثوم ، وكان زكريا قد جاء خصيصا ليشهد حفلة قران أحد الأصدقاء المقربين ، وجاء مبكرا ثمانى ساعات عن موعد عقد القران ، حتى يضمن الوصول مبكرا الى مكان الاحتفال ، وخرجنا يوما لتناول غدائنا في عزبة الصيادين على مقربة من المكان الذى يوجد به الفرح ..

ولم ننم ، بعد الغداء فلا يمكننا أبدا أن ننام والشيخ معنا وجاء الالهام ، وبدأ زكريا يلحن الأغنية ، وبدأنا نشاركه العمل اما بالانصات الى دندته ، واما بشاركه « الوحدة » ، وجاءت الساعة الثامنة موعد عقد القران ، وكان الشيخ ما يزال في عمله القنى ، ونحن معه ، واعتذرنا عن حضور القران بالرغم من أن العريس كان أخا لواحد منا ، ومضت الليلة كأنها حلم ، وكنا في نشوة حقيقية ، فالشيخ يلحن ونحن نغنى ما يلحنه ، واتمى الشيخ من لحنه في الساعة التاسعة صباحا ..

وذهبنا في مساء اليوم التالى ، لعقد القران ، نتنمر للعروسين ، وأبى الشيخ الا أن يشفع اعتذاره لهما بهدية فريدة في نوعها ، فقد غنى الشيخ الأغنية للعروسين ، ونحن معها .. غنى للعروسين الأغنية قبل أن تغنيها أم كلثوم .

« ومرة أخرى ذهبنا الى « أبى النمرس » ومع الشيخ كلمات

كل الأجرة اثنين اثنين ، وكنا ذاهبين الى هناك لقضاء بضع ساعات فقط ، لتأدية واجب مفروض علينا ، وراق المكان الذي تغدينا فيه للشيخ زكريا ، كان عبارة عن حجرة لها ثلاث نوافذ ، نطل على حديقة مسلوحة بالورود .. ورذاذ المطر يداعب هذه الورود ، كما يداعب الشيخ .. وبتنا وبات الشيخ في هذه الحجرة ، فاكل : ولقنى ، والشيخ يلحن ولم نبرح هذه الحجرة الصغيرة منوال ثلاثة أيام كاملة لم نتم فيها الا لحظات قصيرة ، وعدنا الى القاهرة ومنا نحن أغنية « كل الأجرة اثنين اثنين » .

وعندما أعطى يريم التونسي أغنية « الأوله آه » ، لأم كلثوم وأعطاها أم كلثوم بدورها لزكريا أحمد ، أتمر زكريا أن يربط المزمار بالموسيقى ، كما أتمر أن يعطى هذه الأغنية بالذات ، كثيرا من الأهمية ، نظرا لتردد أم كلثوم في غنائها ، ورغبته في أن تكون قطعة رائعة ، وظللنا معه أسبوعا كاملا .. فذهب ليلة الى بيت عبد السلام ، ونهر والشيخ يدندن ، ونحن معه وذلك الى الصباح ، وترك المنزل الذى كنا نعمل فيه مع الشيخ الى بائع فول مدمس وننتظره حتى يفتح المحل .. ونشتري منه القدرة والزيت وقصص الخبز ، ونجلس على الرصيف ناكل ، وكأننا مجانين .. وبعد أن تقضى على كل ما فى المحل ، نذهب الى فكهائى قرب ونشتري منه بطيخا — لكل واحد منا بطيخة — وعلى الرصيف أيضا قضى على البطيخ كله ، من انتهى أولا ، يساعد من تأخر فى الأكل .. وهكذا حتى تشرق الشمس ، فنعود الى منزل أى واحد منا لننام حتى المساء ، ونبدأ فى البحث عن

مكان جديد ، لسمرتنا الجديدة ، وهكذا طوال سبعة أيام الى أن اتينا من الأغنية .

ولم تنته اليد أم كلثوم من ترديدها ، خاصة وإن كثيرا من الأصدقاء قد بالغ في تشككه في نجاح هذه الأغنية ، الى أن جاءت حفلة أم كلثوم في النادي الأهلي وكان النادي الأهلي هو كشاف أم كلثوم تغنى فيه أم كلثوم لأول مرة اغنياتها ، ومن ذوق جمهوره تحكم أم كلثوم على نجاح الأغنية أو عدم نجاحها .. وأعلن فكرى أباطة عن الأغنية الجديدة ، وبدأت أم كلثوم تغنى .. واستعبدت المقدمة الموسيقية للأغنية ست مرات !

ومرة في الاسكندرية وفي حفلة خيرية أقيمت لصالح الأطفال الميكان أخذ زكريا يغنى أو يدندن ، وطفل صغير أعشى ، يلقى على الطلبة .. والطفل لا يعلم أن يمسك الوحدة والشيخ لا يعلم من الغناء والدندنة .. وانتهت الليلة وانتهى زكريا أحمد ، من تلحين أغنية « حبيبى يسعد أوقاته » ..

وأم كلثوم تسمع اللحن مرة من زكريا ، وتغنيه معه في المرة الثانية ، وفي المرة الثالثة تغنيه وحدها وزكريا يقول دائما : « إن اللحن الذى أريد أدائه بصورة معينة ، ولكنى لا أستطيع أدائه بهذه الصورة ، لا يوجد من يؤديه كما أريده إلا أم كلثوم .. إن صوتها يتناز برشاقة وخفة دم ، وجمال ما بعده من جمال .. » . أما أغنية « أنا فى انتظارك » فقد كان ميلادها فى منزل عبد العزيز قطعة : الشيخ درويش الحريرى يستمع وزكريا يمسك

الوحدة ، وأنا أمسك الرق لأول مرة في حياتي .. وكنا في رمضان ، وفات موعد السحور ، ولم تناول السحور لأننا في حالة هيام باللحن .. ونزلنا في الصباح الباكر ، وركبنا عربة حنطور ، ونحن كلنا نغنى « أنا في انتظارك » .

وللحقيقة والتاريخ أقول ان مطلع الأغنية كان في البداية « أنا في انتظارك » وقد عدله زكريا لأنه لم يعجبه — وجعله أنا في انتظارك .. لأن نطق الأغنية في الصورة الأولى كان متعبا ، وغير مقبول !!

وعندما عرضت أغنية « بكرة السفر » على عبد الوهاب ، قال لا يمكن تلحينها وعندما انتهى زكريا من تلحينها كان أول من هنأ بها عبد الوهاب شخصيا ، وقد تم تلحين هذه الأغنية في فناء مدرسة كان صاحبها صديقا لزكريا أحمد ، وقد انتهز زكريا فرصة العطلة المدرسية ، فذهب الى المدرسة في غياب صاحبها وقضى بها يوما كاملا الى أن انتهى من تلحين الأغنية واستدعى ناظر المدرسة لسمعه اللحن .. وقد لحن زكريا مع أغنية « بكرة السفر » « أنا طير جريح يا فؤاد » : ولحن زكريا أغنية « رحلت عنك ساجمات الطيور » في منزل مصطفى فوده ، وكان يحلو لزكريا أن يغنيها ، ولكن لم يغنيها في أى منزل ، لأنه لم يكن يريد أن ينكد على أحد لأن هذه الأغنية تبعث الحزن في النفس وتحدث عن الفراق الطويل !! .

وفي بعض الأحيان كان زكريا يتصل بأم كلثوم من الاسماعيلية

أو السورس أو الاسكندرية تليفونيا ليسمها بمض ما وصل
إليه من خطوات في التلحين ، ولو كان « كوبيه » فقط .
ولقد استمتعت مرتين إلى زكريا وهو يتحدث عن العانة
مرة وهو يبكي ، ومرة أخرى كان يتسم من كل قلبه .. في المرة
الأولى قال زكريا :

« عندما جاء عبد العزيز آل سعود إلى القاهرة طلب من
أم كلثوم أن تغني في عابدين ، وأعدت لها قصيدة تخطي الملحنون عن
تلحينها لضيق الوقت ، ولكنني لم أخذل أم كلثوم ، فلحنت لها
القصيدة في خمس ساعات وحفظتها للتخت في ثلاث ساعات ،
وغنتها أم كلثوم في الليل بقصر عابدين .. وكان من أثر ما بذلت
من جهد شديد أن أصبت بالفالج » .

« ومرة أخرى جاءني الأستاذ رامي ليقول لي أن أم كلثوم
تريد أن تغني قصيدة في دار الأوبرا مطلما :

بين ذل الهوى وعزة تمي ضاع قلبي فما عرفت التأسى
وكنت قد قلت لأم كلثوم إن تلحين هذه القصيدة مستعصم ،
ولكنها صمت ، ورفض الملحنون كلهم أن يلحنوها ، ومع هذا
فقد عز علي أن أخذلها ، ولحنت القصيدة وأنا في فراش المرض ،
وغنتها في الأوبرا ، وعندما قرأت « بروجرام » الحفلة وجدتهم
قد نسبوا خطأ تلحين الأغنية إلى غيري .

وفي المرة الثانية التي كان يضحك فيها من كل قلبه .. قال
زكريا :

اسمعوا يا جماعة .. كان علي الكسار — أساء الله بالخير —

يربح أكثر من ألف جنيه في الشهر ، ولعب شيطان الطمع برأس أمين صدقي الذي كان يؤلف له ، قائل فرقة لنفسه وسحب رواياته من الكسار ، واضطر الكسار للظهور برواية جديدة في اليوم التالي ، وسار العمل على هذا المنوال .. الأستاذ حامد السيد يترجم ويرسل ما يترجمه أولا بأول للأستاذ بديع خيرى ، الأستاذ بديع خيرى يؤلف الأغاني ويرسل ما يؤلفه إلى مسخ خادمه .. وأنا ألحن طول الليل .. وظلنا على ذلك حتى الصباح حيث بدأنا في تحفيظ الرواية والألحان وعمل البروقات وفي المساء مثل الرواية الجديدة .

وقال زكريا وهو يذكر الريحاني :

« كان الريحاني — رحمه الله — يقول ان صناعتنا صناعة مغفلين يضحكون على مغفلين » وهي نظرة فنان صحيح ، كنت أحبه وأتمنى أن أخدمه بروحي ، وأحب أن أقدم له أى لحن ولو دفع ثمنه عشرة قروش فليس المهم عند الفنان المال ، بل الناس الذين يعاملهم .

ولعل المبرة الأخيرة : « فليس المهم عند الفنان المال ، بل الناس الذين يعاملهم » هي خير مفتاح لشخصية زكريا أحمد .

الفصل الأخير

أجمل ما في شخصية زكريا أحمد أنها تمثل شخصية الرجل العادي في بلادنا أصدق تمثيل ، فهو يمتاز بمدقه ، واماله وبساطته ، ورغبته في أن يحيا دائما ويحيا معه الآخرون جميعا ، في سعادة ، وسعة ، وحرية ، وكرامة ..

وبالرغم من أن زكريا أحمد قد انتقل من الحوارى الضيقة في أحياء الحسين والباطنية والدرب الأحمر ، الى الشوارع الرئيسية في القجالة وحدائق القبة ، والعبة الخضراء .. وبالرغم من أن إرادته قد ارتفع من خمسين قرشا في الليلة الواحدة الى ٥٥٠ جنيه في الأغنية الواحدة ، وبالرغم من أن رحلاته خارج القاهرة لم تعد مقصورة على سنود والمحلة الكبرى وديرب نجم وإيتاي البارود ، وإنما امتدت الى بيروت ودمشق ، واستامبول ، وقبرص ، وروما وباريس . وبالرغم من أنه تحول من « صيت » عادي يقرأ في المآثم والأفراح وليالى موالد النبی والبيدة زينب والسيدة نفيسة ، الى موسيقار كبير تتجاوز شهرته مصر ، الى العالم العربي كله ، بالرغم من ذلك كله فقد ظل زكريا وفيا لنفسه وللناس الذين اتصل بهم وتعرف عليهم وارتبط معهم بأحاسيسه ومشاعره وآلامه وآماله .. لم يتبدل ولم يتغير ولم تستطع ظروف الحياة الجديدة أن تخرجه عنا قلبه في صغره ، وما تربى

عليه في بيته الفقيرة الكادحة ، بل نراه دائما وباستمرار ملتصقا بالطبقة التي نشأ فيها ومنها ، ولم يحاول مرة واحدة أن ينفصل عنها ، أو يتبرا منها ، أو على الأقل ، يتنكر لها ، أو يتبدلها بغيرها .. أصدقاء ، طموحه ومباه ، هم أصدقاء شبابه ، وكهولته ، رفاق فقره وحاجته ، هم رفاق سحته ، وبعبوحته ، لم يبدلهم بغيرهم ممن كانوا ينتسبون الى الطبقة الراقية أو التي كان يسونها راقية ، وإن لم يحاول أن يعادى واحدا من هذه الطبقة أو تلك لأنه يريد أن يعيش مع الناس جميعا في خير .. وأمن واطمئنان ، لا يعمل للناس الا ما يعمل لنفسه ، من رغبته في الخير ، ورغبته في البعد عن الشر ، ورغبته في الاستزادة من نعم الحياة ، يسير في شوارع القاهرة على قدميه لا يملك الا قروشا قليلة ، لا تستطيع أن تنفق على يته يوما واحدا ، وتمجبه احدى العمارات الفخمة الضخمة التي تناطح السحاب ، فيسأل لمن هذه العمارة فيقول له رفاق الطريق : انها لهذه الفنانة أو تلك ، فلا يحقد ، ولا ينفب ولا يتحسر على ما أضاعه من مال ، وما ضاع منه من فرص الحياة ، ثم يقول والابتسامة الطوية البيضاء لا تفارق شفاهه ، ولا تفارق قلبه أيضا : ربنا يريد ويارك .

وتمر به في الشوارع والطرق التي يفرعها نهابا وابابا سيارات من أحدث الطرز تمر به وهي مسرعة حتى لتوشك أن تلحقه ، ويلمح داخل هذه العربة أو تلك فلانا الذي كان الى امد قريب ، تليذا فائلا يحاول أن يصنع منه فنانا ، فلا يتيسر له

ذلك ولو بالجهد الشاق ، أو فلاة التي كانت الى شهور مفت
« كومبارس » لا تكاد ترتفع بالمقل ، عن مستوى الحقل ،
ولكن زكريا لا يتضايق لذلك كله ولا يتألم لذلك كله ، وانما
يفرح ويتهمج وكأنما هو مالك كل هذه المرات ..

ويركب سيارة ناكسي ، ويتجانب — كمادته — أطراف
الأحاديث الحلوة المستعة مع السائق ويتخذ منه صديقا ، ويستمع
الى آلامه ويقول السائق ان هذه السيارة وعشرات مثلها ، لهذا
الفنان أو ذاك — فلا يقول له الا ما يقوله في أمثال هذه الحالات :
ربنا يضاعف له ماله .. لقد تعب في شبابه وآذن له أن يستريح ،
ويستريح معه أبناؤه .. ا

ونلقاه مكتئبا ذات صباح والابتسامة الحلوة قد غابت ، عن
شفتيه ، وعن قلبه معا وتساءل عن سر هذا الحزن الذي ارتسم
على وجهه ، وارتمى بالتالى على قلبه ، ليقول لك :

— « والله البواب بتاعنا نعبان جدا » .. أو يقول : « البنت
اللى بتشتغل عندنا بقى لها يومين ماحدش عارف هي راحت فين » .
ويمتنع عن العمل أياما ، وأياما والمخرجون يلحون في طلب
الأغاني ، وحفلات الاذاعة قد اقترت مواعيدها ، وألوف
الجنهات نوثك أن تطير من جيب الشيخ ، وأجراس التليفون
تدق من هذا المغرب أو تلك المظربة .. وترجو ، وتلح في الرجاء
أو تهدد وتوعد ، والشيخ في واد ، والجيب في واد آخر ، ان
ابنته الصغرى « تهانى » تشكو ألما في حلقها والشيخ لا يريد

أن يعمل مالم تشف كريت ، ومالم يطنن هو بنفسه ومن أكثر
من طيب على شفائها ..

وفي عام ١٩٢٦ العقبات ، والدود ، والمشاكل تتراحم حوله ،
وفي يته ، وفي عمله ، وفي كل مكان ، له فيه أى أثر والدنيا كلها
تتوقع له نهاية غير سعيدة ، والكثير من الخصوم ، بل ومن
أصدق الأصدقاء ، يرون أنه قد خسر المعركة ، وأنه قاب قوسين
أو أدنى من الموت الفنى ، ولكنه لا يرى رأى هؤلاء جميعا ، أنه
يثق فى نفسه ، ويثق فى فته ، ويثق فى أساليب دفاعه عن نفسه ،
ودفاعه عن فته ويكتب له فى كل معركة يخوضها الانتصار ..
ينتصر على خصومه الذين بالنوا — بلا ذنب جناه — فى خصومته ،
وعداوته . وينتصر على أصدقائه القدامى الذين تنكروا له
وجعدوا فضله عليهم وجه لهم ، وينتصر على الصحف الكبيرة
الواسعة الانتشار ذات النفوذ السياسى ، والفنى .. ينتصر عليها
بعد أنه أوقعت كل نشاطها على مهاجمته ، ويكون انتصار زكريا
دائما بأسلحة بسيطة ، .. اليد النظيفة ، واللسان العف ، والقلب
الطيب . لا يستخدم سلاحا مفلولا فى حربه التى يخوضها دفاعا
من نفسه ، ولم يرتكب حتى وهو يدافع عن نفسه ، فى معارك
الحياة والموت أى خطأ فى حق الغير ، ولم يحاول أن يشتري
ضميرا ، فالسلاح المفلول ، قد ينقلب على صاحبه والعبد الذليل
الذى تشتريه بمالك اليوم قد يستولى عليه غيرك غدا اذا ما دفع
ثمنا أكثر ، أو اذا امتلك سلاحا أقوى ، والقلم الذى يمكن
شراؤه ، لا يتردد صاحبه فى أن يقف ذليلا فى صف من هو أكثر

مالا وأقوى جأها و أعز تقرا .. والضير الذى اشترى ولو مرة واحدة ، لا أمان له ولا ثقة فيه ، ولا خير فى أى دفاع يقوم به .
وبالرغم من الخصومات العنيفة التى اندفع فيها بكل حماسة ، وظلم بعض الموتورين منه ومن نجاحه الساحق وبالرغم من الخسائر البالغة التى منى بها ، فإن زكريا لا يحمل فى قلبه تجاه الناس جميعا — حتى هؤلاء الموتورين الا الحب ، والود وسعة الصدر ، ويكفى أن يقابله أحد هؤلاء الذين أولفوا فى سيرته ، ونهشوا مقدسات حياته ويكفى أن يعتذر الواحد منهم عما قدم ، ليصفح عنه زكريا ، وينسى فى التوسّيات وخصوماته ..

وقد كان زكريا من المؤمنين دائما بأن واجب الانسان الشرف النبيل أن يتحكم فى مشاعره ، والا يطلق لها العنان ، واله اذا كان لكل شئ فى الحياة ثمنه فكذلك المشاعر الانسانية الرقيقة والخلق الطيب الرضى ، لا يمكن أن يكون للمرء الا عن طريق التضحية ونيان الاسامة ، ودفع الكراهية بالحب .

وزكريا يؤمن حق الايمان بأن الدواء السحرى لكل ما يعترضنا فى الحياة من عقبات ونكبات هو الحب ، تحب الناس جميعا ، من أحسن اليك ومن أساء اليك .. بل من لم يحسن ، ومن لم يسئ اليك .

ولقد سئل زكريا ذات مرة عن رايه فى الحب بالنسبة للفنان ، فقال : ان الحب فى الحقيقة بالنسبة للفنان هو حب الذات ، فأما عندما أحب الزهرة أحبها لأنها تسعدنى والمرأة كالزهرة ، تلهم

القنان وتسعده ، ولكنها قد تجرحه بأشواكها وهذه الجروح هي المحك الذي يصهر روح القنان ويصقلها .

وبإله أحدهم : لماذا قبلت الصلح مع الاذاعة بثل هذه السرعة ، وبالرغم من أن الصلح لم يحقق لك الا جزءا ضئيلا ، مما أفضت على القضية من مال ، فيقول لأن الاذاعة أرضت كبريائي ، تلك التي أراد لها بعضهم أن تجرح وتذل والتي أحمد الله ، على صيانة كبريائي ، وغناى عن الناس ..

وزكريا الى جاب هذه النواحي يمتاز بقدرته المجدية على اختيار الأصقاء والمعارف ، تراه يقابل أحدا من الناس لم يره الا مرة واحدة فسرعان ما يتجه اليه بكل قلبه ويفضى اليه بكل مشاعره ، وتساله : هل تعرفه معرفة أكيدة فيقول لك : كلا .. ولكن قلبي انفتح له على مصراعيه ، وتراه يقابل واحدا من الناس يعرفه حق المعرفة منذ سنوات عديدة ولكنه يجفل منه ، ويؤور عنه ولا يبادله الا الكلمات الروتينية ، وتساله هل بينك وبين هذا الشخص خصومة ، فيقول لك : كلا ولكن قلبي مطلق دونه .. وتمضى السنوات تلو السنوات لتؤكد وجهة نظر زكريا ويؤكد هو لك والزهو يكاد يسيطر على كلماته : ألم أقل لك ان قلبي لا يكذبني !

ولهذا فان أصدقاء زكريا الذين تعرف بهم على اختلاف ، أدوار حياته ، لم يغدع في واحد منهم ، ومنهم من ضالت صداقته بزكريا وصداقة زكريا له ، أكثر من خسة وأربعين عاما لم تخللها غيبة ، أو مشاجرة ، أو حتى مجرد سوء تفاهم ، ومنهم من

لم يتعرف به الا قبل وفاته بشهور ، ولكن صداقته به تكون قوية متينة كذلك التي امتدت خمسا واربعين سنة كاملة .

ان زكريا يحكم قلبه في صداقته ولم يكن عليه قلبه مرة واحدة ، لقد كانت صداقات زكريا من اروع الأعمال في حياة زكريا ، ويكفى ان شلة تجتمع سبعة أيام وسبع ليال بدوز احطاع ، لا يمل واحد منها المحبة ، بل يتسنى كل فرد في هذه الشلة ان تدوم هذه الأيام والليالي الى سنوات وقرون ..

وزكريا ييش دائما في وجه أصحابه حتى ليمد يريم التونسي ، تلك البشاشة من عيوبه ، وقائصه ، فيقول :

— ان كنت أعيب على زكريا شيئا فهو بناشته لأصدقائه ، الذين لا فائدة من ورائهم سوى اضاءة وقته ، أكثر من بناشته لأصحاب العمل ، فانه يستقبلك ويجلس معك حتى الصباح بينما المخرج الذي يكلفه بمدة العان يحسم زيارته في دقائق معدودات وبكلمات جافة ..

ومن خلال رسائل أهل الهوى من أصدقاء زكريا ، ومن خلال رسائل زكريا الى هؤلاء الأصدقاء والمعارف ، تستطيع ان ترى صورة طييبة لزكريا وأصدقائه ، وصورة صادقة للجو الذي اتج فيه زكريا روائمه — ولراى أصدقاء زكريا فيه ، وفي قنه :

ومن القصائد التي أهديت اليه .. ووجدت ضمن أوراقه ، واحدة أهداها حسين شفيق المصري « الى سيد الموسيقى » ، جاء فيها :

آمنت بالحر تحكى عنه عيناها
 وكنت أنكره استغفر الله
 تشوى شباب سقتى من بشاشتها
 خرا فلتست مفيقا من حمياها
 أما الحديث فأنغام طربت لها
 يشيع ملهن في أثناء لجواها
 فخلتني من بني العباس تمنى
 لثناء راتقة اسحق غناها
 في روضة كلما مر النسيم بها
 يراقص القل مزهوا وتياها
 والزهر تهدي به أنفامه فاذا
 فوق البساط بساط من هداياها
 هذا هو الحب إلا أنه صور
 من الأمانى أو رؤيا رأيناها
 يا ليت أيامنا دامت بروحهما
 بين الغمائل انى لست أناها
 باقه ربكما قولاً لساخرتى
 انى وان أسرفت فى الهجر أهواها
 وما سلوت . ولكنى فتى كرمت
 نفسى فما أعرف الشكوى ولا الآها..
 وكتب اليه محمد على أحد يصف لقاءه له على شاطئ
 البحر ، وحديثه معه عن الأدب والفن وأهلها :

وقتنا على الشط نبكى الطلول
 وتذكر عهدا مضى وانصرم
 وصرنا لعدد ذكر الرجال
 وطعم الحياة ولون الأمم
 فحدثني عن رجال القنـون
 وعن صولات الحبي والقلم
 وعن علم طارده الديـار
 غريب المقام نزل المـدم
 وعن جاهل يعنى بالقبـاء
 فيحيا ويحظى بكل النـم
 وعن عبقرى طواه الوجـود
 وما حطته قيود المـرم
 ومن رسائل يرم التونسي اختار هذه الرسالة ، وقد كتبها
 عام ١٩٤٢ .

« منذ ثلاثة أيام وأنا في الاسكندرية استشق الهواء الخالي
 من الغبار وأشعر والحمد لله بنشاط بدني وعقلي وأنا الآن أكتب
 الفصل الثاني من رواية عزيزة ويولس ، وسأكتب نحو أسبوعين
 على الأكثر .. ليس في القاهرة ، أصدقاه غيرك ، أكتب اليهم ،
 فأنك صديقنا ومركز علمنا وعمدة فنانا ، فإذا علمت ان أحدا
 يبحث عنى في عمل ، فلا تحير في البحث عنى » .. (ويذكر يرم
 في نهاية الخطاب العنوان ٦ شارع حلاوة قسم الجبرك) ..
 — خطاب من ابراهيم حسنى نجل الموسيقار المرحوم الأستاذ

داود حسنى يشكر الشيخ زكريا على اشتراكه فى اجاء حفلة
ذكرى والده فى ١١ فبراير ١٩٥٦ فى دار جمعية الشبان المسيحية ،
وذلك بفناء دور « حبك يا سلام » وكتابة حديث عنه فى المصحف :

سيدى الفاضل الأستاذ الموسيقار زكريا أحمد
أدام لقه عزه

« نعية مباركة طيبة ..

أرى من قسى العجز عن شكرك ، أياها الفنان الصادق المخلص ،
فلا يمر يوم من أيام الحياة الا وتبت اصالتك كفنان وعبقريتك
كموسيقار ، وعواطفك وشعورك قبل كل شئ . كانسان فوق كل
اعتبار .

ونكريك لزملائك الفنانين فى حياتهم ومساتهم فيه كل ما فى
كلمة الانسانية من المعانى .

وبسعدنى أن أرى صديق والذى رحمه الله ، وزميله فى
الفن ، يتحدث بعد مرور عشرين عاما عن آكاره فى الموسيقى
لمصرية ، وأن حديث زكريا أحمد أعزه لقه عن داود حسنى هو
حديث الفنان للفنان ، أو صديق الحق للفن والتاريخ ، والحق الى
مشوق دائما الى ذكرياتك الخطوة تجدد على مرور الأيام ،
وما ألقى ما تستوعبه ذكرياتك ، وما أجمل فكاهتك ، فقد سمعت
منها الكثير ، وطربت منها ، كما أطرب لموسيقاك والحنانك .

وكم هو جميل أن يسمع الناس منك ذكرياتك الفنية الخطوة
عن داود حسنى وعن بعثه لتراث الأقدمين : عبده العاطولى ،

محمد عثمان .. وعن التطور الذى أحدثه فى الموسيقى المصرية
من ادخال المقامات المهمة غير المألوفة على هذه الموسيقى مثل :

١ — الحجاز كار كردى ، فى دور « القلب فى حب الهوى » .

٢ — الزنجران أو الزاويل فى دور « أسير العشق ياما
يشوف هوان » .

٣ — العجم عيران فى دور « الحب سلطان آسى » .

٤ — الباستنكار فى دور « قلبى يحبك ولكن » .

٥ — دلشيمة فى دور « يا قلب حبك من سنين » .

٦ — طرز جديد فى دور « روحى وروحك فى امتزاج من
قبل الوجود » .

وكم أود أن يسمع الناس كثيرا الى كفاحك وكفاحه فى سبيل
وقف تيار الموسيقى الهزيلة العرجاء التى تدفقت فى هذه الأيام ،
لا هى شرقية ولا هى غربية ولقد أعجبنى تصويرك لهذه الأغاني
الحديثة بأنها دمية لا روح فيها ، وأزهار صناعية لا رائحة لها .

ان القومية فى الموسيقى هى التى تميزها عن سائر الموسيقىات ،
وان الطابع الخاص لها هو روحها وجسمها ، وكنت أود أن أقالك
يا سيدى العزيز فانت فى منزلة الوالد ، ولكن الظروف ومشاكل
الحياة ، وليكن كتابى هذا عنوان الشعور بالاعتراف بالجيل ،
والشكر على الانسانية والتمن الأصيل » .

— خطاب تهنئة بالصلح مع أم كلثوم أرسله من طرابلس
الغرب الأستاذ محمود على فضلى المستشار والخير السابق فى
قضية زكريا والاذاعة وأم كلثوم :

عزيزى الأستاذ زكريا

ما قرأت خبر زوال الخلاف بينكم وبين أم كلثوم حتى رفعت
 بدى الى الله شاكرا ، فانى كنت أعدّها نكبة على الموسيقى الشرقية
 أن يظل الخلاف قائما بين قطبين من أقطابها — ولم أملك تقى
 من فرط سرورى من ارسال هذا الخطاب اليك ، متضمنا أطيب
 تمنياتى لكم بالصحة والتوفيق .

خطاب من الأستاذ بديع خيرى يشكره فيه على مشاركته فى
 حفل زفاف السباحة ايناس حتى الى ابنه عادل خيرى وفى الخطاب
 الرجل التالى :

يا محامى يا جـوز المحامية	ابناس فى نظرى انا قضية
وانت كتبها فيه اليه	موش كده برضوا الا انا كذاب ؟
جمرت وشرت دراعك	هوش القاضى بدفاعك
والحظ شاورت له بصباك	قام فط ونط لحد الباب
معكمة التفريح العليا	حكمت لك بعروسة وغاية
تسعد بها وتخش الدنيا	والحكم له فرحت له الأحباب
منول بنقاذ وثقاذ عاجل	بس انا باستعجب يا سى عادل
ليه المصارف تيجى عالراجل	والدك من غير ذكر الأسباب
وانت يا متر تهف الأتمساب	

يا عروسة البحر يا عوامة	ياللى ما غلبت كيش دوامة
وغطتى وقيتى بسلامة	م النيل للمانش لنهر لوار
أنا أسمى عليكى وأرقيكى	من عين سمك الاتلاتيكى
وكمان عين حوت الباسفيكى	الى سبقيهم بالمشوار

أنا خائف وقوليلى لماذا
 يغوى العموم ما هو يا أستاذ
 يترجح في كاليه وفي دوفر
 وأنا جده بقا اسرح أوفر
 بعد مؤلف أصبح بعار
 لا المولود ده حايجي طازه
 ابن الوز وبطلع في الكار
 وبسابق الدوارد وهو فر
 سيزع الولد اللعي الهنكار

دى ايناس حتى وشب والدك
 دى ايناسا الكل.. وكل بعضك
 هو انت حانتكم عواطفنا
 الليلة نعد روحك ضيفنا
 أنا أنوب في الشكر لمعازيكم
 ويتم بالوفق نعيمكم
 عقبال عند اللي جاملوكم
 وختاما قبلوا من أخوكم
 واتسروا في الدنيا باسمير
 موش بر ايناسك انت لوحدة
 ان كنت تغير من جنا غير
 من فضلك سينا على كيفنا
 موش احنا ضيوفك لا ده كثير
 ويديهم ربنا ويديكم
 يا ولاد الابه اتو يا نواوير
 نعلم رجليم أنوكم
 بوسة حب وبوسة تقدير



فاذا اتقلنا بعد ذلك كله الى ما بعثه الى ذكرنا صديق عمره
 عبد السلام شهاب من أزجال ، وجدنا صورة جميلة ورائعة للجو
 الذي أنتج فيه ذكريا روائعه ، لما عبد السلام شهاب الا واحد
 من أهل الهوى ، الذين رافقوا ذكريا — وأخلصوا له الود طوال
 ثلاثين عاما وأكثر ، لم تشبها شائبة من جفوة أو من سوء
 تعاملهم — يصف عبد السلام ذكريا الراوية بقوله :

حكايات أبو الزكران حكايات لها العجب
 متفرقة يجيبها بفنه من
 روح الف ليلة ليلة فتي بس جنبها
 خصوصا اذا كان فيها ليل يا عين
 وفيها مع التمثيل تواريخ وقررة
 وفيها - أقله - من النكتة كتابين
 وتسمع غنا من عهد آدم لعمري
 ومن كل شيخ قارى ولو آتسين
 ويقول عبد السلام وهو يننى عودة ليالى الصفا بعد أن
 فرق الزمن - لفترة قصيرة - أهل الهوى :
 وبالاختصار فرج جميعا لأصلنا
 لجنة أبونا وأما العزيزين
 ويستجى إبليس بس يظهر وأنا اخته
 واحابه كما لو كان حساب ملكين
 ويكفانا كل اللي حصل من أذبه
 ويكفاه يمود منها بقت حنين
 وبرضه على فكرة - فصلى ع النبي
 صلاة النبي خير والزادة خيرين
 وارجع اقول لك كل شىء فى الحياة قسم
 وكل اللي مكتوب لك تشوفه العين
 ورسائل زكريا الى أصدقائه ومحبيه لا تغلو أبدا من طرافة ،

انه يكتب الى صديق العمر — بديع خيرى — عندما كان يصدر
صحيفة ألف صنف سنة ١٩٢٦ :

الزجالين في بلدنا كثير	حدث على وحصل سى بديع
أزجاله حلوة ونظيفة	لا فيها تلطيش ولا تبقيع
الفاظ وأوزان ومعالي	تصبح البلبل سميع
تضحك لما تسورق	ويعطيك من معناها
وتبهك لحقوق وطنك	بذوق ورقة ونباهة
وترفك أحوال بلدك	واللى يجرى جواها
أحسن مراية لأخلاقنا	تورى علنا ودواها

قالت صنف النبى أحسن ما فيش مجلة في حلاوتها
لها كل يوم أفكار طازة علشان ترقى أمتها
وان كنت عاوز تنسور تبقى فاهم لبتمها
وانت وعيتك وجيرانك وقول لمصر برتمها ..

واذا كانت خطابات أصدقاء زكريا ومعارفه ، اليه ، وخطاباته
الى أصدقائه تعطى صورة كاملة لزكريا أحمد ، ولأصدقائه
ومعارفه ، فان أحاديث زكريا الى الصحافة والصحفين تكمل
هذه الصورة ، ولقد اطلعت على عشرات من هذه الأحاديث التى
أدلى بها زكريا أحمد طوال ثلاثين عاما كانت بحق دليلا قاطعا
على أن زكريا لم يتبدل ولم يتغير .

وها هى ذى بعض النماذج لأحاديثه الصحافية :

— فى سبتمبر سنة ١٩٥٠ يقول لمجلة الاذاعة اللبنانية عندما

سأله مندوبها عن رأيه في هذه الموجة من الألحان الغربية التي تخرج الى السوق على أنها تجديد في التلحين :

« ان هذا الذي يسمونه تجديدا في الموسيقى هو في الواقع قضاء على روحنا الشرقية الأصلية . ان الموسيقى لم تعد في هذه الأيام الا متاجرة بمواطف المستمعين . والألحان التي يقال انها مجددة هي التي تهدم الذوق الفني في الشرق ، أما أنا فلا أهاب بفنني الى مستوى المتاجرة ، سأظل على ما أنا عليه .. أعني لحنا واحدا قويا في العام وأصبه في حنجرة صافية تحسن نأديته ثم آوئ الى قصي وأنا في الملتان الى أننى أدبت واجبي ، وليس أكره عندي من أن يمر الناس على لحن لي مرورا عابرا فلا يحسون به .. ان حياة الفنان ألم وتضعية يحترق في بوقته نفسه ليفي بهوس السامعين .. » .

ويقول زكريا أيضا « ان الألحان للمصرية والتونسية واللبنانية والمراقية وغيرها من الألحان العربية هي فروع لعائلة واحدة لا جدل ان بينها بعض الفوارق ولكن الفنان يقطر بسرعة ان يلمس هذه القرى الشديدة بين الألحان .. ولهذا العائلة النغمية ، انسابا واقرباء في الأقطار الشرقية المجاورة هي الألحان القارسية والتركية وبعض البلدان البلقانية غير ان هناك ضابطا واحدا يجمعها كلها جميعا هو الوحدة الموسيقية التي يتوقف عليها ضبط الألحان وموازينها .. » .

وتنشر جريدة الجمهورية ، رأيا لزكريا أحمد في الموسيقى ، جاء فيه :

« ان بعض الألحان عندنا شرقية ولكنها لا ترقى الأداء الصحيح . انهم يقرأون الأغنية كالكمبيالات وأغلبهم يجهز الموسيقى ، ويكلف المؤلف بوضع كلمات لها « هل سمعت عن الغراب الذى أراد أن يقلد الطاووس فلا أصبح طاووسا ولا عاد غرابا ، كما كان ، حتى لقد نسى مشيته ! » ذلك المثل ينطبق على ملحنينا الذين لخطوا الموسيقى الشرقية على الافرنجية .

ان موسيقانا أغنى من الموسيقى الغربية لأننا نمتلك النغمات الشرقية مثل السبكا والبياتى والصبا وفيهم ربع المقام غير الموجود فى موسيقاهم وأغلب العلماء الموسيقيين الذين قدموا الى القاهرة وسموا موسيقانا امتدحوها جدا ودهشوا للصوت المصرى كيف يودى هذا الربع مع عدم وجوده بموسيقاهم فى الوقت الذى يقدم فيه الملحنون الموسيقى الغربية لأغانينا المصرية ويتمدون عن الربع الشرقى ليستمعوا الآلات الافرنجية بدلا من الآلات الشرقية مثل السبكا والبياتى والعبا وفيها ربع المقام غير الموجود . من العار على كل موسيقى مصرى أن يقول ان موسيقانا محلية ، وبعد الوهاب له قطع موسيقية كثيرة تصلح لأن تكون موسيقى عالمية .. واللحن الشرقى الأصل مهم مر عليه الزمن ممكن تداوله عالميا بدليل ان أغنية « زرونى فى السنة مرة » موزعة توزيعا عظيما ولحنها شرقى صميم وهى من ألحان المرحوم سيد درويش وعمر لحنها الذى يذاع اليوم ٤٠ عاما ! وسكت زكريا قليلا ثم قال :

« اتنا لم ندرس الموسيقى فى الخارج وقليل منا الذى يحفل

شهادات موسيقية .. والذي درس الموسيقى الغربية بالخارج لا يستطيع أن يفنى عربى أو يلحن عربى صميم ، والدليل ان رابعة المدونة ، جميع ألحانها ليس بها لحن عربى كألحان سلامة وقد أرسلت لى الاذاعة كى اتخذ الموقف واعيد تلحينها بسبب جهل الملحنين عن تصوير اللحن بالطابع الذى يتطلبه الموقف لأنهم وضعوا لحنًا لواحدة عربية منسوفة هي رابعة يصلح لواحدة افرنجية اسمها زيزى فى جاردن سيني !! » .



وتنشر « الأهرام » فى آخر أيامه حديثًا يستغرق نصف صفحة اجراءه معه جلال الجويلى ، يستعنه بآخر أغنيائه :

هو صحيح الهوى غلاب	ما اعرفنى انسا
الهجر قالوا مرار وعذاب	واليوم بسنه
جاني الهوى من غير مواعيد	وكلما دا حللونه تزيد
ما احببتى يوم ح ياخذ	نى ببيعد
يضى قلبى بالأنفراح	وارجع وقلبي كله جراح
ازاى يا تــــرى	أهو ده اللى جـــــرى
شبكت قلبى بنظرة عين	ما اعرفنى منها اروح على فين

ثم يقول كاتب المقال :

بعد أيام ستفنى أم كلثوم للملايين من ألحان زكريا أحمد ، كتب الأغنية يرم التوتى ، اسمها أغنية « المارة والعذاب » ، ان اليوم فيها سنة .. ان عمر زكريا أحمد ٦٥ سنة و ٤٢ يوما ،

ان كل يوم من عمر زكريا احمد هو أيضا سنة « ويقول زكريا في حديثه :

انا انريت بالكرباج ، واعتقدت ان كل اولادى لازم يتربوا بالكرباج ، لكن ده غلط ، غيرت طريقى فى التربية ، سيب ابنك للزمن يريه ، سيدنا على قال : « لا تتركوا اولادكم على اخلاقكم فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم » الكلمة دى تساوى عندى مليون جنيه .

وتذكر الشيخ زكريا ابنه المرحوم يعقوب الذى اتحر ، وكتب يقول لو كىل النيابة : « اتحرت . لأن أبى مظلوم فى الحياة ! » وصت شيخ الملحنين : صت أحسن ملحن لنمة « الصبا » الحزينة .

ان له فلسفة ..

انه يستقبل الأحزان بالرضا والصبر ، ودار الحوار :



= اللى يشتنى زى اللى يدبى قلوبس . لا الشتيعة لازقة
ولا القلوبس قاعدة . كله ضايع !

=

— مثلت فى أول فيلم أتجته مصر ، كان اسمه « أنشودة
الفؤاد » قمت فيه بدور حرامى ، القيلم مثلناه فى باريس .
كانت أيام حلوة ، كان ممايا جورج أبيض ونادرة
وعبد الرحمن رشدى ، وكان عبد الرحمن أحسن مثل
فى الدنيا ، يقدر يعيط لما يطلب منه المخرج يعيط ، عرضت

عليه فرنسا ٥٠٠ جنيه في الشهر وعقد خمس سنين عشان
يشل كل سنة فيلم ورفض .

.....

— الأغنية بتاعة النهارده زى الوردة اللي من غير ربعة ،
عندنا مؤلفين كويسين جدا ومؤلفين عاوزين يتحرقوا
بنار ، بديع خيرى ويبرم التونسى أحسن مؤلفين .

.....

— الأغنية القديمة متحة والجديدة كويسة لأن فيها صنعة .

.....

— أنا اختلف لحد النهارده ٥٦ أوبريت و ١٠٧٥ أغنية منها
٥ أغنية لأمر كلثوم ، والسنة دى اتفقت معاها على تلحين
٣ أغاني ، كل أغنية بسبعين جنيه . أول أغنية اتتمت
من تلحينها كتبها يبرم .

.....

— أنا أحب جارى كوبر ، أحسن ممثل هندي يعرف يضرب
كوبس ، لكن أحسن فيلم شفته السنة دى هو « الملائكة
الأزرق » يا سلام على (الخواجة) كيرث جيرنس !

.....

— أبوه أبويا يعني وأمي كان ، أبويا كان يعني بشكل
عنيف ، المي يسمعه شعر راسه يقف ! يعني تراجيدى ،
وأمي كانت تقنى دراما ، أسمها اتأثر قوى . أقول لها

بتقولى ايه ؟ تقولى اخرس ، أصلها كانت نركية
« قوقازيت » من القوقاز ..

..... =

— كان الخلعى يسمينى المقاط كل (لحن اسمه أحفظه) !

..... =

— أحسن كتاب قرأته فى حياتى كتاب أبو حيان التوحيدى ،
وآخر كتاب هو البغلاء للجاحظ .



وميزة أحاديث زكريا أحمد الصحفية ، وغير الصحفية ، انها
ثابتة لا تغير ولا تبدل ، نستطيع قبل أن نقرأها ، أو نسمعها أن
نعرف - اذا كنت من المتعلمين بزكريا أحمد - ماذا يقوله
الرجل . ان آراءه فى الناس والأحداث والأعمال ، لا تبدل ،
ولا تغير مهما مضت السنين وتماقت الأحداث . وبمقارنة بسيطة
بين آخر حديث صحفى له ، ذلك الذى أشرنا اليه من قبل ، وبين
آخر نشرته مجلة الراديو فى مارس ١٩٤٨ تجد أن أربعة عشر عاما
مرت بين الحديثين ، لم تستطع أن تبدل أو تغير شيئا ما من آراء
زكريا ومعتقداته فى الناس والأحداث والأعمال ..

قالت مجلة الراديو :

« الأستاذ زكريا أحمد من أئمة التلحين فى مصر ، له إنتاج فنى
رفيع ، وهو صاحب المدرسة القديمة ، يتأثر بشخصية قوية
واضحة المعالم . وأسلوب خاص فى التلحين . لحن لكبار المطربين
والمطربات ، وكانت الحانة سببا فى شهرة الكثيرين منهم .

وهو من الفنانين القلائل الذين يمتزون بأنفسهم ويحافظون على كرامتهم رغم تواضعه الجرم : كريم الى أبعد حد ومحب للخير : ومعروف بصراحته المتناهية فهو يقول للأعور أعور في عبته ..

وليس الشيخ زكريا بحاجة الى مزيد من الشهرة وهو أول من عمل في الميدان الفني من ملحنى هذا الجيل ، كما أنه صاحب العبقرى النابغة سيد درويش في جل حياته الفنية وفي أواخر أيام حياة الشيخ سلامة حجازى بدأ زكريا أحمد يلحن الروايات المسرحية فضلا عن الأدوار والأغاني التى ملئت بها المسامات من اسطوانات الجراموفون .

وقد لا يوجد مطرب واحد من القدماء أو المحدثين لم ينشد أئذان الأستاذ زكريا وقد لا يوجد مؤلف واحد من القدماء لم يلحن له زكريا ، ولا يوجد لون من ألوان الغناء لم يشترك فيه زكريا بنصيب واف وجهد جبار . ومن منا لم يردد « امى اموى يجى سوا » ، « اومى تكلمنى بابا جاي وراى » ، « اللى حبك يا هناء » ، « الآهات » ، « الانتظار » ، « كل الأحبة اتنين اتنين » — الى آخر ما عالجتة قريحة اتقان زكريا أحمد ..

وقد التقينا معه بمقهى البوسفور ببيدان باب الحديد على مقربة من الدار التى يسكنها في شارع الفجالة التى يلازمها زكريا وهو في أوج الشهرة والنجاح ، كما لازمها وهو في أوائل حياته الفنية فاذ الوفاء احدى المزايا الكثيرة التى يتحلى بها ملحننا الكبير .

وفي ركن منزل من أركان البوسفور — تحدثنا في الفن وغيره من الشؤون حديثا ذا شجون ، سألتاه :

— قالوا ان الشروط الأساسية في اللحن الفني هي تصوير الجو والموضوع والطرب والجمال وتوفير أصول التلحين من نغمات وموازين وسلامة عدد الموازير التي يجب أن تكون — بالجوز — في الموازير الكبيرة . وأربعات في الموازير الصغيرة . فهل تتوافر هذه الشروط في الحان ملحنى هذا العصر الذين يعرفهم الجمهور ؟

= يؤسفنى أن أقرر لك ان الحان اليوم لا تتوافر فيها هذه الشروط . لأن أغلب الملحنين يلحنون أغانيهم على الواحدة ، الصغيرة ، وهم يتهربون بذلك من الواحدة الكبيرة ، ويرجع هذا اما لاهالهم أو عدم درايتهم بهذه الأصول . ولا أكون مغاليا لو قلت اننى الوحيد الذى أراعى هذه الشروط . ولذا فانهم يتهموننى بالرجعية والتأخر . ولكن هذا لا يعنينى ما دمت أرى ضميرى وأؤدى واجبى ولا أخرج عن قواعد العلم والفن الذى اتسب اليه .

— اذن ما هو اللحن الفني في نظرك ؟

= هو الذى تتوافر فيه الشروط التى وردت في السؤال الأول .

— ما هو أحسن لحن لك ؟

— قد لا تصدق أن اللحن الذى اعتر به لم يلق من الرواج

والانتشار ما كنت أتوقعه له ، بينما يروج وينتشر لحن لم يقتض منى أى جهد . مثال ذلك اللحن — قولى لطيفك ينشئ — من فيلم دنانير ، لقد لحت هذا اللحن من ثلاث نغمات يبانى ، سيكاه ، صبا ، ولا يخفى عليك ما يتطلبه هذا العمل من مجهود مفس . ولكنه لم ينجح بالقدر الذى أصابه — بكره السفر — واذكر ان الأستاذ فكرى أباطه كتب عن هذا اللحن عامودا طويلا كله ثناء على ولم يقل أحد عن اللحن الذى حرقت فيه قلبى كلمة واحدة !! وأحب ان التاريخ سينصفه ويقول عنه كثيرا .

- من أحسن ملحن من الذين استقلوا الى رحمة الله .
- سيد درويش .
- ومن أحسن مطرب منهم ؟
- محمد سالم المجوز والشيخ أبو العلا محمد .
- ما رأيك فى الاقتباس من الموسيقى الغربية ؟
- اتنى ضد هذه الفكرة على طول الخط ، وخاصة فى الألحان الغنائية العادية ، أما الألحان المرحية فلا بأس من أن ينوع الانسان فيها بشرط أن يحتفظ اللحن بالطابع الشرقى وهو ما أوصى به أعضاء مؤتمر الموسيقى الذى عقد فى القاهرة عام ١٩٣٢ .
- وهل عالجت هذا النوع الأخير ؟
- لحت الكثير منه فى روايات نجيب الريحانى

الفرانكوآراب ، وبعضى الاسكتشات للسيدة بديعة
مصابنى ، كما لحت من الفالس العانا شرقية صينة
مثل : « طال على البعد » لأحمد عبد القادر ، « ويا بشير
الأنس غنى » ، وأخيرا أغنية الورد .

— ما السبب فى قلة اتاجك بالينما ؟

= الواقع اننى لا أشترك فى كل عمل يطلب الى الاشتراك
فيه ، وذلك لأننى لا أشترك فى أى عمل الا اذا أعجبنى
شخصيا وكنت مرتاحا لأدائه ، وأذكر ان أحد
الاستوديوهات الكبيرة طلب منى مرة أن ألحن بعض
الأغاني لأحد الأفلام ، ولكنى عندما قابلت المدير
المسئول وهو شخص ذو مركز محترم كبير ، لم أرنع
الى مقابله ، فلم أقبل التعاون معه ، ولما سألنى عن
الأجر الذى أطلبه فى اللحن الواحد قلت له رقنا خيالنا
لا أنصوره أنا شخصيا فاندمنى ، وكان هذا هو ردى
على مقابله غير اللائقة وتخلصت منه بذوق وبصنعة
لطافة .

— ولماذا تطلب أجرا مرتقنا دائما ؟

= لأننى صادق فى احساسى ، ولذلك أبذل مجهودا مضنيا
فى كل لحن وقد لا تصدقنى ان قلت لك اننى ألحن
الأغنية أكثر من مرتين وبعد أن أفرغ من تلحينها أتقى
أحسن هذه الألحان ، وقد لحت لأم كلثوم أغنية
« انظرن » فى فيلم دنانير ، وحفظتها فعلا وسافرت الى

راسى البر لكى تنفى الصيف هناك . ولكن خيل لى ان
اللعن لا يعجبني فانصلت بها فى الحال وقلت لها انسى
اللعن الذى حفظيه وسأقدم اليك لحنا آخر ، وقد كان ،
وحفظتها اللحن الجديد .

وسأله ذات مرة الاذاعى على فايق زغلول أحد عشر سؤالاً ،
أجاب عليها كلها زكريا ، وسجلت الأسئلة ، والاجابة فى برنامج
اخترت لكم ، وكانت الأسئلة والاجوبة على هذا النحو :

-- ليه سموك الشيخ زكريا ؟

= علشان أعيش ، لأن أبويا خلف ٢٠ بنت ولا فيش فيهم
ولا ولد يوحده الله سبحانه وتعالى .

-- متى بدأت تعترف التلعين ؟

= سنة ١٩١٧ .

-- مين من المطربين غنى أول الحانك ؟

= صاحب عبد الحى ، وعبد اللطيف البنا ، منيرة المهدية ،
نعمة المصرية ، وفتحية أحمد .

- تفكر أى لحن من الحانك ، لفت أسماع الناس اليك ؟

= هو أول لحن عملته « ارخى الستارة » ليونس القاضى .

— ما هو شعورك وانت تسمع الحانك ؟

= ادعوا الله دائماً أن يوفق المنى . ليؤديه ، كما لحتة .

-- مافيش لحن بعد ما قدمته للناس أدخلت عليه تعديلات ؟

= مافيش لحن بعد ما قدمته ، اذا حصل يكون ثناء ،

البروفات فقط .

— تهتكر ان الفضل في نجاح الأغنية للمؤلف ولا للملحن
ولا للمطرب ؟

= للثلاثة معا ، ولكن مهمة الملحن أشقهم عنا .

— ظهرت في أفلام أو على مسارح .. متى ؟ وما ذكرياتك ؟

= في فيلم أنتودة القواد ظهرت في ثلاث شخصيات ، عربي

بعقال ، وكاتب محلج قطن ، وعاشق صباية . وفي فيلم

ليلى بنت الفقراء قرأت مولد في منظر « مولد السيدة

زينب » سنة ١٩٤٧ ، وفي فيلم سلامة — دوبلاج لأغنية

« قوللى ولا تغيبش يا زين » ..

— كانت ايه الظروف اتى تعرفت فيها باليدة ام كلثوم ؟

= كنت سهران شهر رمضان بالسبلاوين .

— أول مرة سمعتها كنت تعتقد انها ستحتل المكانة دى في

عالم الغناء ؟

= طبعا لأن صوتها من أحسن الأصوات .

— ألعانك التى عملتها في فترات مختلفة من العمر ، متباعدة

أو متقاربة ضرورى سماعك لا يخليك تعيش في الجو

اللى عملتها فيه . يا ترى ايه هى الأغنية أو الأغاني

اللى لما بسمعها تثير في نفسك ذكريات جميلة ؟

= كل الألحان اللى فـه مثل الاستغاثات التى عملتها للمرحوم

الشيخ على محمود ، وكل الكلام اللى بحث على الفضيلة

مثل « خللى السيف يجول » و « يا حلاة الزين » .

فاذا اتقلنا بعد ذلك كله الى الحديث عن زكريا أحمد المحدث
 الساحر ، وجدنا أننا بحاجة ماسة الى كتاب جديد ، لا يقل
 حجمه بأية حال من الأحوال -- ان لم يزد -- عن حجم هذا
 الكتاب .. ان موهبة زكريا في الحديث موهبة نادرة ، وان له
 القدرة على الاستمرار في الحديث ساعات وساعات ، دون ان يمل
 هو ، او دون ان يمل سامعه ، وأصنافه يروون عنه ، في هذا
 المجال ، احاديث تنبئ الأساطير ، يلتقي في الشارع ، فيسلم عليك
 مسرعا قائلا انه يأسف لأن الحديث لن يستغرق دقيقة أو دقيقتين
 لأنه على موعد هام مع إحدى الشخصيات ويستمر زكريا وهو
 على قارعة الطريق يتحدث ويتحدث ساعة ، وأكثر من ساعة
 وانت غارق الى أذنيك في الحديث ، وهو نفسه غارق في الحديث .
 وقد تنقضى ثلاث ساعات هكذا في الطريق ، يمر بكما بعض
 الأصدقاء ، الذهاب الى الطبيب يعود ، والذهاب الى السينما
 يخرج من السينما ، والذي توجه ليلقي محاضرة قد ألقى المحاضرة
 وأنهى التعقيب على أسئلة الجمهور و .. و .. و .. وزكريا يتحدث ،
 وانت تستمع .. وقد يروى لك أشياء كثيرة تسمعها للمرة الأولى
 أو تسمعها للمرة العشرين مع اختلاف في طريقة الرواية وتفسير
 في بعض الألفاظ ، ولكنك تجد نفسك مشدودا بقوة الى هذه
 الأحاديث ، وكأنك تستمع الى أغنية جديدة حلوة وجذابة ، فاذا
 ما أصاب زكريا التعب وتوقف عن الكلام — وهو لا يتوقف
 عن الكلام الا عندما يتعب — أحسست بأنك قد استيقظت فعلا
 من حلم ساحر ، خلاص .

سمعت ذات مرة يروى قصة صديق له سافر الى قنا فلم يجد مكانا في الفندق الذى تمود النزول فيه ، فاضطر الى النزول في آخر ، من فنادق الدرجة الثالثة والأخيرة ، وفي حجرة شاركه فيها أحد تجار المواشى وحتى الفجر ، لم يكن صاحب الشبخ — واسمه عصا عيصو — قد طرق النوم جفنه ، الى أن استيقظ التاجر ، وراح يبعث بامتنعة عصا عيصو ونعجه منها معجون الأسنان ، فاستخدمه أكثر من مرة ، وراح يتطلع الى المرأة ، ليرى آثار المعجون في نيفس أسنانه ، كل ذلك ظنانه ان رفيقه في الحجرة منفرد في النوم . وجاءت النكتة طائفة مختارة لعصا عيصو فقام من سريره وطلب من زميله في الحجرة أن يناوله أنبوبة أشار اليها دون أن يذكر له اسمها . وقال له جاره متباهيا بعلوماته الوفيرة : « قصديك أنبوبة معجون الأسنان ؟ » فقال عصا عيصو : لا يا عمدة دى مش للأسنان دى دواء لمبواسير .. وأغمى على التاجر بضع دقائق أفاق بعدها ليجرى نحو الخارج باحثا عن طبيب وخلا الجو لعصا عيصو فنام نوما هينا بعد أن تخلص من شريكه في الحجرة .. وخلال ساعى القصة للمرة الثانية بدأت تضيق ولكننى لاحظت انه بغير ويبدل من وقائع القصة ، وانه يضيف اليها قصصا جديدة مشوقة لم اسمعها من قبل . وسمعتها مرة ثالثة ورابعة وخامسة ، وعاشرة خلال ثلاث سنوات ، وفي كل مرة كنت أجد نفسى مشدودا الى هذه القصة ، وكأنتى اسمعها للمرة الأولى . وقد قال لى واحد من أهل الهوى --- من خاصة زكريا — انه سمع هذه القصة من زكريا أكثر من مائة مرة .

ولم يمل الاستماع إليها دقيقة واحدة ، بل على العكس ، كان يحاول أن يتبع الجديد في القصة ، وقدرة زكريا في الافلات من مداعبات الأصدقاء عندما يقول أحدهم قديمة يا سيدنا النسخ . وكيف كان زكريا يعمد الى الابتكار في خلق أحداث جديدة وفي ادخال عشرات من القصص الجديدة والتقديمية داخل القصة الأصلية ، بحيث تشعر انك فعلا في جو خيالي ، خلقه وأبدع في خلقه زكريا أحمد ..

وقصص زكريا ورواياته وشعره وفكاهاته ، وأحاديثه الدينية أشبه بالفواكه المختلفة يقدم لك دواما الألوان التي تعجبك والتي لا تعجبك ، ولكنه لن يتركك أبدا بدون شيء يعجبك ويسيطر عليك .. وهو شديد الإعجاب بنظرة محمد البابلي وكثيرا ما كان يروي في مجالسه ما يحفظه من فكاهاته ونوادره : سمع مغنيا يغنى دور « أهل السماح والملاح دون فين إراضيه » : فصاح قائلا : « مرهونة في البنك العقاري » وقال أحد محدثيه وكان معروفًا بكثرة الاستدانة والمالعة : القطب الشمالى فيه ٦ أشهر نهار وستة أشهر ليل . فقال له :

— أحسن لك تسكن هناك عشان لما حد يعجى بطالك تقول له تعالى بكره .

— كان له صديق أحيل الى المعاش فاكثرت التردد عليه ليعاونه حتى ضايقه ، فقال له :

— يا أخى هما حالوك على المعاش و لاهالوك على انا ؟

= دخل مجلسه أحد الثقلاء وأراد الجلوس والباب مفتوح فقال له :

— قبل ما نقتعد اقبل لنا اباب يس من بره من فضلك .

= رأى معه صديق طماع عصا عليها الحرفان الأولان من اسمه « م . ب » فأخذ يمدحها طامعا في أن يهديها اليه ، فقال له لو كانت لى لأهديتها اليك ، فقال الصديق الطماع : آمال الحرفين دول معناهم إيه ؟

— فقال له : معناهم انها « مش بتاعتى » .

= رأى فتاة جميلة تصعد سلم المحطة وهو يصعد مع صديق ليلحقا القطار ، فوقف ينظر إليها ، ولما استمгле صديقه رد قائلا :

— مش قادر .. روحى طالعة !

= ذهب ليعزى في الريف وجلس على حصيرة ، فلما نمب قال لمن حوله :

— هو المرحوم فانهم ع الحصيرة ؟

= سار في جنازة مسافة طويلة فتمب جدا، ثم سأل أحدهم : اتودفتهم المرحوم فبن ؟ فقال له ، في الآخرة ! وتسمعه مرة يقول :

— فريد عمره المرحوم الشيخ أمين حنين المطرب

و (الصيت) المعروف كان انه يرحه جميل الوجه والصوت .. وكان جسمه فارعا متين التركيب .. وحصل أنه دعى ذات ليلة الى احياء ليلة زفاف ابن حاج في حى الأزهر .. وكان بين الحاج

صاحب الفرح وأحد (فتولت) الحى ضفائن قديمة .. وأقسم
(الفتوة) على (تبويظ) الليلة .. ودخل الشيخ أمين حنين
وتربع على (الدكة) الخضراء العالية وبدأ وصلة .. وهنا اقتحم
(الفتوة) وأصحابه الحفل .. وصاح مستهزئاً :

— الله الله .. اطربنا يا مفضى الميامن .. !!

.. والجم صاحب الفرح .. وانتظر الجميع بدء المأسة ..
وضجأة انتفض الشيخ أمين حنين من فوق الدكة .. وأمسك بها
بيد واحدة وطوح بها في الهواء .. واتجه نحو (الفتوة) وأصحابه
وبدا (يدعك) فيهم .. وبدأوا يهربون وهو يتبعهم . وعاد الشيخ
أمين كأنه لم يفعل شيئاً .. فوقف الحاج صاحب الفرح يهلل
ويصفق قائلاً :

— صلاة النبي .. صلاة النبي .. شبع .. وسبح .. !

وكثيراً ما كان يقرأ مجلدات حسارة منيتى ، والسيف
والمسامير ، وغيرها من المجلات الفكاهية ، وينقل منها بعض
ما يعجبه لينقله الى أصدقائه ومعارفه ، وكثيراً ما كان يهوى
الألغاز والأشياء الغامضة ، والوصفات البلدية ، سألنى مرة هل
تعرف سورة القدان ؟ قلت : لا : لقد حفظت القرآن في
الحادية عشرة من عمرى ولم تمر على سورة اسمها القدان .
فضحك حتى انغرورت عيناه من الضحك ، وقال : لا دى سورة
ثانية اللى ما يعرفها ناس يبقى جاهل فى الحساب ، وقلت له بالعكس ،
لقد كنت ممتازاً فى الحساب ، بخلاف الجبر والهندسة ، ولم تمر
على سورة القدان ، وأخرج لى ورقة طويلة عريضة ، كتب عليها

سورة القدان . وفيها كلام كثير من مساحة القدان والربع ،
وصف الربع ، والنس ، وثلاثة أرباع الدس ، والدائق ، وغيره
وغيره ، وراح يشرح لى وكأنه يشرح عملية عسكرية هامة .
ومن الأوراق التى وجدتها ضمن أوراقه الهامة « لفز وحله » :
= رجل معه ١٠٠ جنيه يريد شراء مائة بقرة من ثلاثة أنصار
مختلفة : سعر البقرة الصغيرة جنيهان ، وسعر البقرة المتوسطة
٥ جنيهات والعجوزة عشرة قروش ، فكم بقرة يشتريها من كل
صنف ؟

الحل : ١٩ صغيرة و ١١ متوسطة و ٧٠ كبيرة (٣٨ +
٥٥ + ٧ = ١٠٠ جنيه .

ومن أغاني الألفاز التى كان يحفظها عن ظهر قلب ويرددها
فى بعض الأحيان هذا الموال :

« والله زمان يا قلبى أحبابك عليك سالم
ولما سالم سلمم جم سالم سالم
وده مثل سمعناه من اللى قلنا قالم
شرط الفتى الحر ، لا قلنا ولا قالم » .

أما الوصفات البلدية ، ففى مذكراته ، ويومياته ، وفى أوراقه
التي يحملها نجد وصفات كثيرة وهو حريص على أن يرسل هذه
الوصفات الى أصدقائه ، وحريص على أن يتبع نتائجها فى المرضى
الذين عولجوا بها ، فمن وصفة طويلة عريضة تكون من خشب
الكينا ، والجنزبل ، والمحب ، وحب الرشاد ، وجوز الطيب ،
وحبة البركة ، والخشب المر ، والعلبة الناشفة ، والسبع

الغراساني والصبر واللبان الذكر ، والمستكة وكربونات الصودا ،
وهي دواء لمرض السكر .

ووصفة أخرى قيلت لتقوية الجسم : من التفلل الأبيض
وبذر أبو النوم ، وبذر القجل ، وعرق الذهب والجهان
والجنزيل ، والمسل الأبيض .

أما الثالثة ، فهي لحصوة الكلى من بذور القجل والكرفس
والجزر ، والخلة والبقدونس .

وكثيرا ما كان يحلو لذكريا أن يعرض الفوازير وأمثالها على
أصحابه ، فإن عجزوا عن حلها تولى هو الشرح بنفسه ، وكثيرا
ما كان يلقي هذه الفوازير على أولاده ويطلب منهم حلها باعتبار
أن هذه الفوازير تنشط العقل ونهى للإنسان فرص التفكير
المنظم السليم ، أما الوصفات البلدية فقد كان مؤمنا بها ، وكانت
السعادة تملأ قلبه عندما كان يسمع أن أحد أصدقائه المرئي
قد شفى من مرضه بعد أن جرب إحدى هذه الوصفات
التي شرحها له .



وفي حياة ذكريا أحد قصص كثيرة تلقى أضواء على
شخصيته الطيبة الصافية المنطقية التي لا تعرف حقدًا ، ولا مكرا ،
ولا تعقيدا ..

جلس ذات مرة مع بعض أصدقائه في جروبي وطلب الشاي
فنجانا من القهوة ، وقبل أن يرشف من الفنجان رشفة واحدة
قال : بسم الله الرحمن الرحيم ، فنظر إليه أحد الأصدقاء - وكان

من أولئك الذين اغتصوا بعد فقر ، وركبوا العربات المجنحة ، بعد السير بلا حذاء — مستكبرا وقال له : انت برضه لسه فقى يا شيخ زكريا .. وغضب زكريا وقال له محتدا : يبنى علشان ربنا ما سهلالك كثير حتسى اللي خلقك ، وتربع زكريا على الكرسي وبدأ يقرأ القرآن في جروبي بصوت مرتفع جدا ، لينت لصاحبه انه « لسه فقى بحق وحقيق » .. وهرب صاحبه وتجمع الناس حول زكريا يألونه ماذا حدث فروى لهم القصة .. وقضى بقية السلة ست ساعات في جروبي ، كلما دخل على السلة صديق جديد راح زكريا يروي القصة من زاوية جديدة .

وسافر زكريا ذات مرة هو وأهل الهوى من أصدقائه الى بلدة ميت دميس دقهلية ، لحضور مولد ماري جرجس . وكان حسن لاشين أحد أفراد السلة ، قد قال لهم ان بلدته فرقة كعب من ميت دميس ، وأظلم عليهم الليل ، ورفض زكريا فكرة الذهاب الى منزل أحد الأصدقاء في ميت دميس ، لأنه لا يليق أن نضايق الناس في مثل هذه الظروف ، وعقابا لحسن لاشين الذي ضحك عليهم حيث ظهر ان بلدته تبعد عن ميت دميس ٤٠ كيلو مترا وليس فرقة كعب ، طلب منه زكريا أن يجلس على الأرض متربعا وناف هو على رجله حتى الصباح .. وبدأ أهل الهوى يسيرون على أرجلهم مدة قال عنها زكريا انها سنة ، الى أن مرت بهم سيارة فاوقفوها وركبوا فيها جميعا عدا حسن لاشين الذي كانت الحقوبة مفروضة عليه حتى هذه اللحظة . وبعد أن سارت السيارة مائة بدون حسن لاشين، تأكدوا من ضرورة وجود حسن لكي يدلهم على

بلده ، فانتظروا الى ان اجتمع التسلسل وساروا الى البلدة وقضوا
هناك سبعة ايام بلبائهم يأكلون ويشربون وينثون ، فلما حاولوا
العودة الى القاهرة وجدوا ان ملابسهم قد ضاقت عليهم لما حملت
اجسامهم من زيادات وقال زكريا ضاحكا : « بعد ساعتين تفكر
في الدنيا وبلاؤها تخس النص .. » ا

وكان من عادة زكريا ان يتشى في اغلب الاحيان مع صديقه
حسن لاشين عند كبابجي في شارع خيرت ، حيث تعود كلب
هزيل اجسم ، كبير السن ان ياتى المحل ، عندما يجي زكريا ،
فكان زكريا يشتري لهذا الكلب ، رغيفا ونصف رطل من الكباب
ويقدمه اليه كل مرة ، ينسا كان يطلب لنفسه ، ولصديقه نصف
رطل ، وذات مرة رفض صاحب المحل ان يأخذ مليما واحدا قائلا
لزكريا : « الكلب ده ابن حتنا وواجب على ان اوكله » ورفض
زكريا وطلب منه ان يؤكله ، عندما لا يجي هو ، اما عندما يحضر
الى المحل فلا بد ان يتشى على حابه . وعندما كان حسن لاشين
يقول : « يا هوه دانا الملى بنى آدم وعاشرته ما يقرب من نصف قرن
مايوكلش قد الكلب » وكان زكريا يقول له جادا ، « عشان ياسى
حسن انت لك لسان تتكلم به ، وتقول انت عاوز ايه ، انسا ده
كلب مالوش لسان ، وخلاص كبير وعجز وزمان الكلاب الصغيرين
مش ساببين له حاجة » .

وفى على اولاد زكريا احمد ، ان والدهم كثيرا ما كان
ينهب الى حديقة الحيوان للعمل هناك . ويصطحبهم معه جيما .
وما من مرة ذهب الى حديقة الحيوان الا وكان معه اكثر من «دستين

أو ثلاث دست جانوه ، ، لا ليأكلها أولاده في الحديقة ، بل ليوزعها على القردة ، والأسماك ، وغيرها وغيرها من نزلاء الحديقة . وكان زكريا يحس بمادة وغبطة . وهو يرى هذه الحيوانات تاكل الحلوى : لقد كان يحس بعاسة غريبة نحو الحيوان ، وكانت الليلة التي يرى في بدايتها منظرا مؤلما لقطة ضالة ، أو كلبا جريعا لا يمكن أن تمر دون أن « ينكد » على نفسه ، وعلى الأصدقاء بالرغم مما يبذله من مجهود لتهيئة المكان المريح ، لهذه القطة الضالة أو ذلك الكلب الجريح ، وما من مرة بلغت فيها ثورة زكريا أحمد مداها ، الا عندما يجد أحدا يحن حيوانا أو يضربه أو يقسو عليه ، أو يطرده من المنزل . ولهذا كان يشجع أولاده دواما على تربية الحيوانات . والعناية بها وإطعامها مما تأكل الأسرة منه في وقت واحد . وعندما مات الكلب « لكى » وكان أثمرا عند الأسرة ، وكان قسم من الأسرة يقيم في الاسكندرية والقسم الآخر يقيم في القاهرة تبادل الجميع برقيات التعازى .. وأصدقاء زكريا يعرفون أسهل الطرق للوصول الى قلبه ، فبكلمة صغيرة ، يفتح هذا القلب — اذا كان الاحساس الداخلى يؤيده — ويأخذ منه اقلام الجديد كل ما يريد واكثر مما يريد ، وعندما يفتح قلب زكريا أحمد لانسان على مصراعيه فانه لن يطلق أبدا ، كتب الى الأستاذ عبد السلام شهاب صديق زكريا قصة لقائه بزكريا أحمد عام ١٩٢٣ ، وكيف التقى به لأول مرة .. في جو شعبي فني جميل ، لم يستطع زكريا أحمد ، في سهرة واحدة ، أن يأسر قلب الفتى الشيخ عبد السلام فحسب ، وانما استطاع أن يأسر كل من

كان في السهرة ، بل كل انسان استطاع صوت الشيخ كصيت
ومطرب — أن يصل اليه .. وكذلك كان زكريا دائما . له قدرة
عجيبة على أن يأمر الناس بباطه ، وطيته وشميته ، وحبه
الرائد للناس جميعا : قال عبد السلام شهاب :

« لم يكن قد مضى غير أشهر معدودة على وفاة الفنان المصرى
الأكبر سيد درويش في ١٥ سبتمبر سنة ١٩٢٣ ، وقد رأيت للمرة
الأولى والأخيرة قبل ذلك بحوالى عام ، وفي طنطا أيضا ، حيث
كان يستمع لبعض أدواره الخنائية الغالدة ، في صالة الفناء
الوحيدة بالمدينة حينذاك . وكانت تعرف باسم « نخت حليم » .
إن الحان سيد درويش ، كان الكثير منها على أفواه الشعب
في مختلف أنحاء البلاد ، منذ اتقانه من الاسكندرية للقاهرة ،
قبل ذلك بسنوات .

ونكن أدواره الخنائية بالذات . لم يكن يستطيع أدائها غير
قلة من الفنانين وكانت نجمة الفناء الأولى في نخت حليم واسمها
سيدة بهجت — قد تخصصت في تلك الأدوار ، وصارت أقدر
من يؤديها .. بشهادة ملحنها المبررى العظيم . ومن أجل ذلك
كان يحرص على انتهاز كل فرصة تسنح له لزيارة طنطا ، ليستمع
لأدواره من تلك الفنانة القديرة المتواضعة : وليلقنها مزيدا من
الحانه وتوجيهاته الفنية .

ومن أجل ذلك أيضا ، كانت المكانة الكبرى التى تحتلها في
نفوس رواد الصالة تلك الفنانة النحيلة السراه ، التى لم تمنعها
الأقدار نعييا ملحوظا من بهاء الطلعة أو جمال القوام ، لكنها ..

عوضتها خيرا من ذلك ، صوتا رخيفا حنوطا ، طورا انيرات ،
ساحر الرنين . وبراعة قادرة في حسن الأداء ، وفي قوة التعبير
والتأثير .

و كنت من رواد الصالة كل ليلة تقريبا ، رغم ان هذا كان يمد
بالنسبة لأمثالي من رابع التحيلات ، ولا مجال هنا لتفصيل
الأسباب ، ويكفى أن أذكر بعد الإشارة الى هوايتي الشديدة
للادب واغن ، ان تلك الفنانة المتخصصة في ألحان سيد درويش ،
كانت تعيش في كنف قريب لي ، هو الخفير الرسمى المكلف
بحراسة الصالة ، ومن هنا كان لي أن أدخل الصالة كما شئت ،
فاسمع حتى أشبع من تلك الألحان ، واشرب القهوة والشاي ،
وربما شربتهما معا وفوقهما ما تيسر من الجاير .. كل ذلك
اكراما لحاطر قريبي الخفير الخطير ، ودون دفع أى مليم !

على أن صلتى بالفنانة سيدة بهجت لم تنقطع ، حتى بعد أن
اخطمت كل صلة بينها وبين ملاكها الحارس المذكور ، منذ أن
قبض عليه ضمن عمالة لقتل النسوة المنحرفات والاستيلاء على
ما يحملن من جواهر ومصوغات ، وكان نصيبه الاعدام شنقا مع
ثلاثة أو أربعة آخرين !

كان الاعجاب المشترك باللعان سيد درويش قد ربط تلميذته
النجية بمجموعة من « السيمة » الدائمين ، بعضهم من المثنيين
الهواة والمحترفين .. وبقيتهم خليط من التجار والموظفين والأعيان ،
ومن الطلبة والعمال ، ومع توالى الأيام أصبحنا نحن أفراد هذه
المجموعة بمثابة أسرة واحدة ، ولم نعد نكتفى باجتماعنا في الصالة

لسماع مطربتنا المفضلة ، بل كثيرا ما نجتمع في مسكنها ، او في حفلات يقيمها القادرون منا للسر ، والاستمتاع بسماع الزيد من الحاذ سيد درويش .

وعلى قدر اغتباطي وسعادتي بازدياد ما كنت اسمعه من تلك الألحان . وعن شخصية صاحبها المغمى الذي ودع الحياة فجأة وهو في قمة مجده الفني وربيعان الشباب .. كان الأسى والألف بلاء نقي ، لأنى لم أنظر بسماع الحانه الا في « الاسطوانات » ، بل اتى في المرة الوحيدة التى رايت فيها بالصالة ، لم أعرف انه سيد درويش الا بعد أن انصرف بعد ساعة ، ليواصل سفره عائدا لمقاهرة بالقطار .

ثم كان الحدث الفنى التاريخى الذى كان له اكبر الأثر في حياتي كلها بعد تلك العين :

كان أحد المطربين الهواة من « شلة السيمة » قد أعد حفلة خاصة في منزله لاحدى المناسبات ، وتم فيما يتنا على أن نلتقي جميعا عنده حوالى الساعة العادية عشرة مساء ، عقب انتهاء سيدة بهجت من عملها في الصالة ، لتواصل سماعها الى ما شاء الله . وآثر أكثر أفراد الشلة الا يذهبوا الى الصالة في تلك الليلة ، وذهبوا راسا الى منزل المطرب الصديق منذ العشاء .

وكنى أحد هؤلاء .. ولكننى ما كنت أمضى معهم ساعة او نحوها ، حتى تركتهم وذهبت الى الصالة ، يندمى شمور غريب ، لم اتبين كنهه تماما ، لكنه كان من اقوة والسيطرة على نفسى بحيث أنساني أن أستاذن في الانصراف .

ودخلت الصالة وسيدة بهجت تفتى آخر مقطع في دور
« أنا عشقت » لسيد درويش . واكتفيت بالوقوف في آخر الصالة
ربما تنتهي المقاتلة القليلة الباقية .

ولكن وقتي طالت كثيرا عما قدرت ، ورأيتني مضطرا الى
الجلوس وأنا أرجو في قرارة نفسي أن تستر سيدة بهجت في
الغناء الى ما لا نهاية ، ولا شك ان الحاضرين جميعا كانوا
بشاركونني في ذلك ، فقد تجلى هذا في استماعهم ذاهلين
مندوهين لما كانت تردده من حركات الدور ، في اقتنا عجب ،
وبراعة بلغت حد الاعجاز !

ومفت ساعة أو أكثر ، نيت خلالها نفسي ، ونيت الصديق
المطرب وحفلة والزلاء المنتظرين في منزله . حتى اذا انتهى
الدور ، وسكنت ضجة التصفيق وهنافات التقدير والاستحسان ،
تبينت والدمعة تفرني ان اكثر الزلاء الذين تركتهم في منزل
المطرب الصديق ، قد نوافدوا الى الصالة لاحقين بي ، وكان كل
منهم قد حضر ليمتعل حضور المطربة وبقة أفراد السلة الى الحفلة
التي تنتظرهم .. ولكن ابداعها غير العادي في الغناء سحرهم كما
سحرنى ، فظلوا يسمعون لغنائها حتى أنته ، ناسين كل شيء
سواه !

وكانت مفاجأة لنا جميعا ، حينما أمرت سيدة بهجت فور
انتهائها من الدور فغادرت مكانها على المنصة وسط أفراد الدقة
الموسيقية . وانجحت مهرولة الى شخص غريب لم نره في الصالة

قبل تلك الليلة ثم ألقت بنفسها بين ذراعيه ، وراحا يتبادلان
العناق والتقبلات على مرأى وسمع من جميع الحاضرين .
ولم تطل دهنتنا ، فقد دعنا اليد عقب ذلك ، وقدمت لنا
ذلك الشخص الغريب قائلة :

— تعالوا وحيوا ممي اكبر ملحن في مصر .. الشيخ زكريا
أحمد !

ولم نكن نجهل اسم زكريا أحمد ، فقد كانت له الحاز
مشهورة ، يرددوها كثير من المطربين والمطربات ، وتظفر بالتقدير
والاعجاب من جميع المستمعين .

ولكن الصورة التي انطبعت له في أذهانتنا حتى ذلك الحين
كانت تقف بمبتميته في دائرة محدودة لا تتعدى تلحين القصائد
والموشحات الدينية ، التي اختص بها زميله القديم الشيخ على
محسود ، وعنه نأقلها كثير من المنشدين المشهورين .. وكان أشهر
تلك الموشحات هي الموشحة التي مطلعها « مولاي كبت رحمة
الناس عليك » . والتي كانت بعد ذلك أول لحن اشتهرت بأذاعته
مطربة الشرق أم كلثوم في بداية عهدها بالفناء .

كذلك كان المطرب الأول في ذلك الحين عبد اللطيف البنا
يردد من تلحين زكريا أحمد أغنيات عدة خفيفة من نوع
« الطقاطيق » وقد راجت رواجاً عظيماً بين الجماهير مثل :

— ارخى الستارة اللي في ربحنا .

— حزر فزور راح أقول لك إيه ؟

— كله الا كده لا بس ارجع .

— يا حليله يا حليله أهو وحده جاني الليلة .

— ودا كان لى فين باناس مغبى ؟

ولكن هذه الطماطيق التى لعنها زكريا أول ما لعن ، كانت الحانها تفيع فى الهواء ، ولا يتبينها أمثالنا من « السيمة » . بسبب ما كان يغلب على أدائها من طابع الميوعة والطرادة واللين . وأيا ما كان الأمر ، فقد انضمنا جميعا الى مطربتنا المفضلة فى الترحيب بالملحن القاهرى الضيف . ورحب هو فى ظرف وبساطة بمصاحبتنا الى الحفلة التى تنتظرنا ، وبسببه تأخرنا عن موعدنا مع صاحبها .

وكان الوقت قد جاوز منتصف الليل بساعتين حينما وصلنا ، ولم ينتظر زكريا حتى تقدمه للمطرب صاحب الحفلة ، بل سارع هو نفسه الى القيام بهذه المهمة فى بساطة معببة ، واعتذارات لطيفة مقبولة ، ثم اقترح حتى لا يفيع وقت آخر أن تسمنا سيدة بهجت نفس دور « أنا عشقت » الذى غنته فى الصالة .

ونجلت بساطته أكثر حينما اتخذ مجلسه الى جانب المطربة وأمسك عودا آخر كان فى يده المطرب صاحب الحفلة ، ثم أصلحه فى سرعة ملحوظة حتى انسجم مع بقية الآلات ، وأعطى فور ذلك إشارة البدء ، متوليا قيادة التخت فى براعة وأستاذية زادهما التواضع وعدم التكلف سيطرة على الأسباع والقلوب .

وكانت المفاجأة الأولى فى الحفلة ، حينما أخذ زكريا يؤدى مذاهب الدور مع المجموعة ، فإذا صوته الأجش العريض العميق ، يتخذ لنفسه مكانة بارزة خاصة بين مختلف الأصوات التى

نصاحه ، واذا به يؤدي النضات المختلفة في الدور في دقة بالغة
وتمكن بلغ متناه ..

ولم تمالك الفنانة الحساسة سيدة بهجت نفسها من شدة
التأثر ، فأطلقت لدموعها العنان ، وكلما أبدع زكريا في حركة
صعبة من حركات الدور ، نهضت من مجلها ومالت عليه تقبله
وندعو له بطول العمر والعافية . مؤكدة ان أحدا غير سيد درويش
نفسه لا يمكن أن يؤدي هذه الحركات بمثل هذا الاتقان
والإبداع !

وكانت المفاجأة الثانية في الحفلة ، بعد أن انتهى زكريا من
أدائه العجيب للدور سيد درويش ، انه أخذ يسمنا بعض ألحانه
الفكهة ، مقلدا فيها مشاهير المشدين والمطربين والمطربات ، فاذا
بالمنزّل كله يضح بالضحكات والنصفيق والاعجاب بما يؤديه زكريا
أحمد من مقدرة فائقة على التمثيل ، والتقليد والمحاكاة !

ثم كانت المفاجأة الثالثة والأخيرة ، حينما انتقل صاحبنا من
تلك الألحان الفكهة ، الى أسعنا مقتطفات من ألحانه التي يغنيها
الشيخ على محمود وعبد اللطيف البنا ونعيمة المصرية ومالك
عبد الحى وغيرهم من المطربين والمطربات .

تقد كان ساعنا لهذه المقتطفات من ألحان زكريا أحمد ،
يؤديها بنفسه ، كميلا بتغير رأينا فيها من التقيض الى التقيض .
وتبين لنا بوضوح أن هذه الألحان من القوة والجمال التقنى
والتجديد السليم في الموسيقى العربية بحيث تقف جنبا الى جنب
مع ألحان الشيخ سيد درويش .

وامتدت السهرة الى قرب شهر اليوم التالى ، ثم سافر الشيخ
زكريا عائدا للقاهرة ، تاركا في طنطا جمهورا يزداد عدده يوما
بعد يوم بما ينتجه من الحان .

وفي السنوات الثلاث التاليات ، كانت طنطا كلها تغنى مع
أفراد ثلثنا الحان زكريا أحد : أبوها راضى وأنا راضى — اوعى
تكلمنى — اللى يعمق يوم : يا سباتيك خالص يا مندم —
له بره والأذان قرب بدن .. الخ .

وفي سنة ١٩٢٦ انتقلت الى القاهرة لانعام الدراسة ،
ولم يمدنى الحظ بلقاء زكريا منذ ثمانى الأول في ثمانا
الاسنة ١٩٢٧ .

ومنذ ذلك الحين ، أصبحنا صديقين متلازمين . وصرنا نلتقى
كل يوم تقريبا .

وكان لزكريا أصدقاء خالصاء في كل بلد في مصر . وقد عرفتهم
منه وصادقتهم منه . وكثيرا ما اضغبتى لزيارتهم أو اسطحبهم
لزيارتى .

وهكذا قدر لى أن أحضر مولد أكثر الأئحان التى أبدعها
منذ ذلك الحين الى أن اختاره الله الى جواره .



وبمثل هذه الطريقة البسيطة نعرف زكريا أحد ، الى بقية
الثلة من أهل الفن ، الذين ظلت صداقتهم عشرات السنين :
لا تنسوها أية شائبة من خلاف أو شبه خلاف . يلتقون ، ومحور
اللقاء زكريا وبخترقون لساعات ، على أن يكون اللقاء فيما بعد

عند زكريا وظلت هذه النسلة هي المجتمع الصغير الذي يعيش فيه زكريا أحمد معظم أوقاته .. لم يحاول - ولو مرة واحدة - أن يتقرب الى صاحب سلطان أو جاء مها يكن صاحب هذا الجاه أو السلطان يتحكم في مصير قصة الميش ، كان يعلم أن الإذاعة والتليفزيون فيما بعد قد أصبحا بالنسبة للفنان كل شيء في مجال نشاطه ولكن زكريا كان يهرب منهما . ويعتمد دواما عن الأجواء الخاصة التي يعيش فيها بعض الفنانين والفنانيات البارزين بالذات ، وكذلك كان الحال بالنسبة لرجال الصحافة مع زكريا ، كان أصدقاؤه من الصحفيين هم من قدامى الأصدقاء ، الذين ليس من علمهم نشر الأخبار التافهة ، أو المساعيير الرخيصة ، وعندما كان أحدهم يرغب في عمل حديث صحفي مع زكريا كان يهرب منه الا ان سمع عنه انه تقلع عن فكرة الحديث هذه .. وأنا شخصيا حاولت في الأعوام الثلاثة الأخيرة أن أكتب عن زكريا والحقت عليه ووسطت عنده بعض أهل الفن ولكنه كان يروغ باستمرار .. ولم يكن زكريا يسمح لأحد بأن يزوره في بيته الا اذا كان وانها تمام الثقة من هذا الشخص ، وعندما يبدو من هذا الشخص ما يضايقه أو عندما لا يستظرفه أحد من أفراد النسلة يستمع زكريا عن مقابله ، كما يستمع عن الرد على تليفونه ، ليشرعه بأنه قد ضاق به - وقتما كان يحدث ذلك . والشئ الذي كان يرفع زكريا في نظري الى مستوى الخالدين ، إيمانه الذي لم يتزعزع بكرامته ، وكرامة كل فنان ، كان يقول ان الكرامة بالنسبة للفنان - بل وبالنسبة لكل انسان - تعادل العرض بالنسبة لأية فتاة

وأى انسان ، وأى فنان يفرط فى كرامته يكون كالنقطة التى تهرط
فى عرضها وكان يقول : ان كرامة الفنان بل الانسان تساوى
كرامته والانسان بلا كرامة كالانسان بلا حياة ..

كان يثق دوما فى نفسه ، وفى فنه ، وفى شخصيته ، وكان
لا يحاول أبدا أن ينزل من عليائه ولو كان هذا النزول سيدر عليه
الوف الجنيات ، وكان يأسف بمرارة عندما يسمع ان هذا الفنان
أو ذاك ، قد ذهب الى أحد مقدمى البرامج فى الاذاعة ، ليرجوه
أن يذيع له أغنية من أغانيه الجديدة ، وكان يبدو عليه الأسف
واحزن عندما يسمع ان فنانا أو فنانة ، يرجو صحفيا ما ، لكى
ينشر خبراعنه ، أو عنها ، أو عن أغنية له ، أولها .. وكان يقول
دائما : ان أم كلثوم تربعت على عرش الغناء ، لأنها فنانة أصيلة
ولأنها حبيطة على كرامتها وعلى شخصيتها وهذا سر إعجاب
الناس بها ، وسر بقائها على عرشها طوال هذه الفترة
الطويلة .



وفى كثير من الحالات كان يروى قصصا عديدة عن احتفاظ
الفنان بكرامته ، سمعت منه مرة قصة عن عبده الحمولى — وكنت
سمعتها من قبل من الأستاذ راشد رستم — أراد أحدهم وكان
من أصدقاء عبده الحمولى مداعبته ، فقتلها أثناء غناء الحمولى
بقراءة صحيفة كانت فى يده ، وترك عبده الحمولى المنصة واتجه
الى هذا الشخص وأزاح الجريدة بيده ، وهو يقول له أمام
الناس : « اذا غنى عبده الحمولى أنصت الكون .. » ثم عاد الى

مكانه . وابتسم بعد أن فهم أن القصد لم يكن اهاتته ، بل كان مداعبته ..

وبالرغم من اختلافه مع ماركوني منذ عام ١٩٣٦ ، ورفع الخلاف إلى المحاكم المختلطة ، وبالرغم من مساعي الأستاذ محمد فتحى وغيره من أقطاب الاذاعة ، فقد ظل زكريا عند موقفه . إلى أن اعترفت له الاذاعة بحقه وكرامته ، وبالرغم من أن اختلافه مع أم كلثوم سنوات طويلة لا نستطيع أن نقول عنها إلا انها كانت سنوات عجاف مجذبة للفن ولأهله حاول الكثيرون معرفة سر هذا الخلاف فلم يستطيعوا الوصول إلى هذا السر ، وذات يوم ولم أكن سألت زكريا شيئا عن ذلك الخلاف قال لى : بالرغم من أن أم كلثوم من خيرة من عرفت ذكاه ومقدرة وفهما للناس ، إلا أنها تغيرت بالنسبة لى ، نيت زكريا أحمد ، الذى رافقها بإيمان واخلاص ، وتغافى فى الطريق الطويل إلى المجد ، ولم تفهم أخلاقى وكبريائى .. وسكت زكريا برهة ثم قال : « وبذلك أجبرتني أم كلثوم — الأخت والصديقة وانزيميلة — وأنا الفنان المسالم ، الذى لم يذهب إلى المحاكم ولو شاهدا ، أن أترك على وأتفرغ لخدمة القضايا بدلا من التفرغ لخدمة الفن » .



وكان زكريا يقول أن أهل الفن يجب أن يتعارفوا ويجب أن يتصادقوا ويحس كل واحد تجاه الآخر ، بالحب والود لأنهم جميعا أسرة واحدة ، مها اختلف أفرادها وتباينت اتجاهاتهم ، وقال ذات مرة : لقد قضيت أياما قاسية مريرة ، عندما أصر كامل

الخلعى وهو من خيرة موسيقيينا ومن خيرة مؤلفينا ، وشرائنا ، بعدما كره الفن : على أن يستهن مسح الأحذية ، فاشترى صندوقا صغيرا ملأه بالورنيش وربطة الأحذية وراح يروح به على المقاهى فى شارع عماد الدين الذى كان من نجومه اللامعة ، وذات يوم أعطاه أحدهم خمسة قروش فتناولها كامل الخلعى فى دهشة وقال : صاحب هذه القطعة : « هل هذه القطعة لى كلها » فقال الرجل نعم ، فقال : كامل : يعنى على كده ، انت عارف أنا مين ؟ وقال الشخص : طبعاً يا أستاذ . وقال كامل . اخصى عليك ، يعنى عارفى ونهنى .. أعرف أن كامل الخلعى لو أراد أن يكسب الوف الجنيهات يقدر يشتغل مزبحة . لكن أنا مش عاوز كده .. أنا عاوز اشتغل بمزاجى ، مش بمزاج الناس .. استنى لما اجيب لك أربعة قروش ونص .. » وظل كامل الخلعى يمارس مهنة مسح الأحذية ونحن أسدقناؤه — هكذا قال زكريا — نلتقى به كل ليلة لنحاول اقناعه بالعودة الى الموسيقى حتى أثرنا فيه حنانه للموسيقى فترك صندوق الورنيش وعاد الى الكا والجركا .

وكان زكريا يقارن بين ما حدث لكامل الخلعى وما حدث له وبين ما كان يحدث للفنانين فى الخارج . ذكر لى أن الموسيقار الايطالى — توككانينى العظيم — أقام حفلة لتقديم النشيد القومى الأمريكى « علم النجمة المذهب » بلغ ايرادها مليون دولار ، فى ليلة واحدة ، وكب له بعدها روزفلت وكان رئيسا للولايات المتحدة قائلاً : « ان ماهتك الرقيقة لاعلاء شأن الموسيقى العالمية قد لاقت تقديرًا مرفًا وولاء مخلصًا لدى محبى الحرية ،

والمكافعين من أجل قضيتها ، ولقد برهنت خلال حياتك على أن
الفن العظيم لا يدھر الا بين الأحرار .

وقد نزل مرة روزفلت من مقصورة الرئاسة في قاعة الدستور
بواشنطن يؤدي تحية اجلال الى توسكانيي قبل افتتاح البرنامج ..
وذكر لي زكريا ما قاله الرئيس الأمريكى السابق ايزنهاور
عندما مات توسكانيي : « لقد علت ببالغ الألم والأسى بآ وفاة
ارنورد توسكانيي ، وكانسان وموسيقار كسب توسكانيي تقدير
العالم واعجابه فكان يتكلم بلغة الانسان العالمية ، الموسيقى ،
كما كان ينطق بالحرية في كل مكان ، فالموسيقى التى خلقها
وكراميته تلاحظها تعد من تراث عصرنا هذا .. » .

وأشهد أنتى طوال معرفتى بزكريا أحمد لم أجده سعيدا في
يوم من الأيام مثل سعادته في يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٩٦٥ عندما
انتم عليه الرئيس جمال عبد الناصر بوسام العلوم والفنون من
الدرجة الأولى في عيد العلم .



وكان يضحك من كل قلبه ، عندما يروى لى قصة رواها من
قبل الدكتور فؤاد رشيد « انه في عام ١٩١٦ أقامت جمعية انصار
التشيل حفلة لحساب الجمعية الخيرية الاسلامية مثلت فيها رواية
عزة بنت الخليفة تأليف ابراهيم رمزي ، وحضر هذه الحفلة
السلطان السابق حين كامل وبصحبته أحمد تيمور باشا ، وقام
بالدور الأول فيها محمد تيمور . وقابل الجمهور الرواية
باستحسان بالغ حتى ان الستار الأخير رفع عدة مرات اجابة

لتصفيق الجمهور وهتافه ، ولكن السلطان لم يرقه شيء من هذا والتفت الى تيمور الأب غاضبا وقال : جرى ايه يا باشا يصح ابنك يعمل أراجوز جرى ايه لأولاد الذوات .. فارتبك تيمور ولم يسغه انطق ولا البيان ، فقال السلطان اذا كنت مش قادر عليه فأنا أقدر عليه ، ولا يمكن أسحق لأولاد الباشوات بمثل هذا العبث ، وفي صباح اليوم التالي أصدر السلطان مرسوما بتعيين محمد تيمور شرفانبايا بالقصر السلطاني ولم يسع محمد تيمور الا قبول المنصب والاستقالة من جمعية أنصار التمثيل ورياستها .

وكان زكريا يروي هذه القصة ويقول : انه نموذج لتفكير اناس اللي كانوا بيعحكمونا ويتصرفوا في كل أمورنا ..

ويتم قائلا : « الحمد لله ، اللي شجرتهم ماعدش لها وجود في بلدنا .. » .



وليس صحيحا أبدا ما يقال من أن زكريا أحد ، كان مترمنا في فنه ، لقد روى لي الأستاذ حبيب جاماني قصة محاولة بداها هو وزكريا وكاد يكتب لها النجاح لولا أن تدخلت العوامل الشخصية عند بعض المولين — قال حبيب جاماني : « عندما اتصلت فاطمة رشدي عن يوسف وهي : كوّنت فرقة خاصة بها تعمل في تياترو دلو التمثيل العربي ، وقد ترجمت لها كثيرا من روايات الأوبرا الى دراما باللغة العربية مثل سلامبو ومانو ، وعابدة ، كما ترجمت لها كثيرا من روايات الأوبرا « غادة الكاميليا » ، وفكرت أنا وزكريا في أن نترجم الموسيقى ، الأوربية

الى موسيقى عربية ، أنا أعرب الكلام وهو يعرب الموسيقى ..
ورحب عزيز عبد الفكرة ، ورحب أيضا — عمر سرى — من أبناء
الذولت الذين نزلوا الى ميدان التمثيل وأعلن استعداده لوضع
رأس مال قدره عشرة آلاف جنيه ، لتنفيذ الفكرة ، وبدأنا تعرب
أربعة ألحان ونظمنا اجتماعا فى منزل عمر سرى حضره طلعت حرب
وكان يبدى اهتماما كبيرا بالمرح . وتدخل أولاد عكاشة فى
الموضوع وأصرروا فىا بعد على الاشتراك فيه وأيدهم طلعت
حرب . وكانت الية متجهة نحو منيرة المهدي لتمثل عابدة ، واقتراح
طلعت حرب أن يقوم بالدور الأول أمام منيرة أحد أولاد عكاشة
ولم تقبل منيرة ولم يرض زكريا .. وفانح زكريا أم كلثوم فى هذه
الفترة ، وكانت قد اقتنعت بالعمل فى السينما ، لكى تنزل الى
المرح وقال ان أم كلثوم لو كسبها المرح لحقق أعظم انتصار
له ، وترددت أم كلثوم ، وكنا قد اتهمنا من تعرب موسيقى
عابده ، وسلامبو وقام منصور عوض بكتابة النونات الموسيقية
ومات المشروع ، وقبل وفاة زكريا بأسابيع فاتحته من جديد فى
الموضوع فقال انه سيبحث عن الأوراق التى يحتمل أن تكون
ضمن أوراق المرحوم طلعت حرب ..

ثم مات المشروع نهائيا بوفاة زكريا أحمد .

وزاوية أخرى من زوايا شخصية زكريا أحمد نجب أن نشير
إليها — باختصار — فى هذا المجال ، لقد كان زكريا يعلم حق
العلم ان حياته قد مرت بدون مقولة ، لذلك كان يبذل المستحيل
من أجل أولاده ، ليطيل فترة طفولتهم وليتمهم بما شاء لهم أن

يستموا به ، وبما حرم هو منه في طفولته ، ولذلك كان طلب أى ابن من أبائه يعتبر أمرا لا بد من تنفيذه على وجه السرعة ، وبمنتهى الدقة . ولما كان زكريا في طفولته قد كره الكذب ، ونمود دائما الا يكذب لانه يرى ان الكذاب دائما جبان ، وهو لم يرد أن يكون في لحظة ما جباناً ، فقد كان أكره ما يكرهه الكذب ، الكذب على النفس ، وعلى الناس ، وكان دائما يستعجب من أن بعض الناس يكذبون ويسرفون في الكذب ، وكان يقول ان هؤلاء مرضى ، وكما يوجد مرضى يحب الرقة فكذلك يوجد مرضى يحب الكذب ، وكان لا يمتنع أبدا عن أن يقول كلمة الحق حتى ولو كانت هذه الكلمة ستجعله يتضور من الجوع .. وكان يكره دائما الرجل الملتوى كما كان يكره الطرق الملتوية ، وكان يرى هؤلاء الذين يرتفعون بسبب التوائهم وقدرتهم على التلحق والكذب فيستسم في سخرية : ويقول : « دى أمجاد من القش ولا أقولك خسارة عليها تبقى قش لأن القش ممكن يستمر شوية ، انما الحقيقة دى أمجاد من الرمل ، ويتنهدم بسرعة » ثم يقول : « أنا لا أحب الا الطريق المستقيم ولا أقبل الا الطريق المستقيم ، ولو كان الطريق المستقيم حيموت أولادى من الجوع وحيموتنى أنا أيضا ، لا يمكن أن أتترك هذا الطريق » .

ولم يقبل زكريا أحمد طيلة حياته أن يكون له شلة من المرتزقة ، تطبل وتزمر له بالحق ، أو بالباطل ، ولم يقبل هو نفسه الانضمام الى شلة من الشلل . ذهب اليه أحدهم ليقول له ناصحا : « لماذا لا تسهر مع فلان ؟ لقد أقبلت عليه الدنيا وأصبحت

في يديه ابراب كذا وكذا وهو يستطيع ان يسهل لك كل امورك ؟
 وقال زكريا لمحدثه وهو يكاد يغتقه : قل لسيدك ان زكريا
 لا يشتري احدا ، ولا يمكن لاحد ان يشتريه ولا يمكن ان يكون
 «دلدولا» لاحد .. ولا يقبل لاحد من الناس ان يكون دلدوله .
 وقال له صديق : يا زكريا ، لقد بلغت من العمر ما يجعلك
 تعكر في اولادك ، يجب ان تطلع عن طريقك في الحديث مع
 اولئك الذين ارغموا ، وآلت اليهم معائر انخوف انك تعاملهم
 كأنهم اولاد الأمس وتسى حاضرم ؟ وقال زكريا : « أولا أريد
 ان أسالك هل وكللك اولادى في المطالبة بحقوقهم بعد مائى ،
 انا لا أريد ان اشترى ثروة لأولادى من التناق .. اننى لو فعلت
 ذلك لمت غيبقا وكعدا » .

وقال له ثالث : — وكان الحديث أمامى — : يا زكريا فاكدا ان
 الحرب ضدك ستستمر بعد وفاتك . ان كثيرا من اناس
 ذوى القلوب السوداء لا ينهون خصوماتهم بالموت ، بل يشاغفونها
 بعد موت خصومهم ، وانا أخشى على تراثك الفنى الضخم ان
 يضيع متأثرا بهذه الخصومات ؟ وقال زكريا : « تقى وعاكدا اننى
 لا أحمل لانسان ما — وخاصة اذا كان فناانا — الا كل حب
 وتقدير ومودة ، واختلاف مع البعض في مسائل فنية لا يمكن ان
 يتطرق الى اشخاصهم ، لقد كنت على خلاف مثلا مع أم كلثوم
 وكنت اتقددها لأنها بالنسبة لى أكثر من أخت وأكثر من زميلة ،
 ولكنى لم أبغها وما كان لى ان أفعل ذلك فى يوم من
 الأيام . انها سيدة من غنى فى هذا العصر وانها حامية حتى

الموسيقى العربية ، بموهبتها وشخصيتها واصرارها على الاتقنى
 الا اللون العربى « وسكت زكريا برهة ثم قال : « ماذا يستطيع
 هؤلاء أن يفعلوا بى بعد موتى ، يستمعون لاذاعة الاغانى والأوبريات
 التى لحنها .. يستمعون عن السير فى جنازتى . لا يكلفون أنفسهم
 عناء ارسال تلفراف تغزية الى أسرتى .. كل ذلك مسائل صغيرة
 لا يمكن أن تجعلنى أغير الخط ، الذى اختططته لنفسى فى الحياة :
 حب الناس جيما وكلمة الحق فى كل الظروف والأحوال .. » .
 لقد كان زكريا يحب الناس جيما ، ولكنه كان دواما يحرص
 على استقلال ذاته ، حرصا شديدا ، وكان يغار عليها من تطفل
 الآخرين . وكان يحمل لغيره من الاحترام ما هو جدير به . كما
 يحمل لنفسه أيضا من الاحترام ما هو جدير به ، وكان يفرق بين
 التواضع والشعور بالتعاهة ، وبين محبة الناس ، والتعاهة على
 الناس .. كان زكريا بحق مزيجا من التامع ، والتواضع والكبرياء
 .. والطوح .

تصور الفجة التى أقامتها الصحافة حول آخر أغنيات زكريا
 لأم كلثوم « هو صحيح الهوى غلاب » ونصور زكريا وهو يتأهب
 لسماع الأغنية من أم كلثوم بعد مدة طويلة هل ذهب
 الى مسرح حديقة الأزيكية واحتل كرسيا فى الصف الأول أو راح
 يتباهى بفنه ؟ لا ! لم يفعل شيئا من ذلك ، ترك الملايين التى تهتف
 باسمه والأذهان التى تهفو لسماع الحانة .. وذهب الى
 درب المسط لسمع أم كلثوم من هناك وأدع للفنان كمال
 الجوىلى يصف هذه الليلة التى رافقه فيها فيقول :

« استمع زكريا أحمد الى أغنيته الجديدة التي لحنها لأم كلثوم وهو في فرح الفرح كان في درب المسط . كان فرح نبوة قطه بنت صديق عمره عبد العزيز قطه أشهر كاتب دويما في بلادنا . قبل أن تغني أم كلثوم في حفلتها غنى زكريا أحمد في الفرح ، لم يكن « ما اعرفش انا » التي لحنها لأم كلثوم بعد طول غياب ، غنى للمروسيين على الكوشة « ليلتنا نادية » و « صلاة الزين على المروسيين » .

بعد أن غنى زكريا أحمد انتهى الفرح . خرج المدعوون وبقي زكريا أحمد والعريس والعروس . كانت الساعة ١٢ .. وكان معنى ذلك ان الوصلة الأولى لأم كلثوم قد انتهت . لم يتم أحد في الفرح بسامعا . كانوا مشغولين عن سماعها بفرحهم .. وكانوا قد عرفوا كلهم ان الأغنية قديمة .. « هجرتك يمكن أنسى هواك » .. وجاء موعد الأغنية الثانية . كانت « حب ايه الملى انت جاي حول عليه » كانت أول أغنية يلحنها بلخ حمدى لأم كلثوم ، وبدأ الشيخ زكريا يتم . كان يضع الكوفية التقليدية حول رقبته .. وفي عنقه بيون بنى انيق .. وكان يجلس على « كبة استامبولي » .. كان زكريا أحمد يسمع بكل حواسه ، كان كمن يريد أن يستوعب كل اللحن . عبر عن رأيه في بساطة .. قال ان الأوركسترا كانت تاكل كل شيء .. طفت على كل شيء .

وفي الواحدة انتهت الوصلة الثانية وسمع زكريا أحمد آخر نشرة للأخبار كان الشيخ يعرف ان الوصلة الثالثة « ما اعرفش انا » .. كان واضحا انه قلق . أصابع يديه تتحرك .. كان

يسك بعلبة الكبريت لبشمل أعوادها واحدا وراء الآخر دون
مناسبة .. ولا سيجارة واحدة عرفت طريقها الى شفتيه في لحظة
الانتظار .

باختصار كان الملحن الشيخ صاحب التجارب الطويلة والألحان
الناجحة كالزوج الذي يقف خارج غرفة الولادة في انتظار مولوده
الجديد ، وبدأت الأذاعة الخارجية مسرة نائمة وامتت علبة
الكبريت . في هذه اللحظة اعتدل زكريا أحمد فوق الكنبه .. وفي
حركة لاشعورية مد يده الى جيبه ليخرج سيجارة .. لم يجدها
فطلبها من العريس .

وجاء صوت المذيع يعلن الأغنية الثالثة .. من كلمات يريم ..
وتلحين زكريا أحمد .. واشمل الشيخ زكريا السجارة وأحنى
رأسه كمتى خجول .. واللحظة التي كان يرتفع فيها تصفيق
الجمهور وهو يستقبل أم كلثوم .. وبدأ لحن زكريا أحمد ينساب
في سكون الليل .. بصوت أم كلثوم : « هو صحيح الهوى
غلاب .. ما اعرفنى انا والعجبر قالوا مرار وعذاب .. واليوم
بنة » .

ورأيت زكريا أحمد سعيدا .. كانت ترسم على وجهه
ابتسامات متواضعة .. بلا غرور .. وتحس الجواهر .. وتحس
أم كلثوم .. وتعيد مرة ومرة .. « ازاي يا نرى .. أهو ده اللي
جرى .. ما اعرفنى انا » .. وفي هذه اللحظة تغير الصورة .
قام العريس والعروس من الكوشة . وقام زكريا أحمد في هدوء
وفي خجل من فوق الكنبه . وذهب الى الكوشة .. جلس عليها

فعلا . كان كانه يمشى وهو قائم . وأصبح العريس والعروس
والأهل مدعوين .. والشيخ زكريا هو العريس ..
وتردد أم كلثوم « ازاي يا نرى ، أهو ده اللي جرى »
ونتهى خلة أم كلثوم .
وتضج الجواهر بالتصفيق ..
ويقوم العريس والعروس ، لهننا زكريا أحمد .
وينزل الشيخ زكريا من الكوشة ..
ويخرج ليشق طريقه خارج درب المسط ، الذى شهد
فرحين .

فرح نبوية قطة .

وفرح « أهو ده اللي جرى .. » .

وينتهى الفرح ونتهى الأغنية ونتهى حياة زكريا أحمد بعد
فترة قصيرة ، تلك الحياة التى كانت أشبه بأغنية حلوة فى قم القدر ،
أسعد ويسعد بها الملايين من المعجبين بالموسيقى العربية الصادقة ..
ولا تنتهى موسيقى زكريا بل تبقى الى الأبد ، مشكلة فى
هذه الثروة الفنية العربية الصادقة ، التى لربو أن تنال ما تستحق
من عناية ودراسة ، ونسجيد . فاتها من الثروات الموسيقية العالمية ،
التي ينبغى أن تفاخر بها الدنيا .

رحم الله زكريا أحمد رحمة واسعة ، فلقد كان فنانا ، شعبيا
صادقا ، أحب كل الناس ، وأخلص للفن وأهله وحافظ على
كرامته ، وقدم لوطنه العربي ثروة موسيقية جديرة بكل تقدير
واجلال .

مراجع البحث

- ١ - مجموعات الصحف العربية الصادرة في القاهرة
(١٩١٩ - ١٩٦١) .
- ٢ - تراننا الموسيقى ، أصدرته اللجنة الموسيقية العليا ،
للدكتور محمود الحفنى والأستاذ ابراهيم شديق .
- ٣ - تاريخ الموسيقى العربية : هـ . ج . فارمر .
- ٤ - تاريخ الموسيقى : برنار شامينيول .
- ٥ - تاريخ اعلام للموسيقى الشرقية الاساد عبد النعم عرفة .
- ٦ - المقام العراقي : هاشم محمد الرجب : طبعة بغداد .
- ٧ - مفرح الجنس اللطيف محمود حمدي البولافى .
- ٨ - يوميات زكريا احمد .
- ٩ - اصول الروايات المسرحية التي لعنها زكريا احمد .
- ١٠ - ذكريات : الصيفة فاطمة اليوسف .
- ١١ - الصحفي الناصر : دكتور ابراهيم عبد .
- ١٢ - محمد فريد : رمز الاخلاص والنضحية : للاستاذ عبد الرحمن
الراعى .
- ١٣ - مجلة الموسيقى : سنة ١٩٣٥ .
- ١٤ - وصف مصر : كلوت بك .
- ١٥ - الرسالة الرشادية : الشيخ اسماعيل سكر .

فهرس

صفحة	ملصمة
٢
١٧	كلية سرمصة فى الموسقى العربفة
٤٧	انطلاقة جدفعة
٦٢	من مدرسة الشعب ..
٩٤	بدافة ملحن
١٠٧	مجسمة الاول ..
١٣٢	عش الزوجفة ، اربعون عاما من الزواج والحب ..
١٤٧	الفن فى ثورة ١٩١٩
١٦٢	تلاحفن زكرفا (٥٦ اوبرا واوبرفت من تلحن زكرفا احمء
١٩٢	بفن سفء ءروفش وزكرفا احمء
٢٢٧	ام كلثوم وزكرفا (معا على عنفات المءء) ..
٢٤٣	اعماله الفنفة للنفعة ..
٢٥٢	رحلاته الى الخارج
٢٧٧	مع زكرفا فى يومفانه ..
٢٩١	صانع الروائع
٣٣٦	الفصل الاخفر

